رواية

مدونة ابو عبدو

وليد أحمد دماج

ظلال الجفر

دار الآداب

وليد أحمد دماج

ظلال الجفر

رواية

دار الآداب ـ بيروت

ظلال الجفر

وليد أحمد دماج / روائي يمني
الطبعة الأولى عام 2013
ISBN 978-9953-89-253-5
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana.adab@hotmail.com
Website: www.daraladab.com
Facebook: Dar Al Adab

شكر

إلى كلّ من أعانني على هذا، وأخصّ بالذكر أمّي التي فارقت الحياة وهي تنتظر خروجه إلى النور، وزوجتي زينب وطفليَّ أدهم وميسون الذين كابدوا التعب وعانوا الإهمال؛ وصديقي نشوان محسن، الذي لم يبخل بجهده ووقته؛ وكلّ من تجشّم عناء الاطّلاع وإبداء الرأي والمشورة وإزجاء الملاحظات وأخصّهم وليد مانع وهمدان ومطيع دماج... ها هو عملنا المشترك ينبض بالحياة.

الإهـــداء

إلى ظلّي اللذين غدرا بي برحيلهما المباغت. . . أمّي، وأبي.
إلى كلّ ظلّ أتى وغادر دون أن يشعر به أحد.

أ ـ كتاب التحوّل

الرؤية

الرؤيـة الأولى

تحتدم الأشياء حين لا يكون ثمّة وعي

أعلم أنّني أبدو للكثيرين شخصًا غريبًا، بل إنّ البعض يصمونني بالجنون أو الهوس. والحقيقة أنّني كنت كلّ ذلك.

كانت البداية عاديّة، لا تتعدّى الاهتمام المبالغ فيه ببعض الظواهر الغريبة، التي ينشغل بها عادة غريبو الأطوار. صحيح أنّ الكثيرين تمرُّ بهم مثل هذه الهواجس والاهتمامات، خصوصًا في مراحل مبكرة من حياتهم؛ إلّا أنّهم سرعان ما يتجاوزونها، لتبقى مجرّد ذكريات يتلذّذون بذكرها لأبنائهم في القادم من حياتهم. هذا ما لم يحدث معي. لقد بات هاجسًا مسيطرًا، لم أستطع فكاكًا منه حتى الآن.

لا أدري كيف أبسِّط الموضوع أكثر! فبرغم قراءاتي وتجاربي الكثيرة، أقف حائرًا أمام ما أصوغه من عبارات، وبمعنى أدقّ: أمام تحويل ما يدور في ذهني من أفكار إلى كلمات مكتوبة. هو أمر أظنّ أنّ الغالبيّة يشاطرونني إيّاه. لذا أكنُّ دائمًا إعجابًا بالمؤلّفين والكُتّاب، أيًّا كانوا، وأيًّا كان ما يكتبونه.

ها أنذا أحاول تدوين كلّ ما مرَّ بي من أحداث، برغم عدم إقدامي

على الكتابة سابقًا، باستثناء بعض محاولات بسيطة لا تستحق الذكر، وإنّي على يقين من أنّ مدوّني هذا سيقع، ذات يوم، في أيدٍ تقدّره وتهتمّ بها.

للإدراك عواقب عمل كهذا؛ لكنّ الأمر لديّ سيّان؛ فلا فرق في النهاية بين آلام ناجمة عن لسعات نيران أو لسعات جليد. كما أنّ العذاب المتصل حتى الموت خير من حياة ملؤها الخوف.

تردّدت كثيرًا قبل أن أحسم أمري وأعزم على الكتابة. وفي الأخير كان لا بدّ لي منه، أسوة بمن سبقوني من معلّمي الظلّ، الذين نقلوا معارفهم وتجاربهم ومهاراتهم وأسرارهم إلى تلاميذهم، وبكلمة أدقّ: مريديهم، وهو ما أودّ فعله الآن، دون التركيز على أسلوب ومنهج الكتابة، وأيًّا كان ذلك المريد، المهمّ أن أتمكّن من إيصال ما أريده كما هو، أو على الأقلّ بأقرب صورة ممكنة. سأخوض في تفاصيل مبهمة، وعلوم غيبيّة ما ورائيّة، لن يدركها إلّا من ينبغي لهم ذلك، وهم قلّة شاءت لهم أقدارهم أن يبحروا في مثل هكذا مجالات، وليتجاوزها الآخرون إلى ما يقدرون.

فإلى تلاميذي، الذين لن أتمكّن من رؤيتهم، أهدي إليكم هذا الحلم، هذا الإدراك؛ عسى أن تتمكّنوا من استيعاب محتوياته وإضافتها إلى رصيد معارفكم؛ مواصلة للدرب! إنّه كتاب الظلّ؛ ظلّي أنا، وظلال روّادي.

* * *

يبتدئ الحلم في ذاكرة الطفولة الضبابيّة، التي لا تمّحي. في العاشرة من عمري، كنت أقضي إجازتي الصيفيّة في مساعدة أسرتي على رعي تلك الأغنام القليلة، أسرح بها في أرجاء وسفوح الجبال المحيطة بقريتنا، رفقة رعاة متمرّسين أكبر منّي سنًّا. كنّا نرعى من الصباح الباكر

ولا نعود إلّا قبيل المغيب. ذات يوم، وكنت أرعى الأغنام بصحبة راع وراعية من أقاربي، كان النهار في منتصفه، السماء مكفهرّة ملبّدة بالغيوم، تنذر بهطول مطر غزير. رحنا نجمع الأغنام المتناثرة في الأرجاء، لنتمكّن من المغادرة قبل أن تقطع علينا السيول طريق العودة إلى القرية. جمعناها إلّا واحدة من أغنامي. استعنت بالراعي الآخر للبحث عنها. ذهبنا إلى الاتّجاه الذي ظنّناها فيه. بعد لأي عثرنا عليها عالقة تثغو داخل كهف «منجوث»[1]. كنّا في الأعلى، فلم نعثر على فتحة أخرى غير تلك. عرفت في تلك اللحظة سبب تسميته بـ «الكهف المنجوث».

بدأ المطر يهطل بغزارة، والبروق ترمي بشررها فوقنا بشراسة، دويّها يصمّ الآذان ويبعث الرجفة. كان لا بدّ من انتشال الشاة سريعًا، حتى لا نضطر للمبيت في هذا المكان الموحش، وهو ما لا طاقة لنا به ولا قدرة، خصوصًا مع وجود الفتاة معنا. وحتى إن بحث عنّا أهلنا، فالأمل ضعيف في أن يتمكّنوا من اجتياز «السائلة»[2] الكبيرة التي تفصل القرية عن الجبل، ليصلوا إلينا. لم يكن بإمكاننا إنقاذ الشاة، إلّا بالتدلّي من الفتحة. عدوتُ بسرعة إلى حيث تنتظرنا الفتاة مع بقيّة الشياه، وأحضرت حبلاً نحمله دائمًا على سبيل الاحتراز. ربطنا أحد طرفي الحبل إلى جذع شجرة أثل قريبة. طلبتُ من الراعي الكبير أن يتدلّى بواسطة الحبل لإخراجها، لكنّه رفض بشدّة، مبرّرًا بعدم قدرتي على الإمساك به ورفعه. ارتجفتُ من الخوف، عندما تخيّلتُ ظلمة الكهف الموحشة. رجوته مرّة أخرى محاولاً إقناعه بأنّي سأبذل قصارى جهدي لرفعه وإخراجه، لكنّه أصرّ على رأيه. استسلمتُ للأمر، واجتاحتني

---

(١) ذو فتحة صغيرة في سقفه.

(٢) مجرى السيل.

موجة عارمة من الكراهية. كنت خائفًا ومغتاظًا لدرجة تمنّيت معها أن يصيبه مكروه. ربطتُ الحبل حول خصري، بينما ذهب هو إلى حافّة الفوهة يعاين عمق الكهف. جثا على ركبتيه واستند إلى يديه، وأطلّ برأسه من الحافّة. وقف على قدميه، وحينها انقضتْ عليه صاعقة من السماء. صرخ صرخة مدوّية، قبل أن يهوي من فوهة الكهف فوق الشاة، جثّة هامدة.

لحظتها، أحسستُ كأنّ شيئًا ما غامضًا انفصل عنّي، وانسلَّ باتّجاه الفوهة، داخلاً الكهف. هرعتُ خلفه مسلوب الإرادة. جثوتُ على أطرافي. أطللتُ برأسي من الفوهة. لم أصدّق ما رأته عيناي. كانت النار تلتهم الجثّتين، قبل أن يحجب الدخان المتصاعد مجال الرؤية. تجمّدتُ بضع لحظات. هممتُ بالتراجع، لكنّي شعرتُ بذلك الشيء الخفي يشدّني إلى الأسفل. أطلقتُ صرخة فزع مدوّية. سقطتُ جسدًا على إثرها فوق الجثّتين المحترقتين، اللتين خفّفتا وقع سقوطي. انتفضتُ واقفًا لا أشعر بشيء. نفضتُ ما علق بي من لحم متفسّخ. تلفتُّ حولي ممعنًا النظر في أرجاء الكهف المظلم. في الأعماق المعتمة رأيتُ أطيافًا بيضاء تتراقص في الهواء، كأنّها ظلال بشر. أغمضتُ عينيَّ ثم فتحتهما. كانت الأطياف على حالها. انتابني الرعب. اقتربتْ منّي. هوى قلبي رعبًا. كان ذلك فوق الاحتمال؛ أطلقتُ صرخة أخرى تردّدتْ أصداؤها في الأرجاء، وغشيتني الظلمة. بعد أكثر من ساعة، كما خُيّل لي، فتحتُ عينيَّ. كنتُ مستلقيًا على ظهري. كان ثمّة وجه ضبابي يطلّ من فوهة الكهف. كأنّه وجه رفيقتي. تأمّلتُ جيّدًا. نعم، إنّها هي.

بقي ذلك المشهد يلازم أحلامي مدّة طويلة، لا يفارقها، حتى وقوع حدث مؤلم آخر.

حادثة الكهف تلك تركتْ أثرها فيَّ، وانعكس ذلك في تغيّرات

سلوكيّة ونفسيّة. أصبحتُ ميّالاً إلى العزلة والابتعاد عن الآخرين، ما أفضى بي إلى ما يشبه الاكتئاب. كما اعترتني رغبة جارفة في تعذيب وإيذاء الآخرين، خصوصًا الأطفال والحيوانات الأليفة. استمتعتُ أوّلاً بتعذيب الشياه، حتى اضطرتْ أسرتي لبيع ما تبقّى منها. ثم تحوّلتُ إلى تعذيب القطط والتلذّذ بمشاهدتها تلفظ أنفاسها ببطء، أو تزهق أرواحها السبع ـ كما يقولون ـ روحًا روحًا. وبرغم أنّي لم أكن قد بلغت الحلم بعد، فقد انتابتني رغبة جنسيّة عارمة، جعلتني مصدر قلق وفزع لصبايا القرية، ومهوى طمع بعض متّقدات الشهوة منهنّ. كانت تجتاحني من آن لآخر رغبات دنيئة ـ لا أدري بتوصيف من! حاولتُ كبتها أحيانًا، وأحيانًا أخرى إفراغها والتنفيس عنها بوسيلة أو بأخرى.

كم لذّ لي قضاء الليالي الطوال أتلصّص على المنازل لرؤية الفتيات الغافلات والتمتّع بمرأى أجسادهنّ العارية، أهيم من منزل إلى آخر متسلّقًا الجدران، علّي أحظى برؤية جسد عار! وكم كانت صدمتي حينما رأيت ذات مساء جسد رجل تجرّد من كلّ شيء! أقول «من كلّ شيء» لأنّني أحسبه أدرك أنّي أتلصّص، بل إنّ متعته مع زوجته ـ التي لم يكن يُرى منها شيء ـ كانت تزداد استعارًا وهو يدرك أنّ هناك من يراقبه. أحيانًا كثيرة كنت أتوهّم رؤية نساء، بينما قد يكون أيّ شيء آخر. مجرّد خيالات أتسلّى بها وتلهيني وترضي نفسي المريضة.

لم أعد أثق بأحد، فنبذني الجميع. لجأتُ إلى عالم الأحلام؛ أحلام اليقظة؛ لأكسر حاجز العزلة التي ألفيتُ نفسي فيها.

أليس هنالك تناقض أو تناسب عكسي بين الأحلام والعمر؟! ألا يضائل تقدّم أعمارنا أحلامنا وآمالنا؟! تبدأ كبيرة ثم لا تلبث أن تتضاءل حتى تتلاشى. نستبدلها بأحلام أخرى أصغر، لا تلبث هي الأخرى أن تبدأ في التضاؤل والتلاشي. هذا لا يعني أنّها لا تتحقّق البتّة؛ ولكن ما

يتحقّق ليس إلّا القليل.

في سِنيّ المراهقة تملّكتني رغبة قويّة في أن أكون مهيبًا، قوي الشخصيّة، من أولئك الأشخاص الذين تكفي نظرة واحدة صارمة منهم لإخضاع الناس وجعلهم طوع البنان.

يكفي أن أنظر بصرامة نحو أيّ فتى حتى ترتعد فرائصه، ويصبح طوع بناني. هل هذا يعني ضعفًا في الشخصيّة؟! أم أنّه ناجم عن عقدة اضطهاد؟! لا أدري! وإن لم أشعر عند تحقّق بغيتي بالرضا الذي كنت أنشده.

والدي كان الوحيد الذي لم أكن أرغب في فرض هيبتي عليه؛ كنت أشعر بهيبته وقوّته، رغم هالة الطيبة التي تطبع شخصيّته وتصرخ بها ملامحه ومشاعره.

أدرك الآن أنّ الفكرة تتلخّص عمومًا في كلمة واحدة: «السيطرة». كلمة واسعة المعاني والدلالات. هي شرّ محض؛ لأنّها تؤدّي إلى تقليص حرّيّة وإرادة الآخرين والتحكّم بهم؛ ليس بدافع المنفعة والحبّ، حتى وإن كانت كذلك، وإنّما بقصد الاستعلاء والاستحواذ.

قد يتبدّى الشعور بالسيطرة في أمور صغيرة، وإلّا فما الذي يبرّر قيامي، بعد إتمام الصفّ الثاني الثانوي، بسرقة شهادات نجاح ثلاثة من زملائي، وإحراقها؛ لا لشيء إلّا لأنّهم حقّقوا نتائج أفضل منّي، في حين كنت أحسبهم أدنى في مستواهم الدراسي؟!

كنت أشعر باللذّة وأنا أساعدهم في البحث عنها، ثم في استخراج شهادات بديلة. أستمتع باستبعادهم إيّاي وإخراجي من دائرة الشبهات، رغم أنّ كلّ الدلائل تشير نحوي.

أحسست بنشوة طاغية، مردّها شعوري المتعاظم بالسيطرة. وكم

دهشتُ أن كان الإحساس الجميل نفسه الذي انتابني حينما لمستُ ـ عن غير قصد ـ ذلك الثدي البضّ اللدن لإحدى الشابّات، قبل أيّام قليلة من تلك الفعلة!

عذرًا! ها أنا أسترسل في الحديث دون أن أعرّف بنفسي. اسمي...! لكن ما الداعي لذكره أو ذكر أيّة أسماء أخرى؟! ذلك لا يقدّم ولا يؤخّر؛ فهي مجرّد ألفاظ وضعت لإحكام السيطرة. سأستعيض عنها برموز حرفيّة كما تفعل النساء في بلدنا حين يتّصلن أو يراسلن بعض البرامج الدينيّة الإذاعيّة أو التليفزيونيّة وبرامج تفسير الأحلام، أو كما تفعل بعض الفتيات المراهقات والنساء المحرومات في معرض مراسلاتهنّ الغزليّة وتواصلهنّ مع المنجذبين إليهنّ؛ إذ يرمزن لأنفسهنّ بأحرف فقط، وغالبًا ما تكون مستعارة. ورغم إدراكي أنّ الخجل والضغوط الاجتماعيّة تدفعهنّ إلى ذلك، فقد كنتُ أستنكر ذاك منهنّ؛ لكنّي أرى الآن صوابهنّ، بل وبُعد نظرهنّ؛ فتلك الرموز تؤدّي الغرض دون أن تخضعهنّ لسيطرة الأسماء.

إنّ محاولة تمييز الذوات بالأسماء أدّت إلى ربط الذوات بأشياء ليست من حقيقتها. وهو ما أردت تجنّبه في مدوّني هذا، دون أن أكون على يقين من نجاعة هذا الأسلوب. على هذا الأساس سأرمز لنفسي بالرمز (ل). ليس ضروريًا أن يعني شيئًا محدّدًا. هو مجرّد رمز انتقيته من حروف هجائيّة خطرت في بالي اللحظة، وهو ما سأفعله مع الآخرين (مع استثناءات قليلة).

قد يتبادر إلى بعض الأذهان أنّني شخص مهووس وشرّير، أو ـ أقلّه ـ غير سوي، مصاب بجنون الارتياب وانفصام الشخصيّة، وأنّ كلامي هذا مجرّد هلوسة. عليَّ الاعتراف بصحّة ذلك إلى حدٍّ ما؛ مع الأخذ في الحسبان التداخلات الكثيرة والفواصل الهشّة بين العقل

والجنون، الخير والشرّ، الحقّ والباطل، الواقع والوهم، الصواب والخطأ... وغيرها من الأضداد التي تحكم حياتنا، والتي يمكن وصفها بالنسبيّة، لاختلاف توصيفها، حسب ظروف فعلها؛ بمعنى أنّ جميع البشر، ولكونهم بشرًا، لا بدّ لهم من اجتراحها؛ مثل إفشاء الأسرار؛ فمن منّا من لم يصدّق؟! ورغم الاستثناءات التي يجوز فيها مجانبة الصدق في التعامل مع العدوّ، أو لإصلاح ذات البين؛ فمن منّا لم يكذب قطّ؟! هذا ينطبق على كلّ الأضداد: الشجاعة والخوف، الكرم والبخل، الإيثار والأنانيّة...

لذلك كلّه، قد تُرتكب أعتى الموبقات دون أن تهتزّ لك شعرة. وأحيانًا زلّة صغيرة تكون مدعاة لكثير من الندم. كما قد تقوم بأفضل الأفعال دون أن تشعر بأيّ فضل. وقد تقوم بأمر تافه لا يستحقّ الذكر تكون معه وكأنّك اجترحت معجزة. لهذا يعنُّ لي دائمًا فضح من يدَّعون الصلاح، ومن يبالغون بالشعور بالذنب. عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويدركوا أنّهم مجرّد بشر، يصيبون ويخطئون.

سيظنّ البعض أنّي شخص «ساديّ»، يشعر بالدونيّة، فيستمتع بتعذيب نفسه وتعذيب الآخرين. هذا صحيح أيضًا؛ ولكن ألا يحدث هذا للجميع في أوقات معيّنة؟! إنّني فقط أمتلك الشجاعة للاعتراف بأخطائي ونواقصي.

يتوجّب، حتى لا يوغل أحد في تفكير سوداوي بشأني، أن أوضح أنّ كلامي هذا قد يبدو، لمن يعرفني جيّدًا، مجرّد ترّهات؛ لأنّني أبدو شخصًا هادئًا منطويًا، مهذّبًا، وفي أوقات كثيرة رزينًا وحكيمًا. قد يكون ذلك صحيحًا أيضًا؛ فأنا مجرّد إنسان: مجموعة متناقضات.

عمومًا فإنّني، كما أسلفت، منذ تلك الحادثة، أميل إلى الانطواء، أشعر بالتوجّس والارتياب ممّا يحيط بي، بل ومن نفسي. أشعر بالعداء

والنفور من كلّ ما هو غريب، خصوصًا البشر. وما زلت أشعر بالتوتّر كلّما مررت في شارع مكتظّ بالمارّة، أو وُجدتُ في مكان مزدحم. لعلّ هذه الصفة ضروريّة لأتمكّن من خوض غمار هذا العالم الغريب، أو ربّما كنتُ أنا الغريب الذي يخوض العالم غماره.

الـرؤيــة الثـانيـة

التــوق: اشتعال الشوق وانفعال الرغبة

أهمّ حادثة أقحمتني في ذلك العالم، رغم أنفي، كانت وفاة والدي. كنتُ قد تجاوزتُ سنّ العشرين. لم أكن قد تزوّجتُ. ولا بدّ من الحديث عن زواجي عقب الحديث عن وفاة والدي لما لهما من ارتباط وثيق أحدهما بالآخر وبما حدث لي بعد ذلك.

كانت ليلة حالكة بشكل غريب رغم تلألؤ أضواء المدينة. ظلامها الدامس ما زال ماثلاً في ذاكرتي حتى الآن. قضيت شقًّا منها خروجًا عن انطوائي المعتاد، مع صديقين في منزل أحدهما. ضحكنا (ونادرًا ما كان يحدث لي) من أعماق قلوبنا، ولأتفه الأسباب. نستغرق في الضحك وندعو الله أن يجعله ضحك خير، كي لا يكون ضحكًا مشؤومًا ينبئ بوقوع مصيبة، حسب المعتقد الشعبي السائد.

سمعتُ مرّة أنّ أصدق الرؤى ما يأتي في البرزخ الفاصل بين اليقظة والنوم. حينها لا تكون الأحلام إلّا نبوءات.

في تلك الليلة وبعد أن خلدنا للنوم، رأيتني مطأطئ الرأس خلف أبي، نجتاز منطقة منبسطة جرداء. كنّا سادرين باتّجاه فتحة هلاميّة شفّافة

في الأفق. توقّف بغتة وحوّل نظره نحوي. وبصرامة منعني من اللحاق به، طالبًا منّي العودة، كما كان يفعل في صغري. رفضتُ. أمسك بكتفيّ وهزّني بشدّة وعنف، ودفعني إلى الخلف، فسقطتُ. التقفتني يدان ووجه أعرفه. كان قريبنا الذي طالما أرعبني مرآه. حاولت النهوض وأنا أصرخ بأبي كيف يتركني لهذا الشخص! التفتَ وفي سيمائه شيء من الرضا مواصلاً سدوره. كان ثمّة أطياف بيضاء كتلك التي رأيتها في «الكهف المنجوث»، ترفعه، تطير به في فتحة هلاميّة موغلة في اللانهاية.

أمعنتُ النظر. كان ثمّة وجه يطلّ عليَّ من حافّة الفتحة. لعلّه وجه الراعية حسبما ظننت بدءًا. لا، لا! إنّه وجه أبي! نعم، وجه أبي!

استيقظتُ مذعورًا على صوت التليفون. اجتاحتني موجة قلق عارمة. أيقظتُ صديقي ليردّ. قام بتثاقل قبل أن يأتيني قائلاً: «اتّصال لك من البيت». كانت أمّي تخبرني باكية أنّ مرضًا مفاجئًا ألمَّ بوالدي. اندفعتُ خارجًا وبملابس النوم. لحق بي صديقاي. كان الشارع مقفرًا، كالمعتاد في مثل هذه الساعة من الليل. أخذتُ أركض باتّجاه منزلنا دون وعي. كان أحدهما يركض خلفي بينما لحق بنا الآخر بعد أن عثر على سيّارة أجرة.

صمتٌ ثقيل خيَّم على منزلنا. ذلك الصمت الذي ينذر بالعاصفة. كان طبيب من الجيران يساعده على المشي إلى سيّارته. أزحت الطبيب، وأمسكته. أجلسته على المقعد الخلفي للسيّارة، وجلست جواره. طلب منّي أن أضع يدي على صدره من الجهة اليسرى، ثم بدأ يحدّثني بصوت أوهنه الألم:

«حانت ساعتي. إنّها الظلال. لقد حاصرتني طويلاً، وها هي الآن تراقبك. أبعدْها عنك وأبعدْ نفسك عنها حتى لا تكرّر مأساتي. تجنّبْها ما استطعت. وإن حاصرتك فعليك بحلمك! لا تحمل توقك وحدك

فتنوء به قدماك وأنت تغذّ في درب مهلك، (وبصوت خفيض) وإن كان دربًا يبعثنا أحياء. الموت مبعثه الحياة، والحياة مبعثها الموت. إن كان هذا قدرك فهي رحلة شاقّة مهلكة؛ لكن لا تتردّد في خوض غمارها، بعد أن تكون قد هيّأت لها الأسباب. لقد قضيتُ عمري في الهروب محاولاً تجنّبها، دون جدوى. واجهْ آلامك. لا تخشها وستجدها عونًا لك. لا تتسرّع! انتظر حتى تكتمل دائرة التوق، لتشرع. اذهبْ إليه. أنت تعرفه بالطبع. سيريك البرهان، أوّل أصداء الدرب».

سكت فجأة. كان كلامًا مبهمًا لم أسمع مثله من قبل، فلم أعره انتباهًا، ولم أكن أعرف في تلك اللحظة أنّه سيتغلغل في أعمق أعماقي.

شعرت بطاقة خفيّة لا مرئيّة تتصاعد من صدره وتخرج من فمه مصحوبة بشهقة عالية. شيء خفي انفصل عن جسده، تسرَّب إلى جسدي. كأنَّه ظلّه قد تلبّسني.

منذ ذلك اليوم أشعر بأطياف ترصّدني وتراقبني على الدوام.

كان أبي من الذين لا يمكن سبر أغوارهم بسهولة، رغم شدّة وضوحهم؛ ولعلّ ذلك ما يجعلهم غامضين بالنسبة للبعض.

كان يغيب عن البيت كثيرًا. وعندما يعود كان يبدو حذرًا على الدوام، مشغولاً، غارقًا في نفسه، أو في ما لا ندري.

خلّف ثروة لا بأس بها كان قد جمعها من رحلاته المجهولة، ساعدتنا على العيش وكفتنا ذلّ الحاجة، كما أنّها ساعدتني في خوض غمار رحلتي.

إنّ أصعب معضلة تواجه المرء هي في محاولته اكتشاف ذاته. وحين أكون قد اكتشفت من أنا، تكون الحقيقة كلّها قد أصبحت في متناول يدي، دفعة واحدة، أو أنّني أكون قد أصبحت أنا الحقيقة.

«نحن من سلالة مرموقة نهشتها الظلال». هذا ما قاله لي ذات يوم.

اتّهمه كثيرون ـ كما يحدث لي اليوم ـ بالجنون. ولولا ثراؤه المفاجئ، بعد رحلة تشرّد خفيّة دامت عامين، لوُضع في أحد المصحّات إلى أن تذبل عظامه. لكن للمال سطوته الطاغية التي جعلته في أعينهم أعقل العقلاء ويستحقّ أن يدبّج له أبلغ المدائح، وهو ما حماني منهم أنا أيضًا.

حياته لفَّها الغموض، ولا يعرف تفاصيلها أحد غير أمّي. كنت الوحيد الذي تبوح له ببعض مكنوناتها؛ ليس لأنّي أكبر إخواني فحسب، بل لأنّها كانت ترى أنّي ورثت عن أبيها ذكاءه وشخصيّته، ولأنّ أبي ـ كما قالت ـ كان يراني أشبه أبنائه وجهًا بأبيه. وكنت أحيانًا أتساءل: هل كان جدّاي بكلّ هذه الدمامة والحماقة، أم أنّها رغبة الأبوين اللذين لا يتمنّيان أن يفوقهما أحد إلّا أبناؤهما، وأكبرهم على وجه الخصوص، فكيف الحال وبكرهما يحمل كلّ ما فيهما من غموض؟!

كانت الوحيدة التي تكشّفتْ لها جوانب من غموض حياته، كما أدركتْ كثيرًا من جوانب الغموض لديّ، وإن بدت لي في كثير من الأحيان غامضة هي أيضًا، وبالدرجة نفسها.

بعد عام، كان ذلك الطبيب الذي شهد وفاة والدي قد اختفى فجأة دون أن نعثر له على أثر. بحثنا وبحثنا، دونما فائدة. كان قد رحل عنّا مرّة وإلى الأبد.

بعد عامين أصرَّت أمّي على أن أتزوّج. حاولتُ التملّص، لكنّي كنت أضعف من أن أصمد أمام سطوتها، أو بالأصحّ حبّها. كانت تريد تنفيذ وصيّة أبي بتزويجي (ش) ابنة أحد أصدقائه، كانا قد تعاهدا على تزويجنا، عندما يحين أوان ذلك. لقد تقدّم لها الكثير من الخُطّاب، لكن

أهلها رفضوهم، التزامًا منهم بالاتّفاق. هكذا زجرتني أمّي بحزم.

* * *

من يراني الآن يحسبني كهلاً، ولم أبلغ الأربعين. لا يستغربنَّ أحد ذلك؛ فهول ما مرّ بي جعلني أبدو هكذا. غزت التجاعيد وجهي، والشيب ما تبقّى من شعر في رأسي، وسكنني ذلك الخمول الذي يجعل من يتقدّم بهم العمر يستسيغون الموت. إنّني أذبل قبل الأوان، أو هذا هو ما أسلو به ويسلو بي.

الرؤية الثالثة

الاختيار

تزوّجتُ بامرأة شبه كاملة: جميلة، مخلصة، صبورة، مثابرة، متفانية، ومتعقّلة... لا أدري هل كان زواجنا لحسن حظّي أم لسوء حظّها! ترى هل كانت تدرك ذلك؟ في الحقيقة، لا؛ فقد عانت معي الأمرَّين؛ فقد كنت مسكونًا بالرفض، أحاول جاهدًا تجنّب الخضوع؛ ربّما لأنّ الظلال بدأت تضيّق عليَّ منذ تلك العشيّة، عشيّة وفاة والدي!

كنت تائهًا منشغلاً عنها، غارقًا حتى أذنيَّ في ملذّات محرّمة دفعتني إليها الظلال، أو بالأحرى أعوانها. لماذا لا أعترف وأقول: دفعتني إليها أهوائي المحضة، ورغبتي دائمًا في الحصول على ما أريد وإن لم يكن لي؟ تركتها وهي أنا، لأبحث عنها في غيرها.

كانت تصرّفاتي كلّها توحي بأنّني لا أودّها. ليس ذلك صحيحًا البتّة؛ فقد أحببتها حدّ الوله؛ لكنّني من أولئك الذين لا يجيدون التعبير عن مشاعرهم، وإن أجادوا ذلك مع من هم عابرون.

نعم، أحببتها. أكثير على بائس شقي، مثلي، أن يحظى بنعمة الحبّ، أن يتمرّغ فيه، أن يهيم، يشغف، يستغرق، يغيب، يتوه،

يتأوّه. . . ؟! أحببتها، نعم، كما لم يحبّ إنسان إنسانًا، أو أنّ هذا ما اعتقدته. تملّكني حبّها، جعلني أخشى عليها حتى من حظّي، ومن نفسي. حبّ أخرجني من خوفي الذي غرقتُ فيه، من سباتي الطويل، من نير أوهامي. كنت كلّما ضيَّقتْ الظلال عليَّ الخناق أكثر، زادت معاملتي لها سوءًا، حتى طفح بها الكيل، بعد أكثر من سبع سنوات على زواجنا. كانت خشيتي عليها قد بلغت مداها، فتعمّدتُ المبالغة في الإساءة إليها، تصنّعتُ بغضها، فتركتني وحيدًا وغادرت إلى منزل أبيها، آخذة طفلينا: الولد (ب)، والبنت (ر) التي تصغر أخاها بأقلّ من عام. كانت أمّي قد قرّرت هي أيضًا العودة للعيش في القرية، هناك حيث قضت مع والدي أجمل أيّامهما. لكنّها لم تتأخّر عنه طويلاً، فسرعان ما باغتها الأجل فجأة بالطريقة نفسها تقريبًا التي باغت بها والدي، بل وفي التوقيت ذاته.

* * *

ولجتُ في بحار من الطلاسم قادتني إلى دهاليز مظلمة، لم يكن من السهل عليَّ الخروج منها سليمًا معافى. إنّها عواقب اقتحامي الحدود المحرّمة؛ حدود عوالم الظلال المتمرّدة.

مرّ عامان وأنا أتلظّى بنار الفراق، دون أن أقوى أو أجرؤ على مصالحة زوجتي وإعادتها إلى عشّ الزوجيّة؛ خشيت عليها وعلى طفلينا من نقمة الظلال. كانت سلواي الوحيدة هي زياراتي المتكرّرة لأمّي، واستغراقي أسابيع كاملة في حضرتها. ولولا أنّها كانت تلومني دائمًا على عدم إرجاعي لزوجتي لكنت انتقلت للعيش معها على الدوام. كنت أتحجّج بأنّ هذه هي رغبتها: أن تبقى جوار أمّها المريضة. ولأنّ أمّي كانت تعرف تمامًا ما يكتنفني من غموض وتقلّبات، فقد كانت تُدرك أنّني أبرّر لنفسي، قبل أن أبرّر لها. كانت تدرك أنّني أهرب، وتدرك ما هو

ذاك الذي يجعلني ألوذ هاربًا.

وكما حدث لي مع أبي، حدث مع أمّي، فقد سقطت هي أيضًا بين يدَيّ. كنّا نتضاحك ونتجاذب أطراف حديث ما، كعادتنا كلّ مساء، حين أمسكتْ برأسها بتشنّج، وابيضَّتْ عيناها، ولم تحر من بعدها نفسًا. شهقتُ غير قادر على استيعاب الأمر. هل أقول شهقتُ بالبكاء؟ بالضحك؟ بالصمت؟ بالذهول؟... أظنّني لحظتها شهقتُ بالظلال!

في اليوم التالي جاءت زوجتي مع أهلها وطفلينا لإقامة مراسم الحداد. لم تتمكّن من الانفراد بي إلّا لمامًا. لا أدري كيف حرصتُ على تجنّبها، رغم كلّ ما كان بي من شوق. ربّما كانت خشيتي عليها، وهي من القوّة بحيث كنتُ أرتعد. لم أكن مستعدًّا لخسارتها أيضًا؛ ولكأنَّ موت والدتي قد أكّد لي حقيقة مخاوفي: أنّ كلّ من أحبّ وأجرؤ على مقاربته عرضة لانتقام الظلال. ولكن لمَ؟! وما الذي يستوجب كلّ هذا الانتقام؟! وها هي فور أن انتهى العزاء قد غادرت إلى منزل أبيها كأن لم تأتِ! كنت حريصًا على عدم إطلاعها على الأمر، وإلّا باتت هدفًا للظلال، وكلّ من يعلم بأمر الظلال، وعالمها الغامض.

عمومًا، فإنّ من أوقعه حظّه العاثر في هذه الهوّة السحيقة ليس أمامه إلّا أحد خيارين؛ إمّا أن يصبح أحد أعوانها، مع ما يتطلّبه هذا من تفانٍ في خدمتها وتهيئة الأرضيّة المناسبة لتبلغ مرامها؛ وإمّا مواجهتها، مع ما يتطلّبه هذا من استعدادات لا يقدر عليها سوى قلّة من البشر يُعرفون بـ «المريدين» أو «المختارين». أمّا من يفشل فعليه قبول العواقب!

لم أكن، حتى ذلك الوقت، أعلم أسباب اهتمام الظلال الشديد بي؛ لكنّني كنت أرى آثاره على مجريات حياتي. كان عليَّ، منذ عرفتُ بأمرها عشيّة وفاة والدي، أن أختار. وحين ماطلتُ وسوَّفتُ في اختياري

قضت الظلال على حياة أمّي؛ كإنذار!

إنذار! هل لمن يريد إغراق شخص بكلّ تلك اللذّات والمحرّمات أن يوقظه منها!؟ ليس إنذارًا إذًا! إنّه شيء لا يمكنني البوح به الآن.

ها أنذا أراجع حساباتي لأختار ما يناسبني. لم يكن ثمّة شيء يجبرني على مغادرة القرية؛ فأنا أعتمد في معيشتي على ما ورثته، ولم أكلّف نفسي عناء البحث عن عمل. لم يكن ذاك نقطة ضعف، بل إنّي أعدّه من نقاط القوّة؛ إذ سيساعدني في عدم الخضوع لسيطرة أحد. إنّما لم يكن لي من شيء أفعله هنا، فقرّرت مغادرتها ولو إلى الأبد. ولكم هي «إلى الأبد» هذه باهتة حين لا يكون بيدنا التحكّم بمصائرنا!

* * *

أحيانًا أعتقد أنّ ذلك العالم، عالم الظلال، مجرّد وهم من الأوهام التي يصنعها خيالي المريض.

ذات يوم، وفي ساعة متأخّرة من الليل، رنّ تليفون المنزل. تلكّأتُ في الردّ، معتقدًا أنّها من اتّصالات الليل المعتادة؛ فمن ذا الذي يتصل في مثل هذا الوقت، إن لم تكن مفارِقة مستوحدة جافاها النوم؟! تكرّر الاتّصال أكثر من مرّة. نفضتُ النوم عن عينيَّ وتأمّلتُ الرقم. كان رقم تليفون منزل عمّي. لم أصدّق عينيَّ! أتتّصل بي بعد كلّ ما كان!؟ أجبتُ بلهفة. كان صوتها خافتًا يعتريه الوهن الشديد. أخبرتْني أنّها ترغب في رؤيتي حالاً. أنهتْ الاتّصال دون أن تنتظر الردّ. أحسستُ من لهجتها أنّ الأمر في غاية الأهمّيّة؛ صوتها لا ينبئ بخير! تبدو متعبة للغاية! ارتديتُ ملابسي سريعًا، وانطلقتُ بسيّارتي بأقصى سرعة. كنتُ أشعر أنّها الظلال ولا شكّ، وأنّني لا بدّ مقدم على خوض أولى معاركي معها. واهم أنا إذ كنت أعتقد أنّني بإبعادها عنّي قادر على تضليل الظلال عنها. يا لها من سذاجة! فمن ذا يستطيع تضليلها دون أن يبلغ

المرحلة التي يمكنه فيها ذلك!؟

(المعرفة الإنسانيّة محدودة مهما اتّسعت. وتجاوز هذه القدرة يتطلّب الوصول للسرّ الأعظم: سرّ «الجفر» العظيم).

أدخلني عمّي دون حتى أن نتبادل أيّ كلام. في غرفتها اغرورقت عيناي حين رأيتُ شبح جسدها الهزيل. كان منظرها يوحي بالموت، أو بالظلال. جثوتُ على ركبتيَّ فوق السرير إلى جوارها. أمسكت بكفّيها مفسحًا المجال لدموعي. أدارت وجهها نحوي ورَنَتْ إليَّ بعينين مدنفتين، لتفترَّ شفتاها الشاحبتان عن ابتسامة رقيقة جعلتني أدفن رأسي في صدرها وأجهش بالشوق. أحاطت رأسي بذراعيها، وراحت بأناملها المرتجفة تمسّد شعري، مجهشة هي الأخرى. كان صدرها يعلو ويهبط بسرعة. أبعدتُ رأسي بلطف، ليتهادى صوتها في مسمعي بلهجة المودِّ اللائم: «أخيرًا تذكّرتنا!». سرتْ قشعريرة شديدة في جسدي. كان الجوّ ثقيلاً، رغم حرارة اللقاء.

أحسست بظلّي يتحفّز. لا بدّ أنّها هنا! جلتُ بنظري في أرجاء الغرفة. رأيتها تحوم في السقف. بدأ الجسد المُسَجّى على السرير يرتعش بقوّة، وقسمات وجهه تتقلّص في الغياب. تركّزت حواسّي كلّها. تذكّرت وفاة والديَّ. أظنّها الآلام. تبدّى وجهاهما أمامي. سمعت صوت أبي يدوّي في أعماقي:

ـ لا تستسلم! لا تخضع لظلال زائفة. ابعث ظلّك/ ظلّي بالحبّ، لتراها. احذر! لن تسكت عنك بعد الآن. فابدأ خطوتك الأولى.

تركّزت حواسّي كلّها على مريضتي المسكينة. كانت قد غابت عن الوعي. أحسست بحبٍّ وحنان لا متناهيين يجرفانني إليها. انكفأتُ مجدّدًا أُقبّل وجهها. لم أعد قادرًا على الاحتمال. لم تعد الهوادة

تجدي. لا بدّ من المواجهة، وليحدث ما يحدث!

استلقيت إلى جوارها، ووجّهتُ بصري نحو تلك الظلال البيضاء المتأهّبة. أحسست بظلّي كأنّه يبصقني خارجه، ويندفع نحوها. إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها ظلًّا حيًّا محضًا، وقتًا كافيًا لأتأمّله بإمعان. كان رماديًّا باهتًا، يشبه ظلّ أبي إلى حدٍّ كبير. وجفّتْ الظلال المتراقصة في فضاء الغرفة لمَرآه. تكاثف بعضها على بعض، تتّقيه.

نظرتُ إلى وجهها. كانت الحياة تعود إليه شيئًا فشيئًا. تقاطر في ذهني الكثير من الصور التي جمعتنا: جمالها الأخّاذ بثوب الزفاف، أوّل قُبلة طبعتها على خدّها، ملامح الألم على وجهها حين فضضت بكارتها، براءتها المدهشة، دهشتها البريئة، لهفتها الصادقة لمرأى أيّ جديد، آلام ولادتها وفرحتها برؤية وليدها، خصامها وعتابها، فرحها وعبوسها، طيبة قلبها ونقائها، ضحكتها وبكائها... آه يا رائعتي! كم أتمنّى الامتزاج بك! ولكن ما الحيلة ونحن مجرّد تروسين في آلة الحياة العملاقة وعجلتها التي لا تتوقّف!؟ إنّها الرغبة في البقاء والأمل بالمستقبل ما يجعلنا قادرين على الاستمرار. يجعلنا دائمًا نتّخذ القرارات المصيريّة في الأوقات الحاسمة وخلال ثوان.

اتّخذت قراري: لكوني عاشقًا فسأواجه الظلال وأكفّ عن مهادنتها! سأتحدّى قدراتها التي تفوق ـ لا شكّ ـ قدرات إنسان بائس ضعيف مثلي! ما الحيلة وقد فرضتْ علينا الأقدار أن نكون من هذه البلاد الغنيّة بالتنوّع، المحصورة بين بحرين وصحراء، والتي اتّخذت منها الظلال منطلقًا لتحقيق بغيتها!؟

ضجّ جسدها بالحياة. لا أصدّق أنّني كنت سأتركها للظلال! لم يكن حلمًا ما رأيت: هالة نور تكسو محيّاها. اقتحم والداها وإخوانها الباكون الغرفة. كانت الدهشة تعلو الوجوه. لم يصدّقوا ما رأته أعينهم.

كلّ شيء جزء من خطّة عظمى لا يدركها الكثيرون. يصدق هذا حتى على الحياة أيضًا، بل وعلى الخطّة نفسها.

عفوًا! إنّني أسرد ترّهات، فعلى من لا يرغبون بالاطّلاع عليها الانسحاب من الآن. هذا هو الوقت الأنسب لذلك.

أخبرني أهلها أنّها كانت قد توفّيت منذ حوالى الساعتين، وأنّهم استغربوا مجيئي المفاجئ رغم عدم إعلامهم أحدًا بعد. كانوا موقنين من موتها، وها هم يرونها تضجّ بالحياة. لم أكن قادرًا على الكلام. اكتفيت بالصمت؛ فمن ذا كان سيصدّق؟!

بهذا أكون قد قطعت آخر خيط لي مع الظلال. لا مهادنة بعد الآن. لا مجال أمامي لأيّ تراجع إلّا بثمن باهظ، ليس في مقدوري احتماله، أو يكون تراجعي مردّه إليها. إذن، مجبر لا بطل. نعم، مجبر لا بطل.

عادت (ش) متوهّجة الوجه، كأن لم يصبها شيء. أفاق طفلانا على أصوات الزغاريد وجلبة الفرح التي أحدثها أفراد العائلة، بعد أن أفاقوا من صدمتهم. غرق الجميع في نوبة فرح ألهتني عن مراقبة الظلال الواجفة، التي لا يمكنها الرحيل والعودة إلى أسيادها خالية الوفاض. حين أفقنا من تلك النوبة كان حَمُوي مستلقيًا على الأرض يرفس برجليه رفسات سريعة. هرعتُ إليه على الفور وأنا أقرأ «المعوّذتين»، محاولاً انتشاله من براثنها. كان قد استكان تمامًا. لعلّي لم أقرأهما بالشكل الصحيح، أو أنّني تأخّرت. جلتُ بنظري في أرجاء الغرفة، بحثًا عن تلك الظلال. لم أرها. كانت قد تلاشت. تلفتُّ أبحث عن ظلّي. لم أره أيضًا! علّه عاد إلى جسدي عند استغراقي في نوبة الفرح تلك!

حدّد الأطبّاء سبب وفاته بذبحة قلبيّة. أنّى لهم أن يدركوا السبب

الحقيقي؟! هو أمر ليس بمقدورهم، وهو أبعد ما يكون عن تفكيرهم. إنّهم غارقون في البحث عن سبب ماديّ لكلّ وفاة؛ لكن أليسوا عاجزين عن إدراك طبيعة الموت نفسها، وحتى طبيعة الحياة!؟

الآن فقط أدرك أنّ معظم حالات الوفاة المفاجئة مردّها الظلال، بشكل أو بآخر. سيقول البعض: وما تبريرك لذلك؟ سأقول لهؤلاء: هذه فرصة أخرى للانسحاب؛ لأنّني ـ كما أسلفت ـ لا أقول سوى ترّهات، وسأردّ أيضًا بأنّ هذا ما شاهدته بأمّ عينيّ. أليس معظم من يخطفهم هذا النوع من الموت هم من الأبرار؟! إنّ حربًا ضارية تدور، على الدوام، في الخفاء، بين ظلال ومقاومين كُلّفوا بمقاومة رغبتها في الاستيلاء على الحياة.

التَمَّ شمل عائلتي مجدّدًا بعد إتمام مراسم عزاء حَمِيَّ؛ ولكن موقّتًا؛ إذ سريعًا ما بدأت كلمات أبي وهو يلفظ أنفاسه تصطخب بوطأة كوسواس قهري، أجبرتني على الابتعاد. وها هي ـ إذن ـ بداية رحلتي.

الآن فقط أشعر أنّ فارقًا بسيطًا يفصل بين الحلم والواقع. فكلّ ما عشته تلك الليلة من تفاصيل كان من المطابقة بحيث ذهلتُ تمامًا وأنا أرى حَماي يفارق الحياة. كان يبدو عليه العتب الشديد من أنّني آثرت استئجار غرفة أشبه ما تكون بدهليز، مبتعدًا عنهم وأنا الذي لم يعد لهم سواي. أخبرني أنّ زوجتي اتّصلت بهم قبيل الفجر، وأنّه منذ ذلك الوقت يبحث عنّي برجاء منها، حتى أحضر مراسم الدفن، وأنّه بحث طويلاً، ولولا أحدهم (لا أدري من هو هذا الأحدهم) لما كان له أنّه يعرف أين أنا. نعم كان كلّ شيء يبدو متطابقًا، وإن كان الفارق الوحيد هو أنّني لم أكن تلك الليلة في البيت ولم تأتني أيّة مكالمة هاتفيّة، فضلاً عن أنّني لا أمتلك سيّارة أصلاً.

بعد لأيٍ أقنعتُ (ش) بضرورة ابتعادي عنهم لفترة غير محدّدة.

كانت تشعر بأنّ شيئًا غامضًا يتحكّم بي وينغّص حياتي؛ لذا تركتني أنصرف دون امتعاض. هذا ما كان منها أمامي على الأقلّ.

ولكن ألم يكلّفني أبي عناءً شاقًّا بأن تكون أولى الخطوات، أن أتبع حلمي بالذهاب إلى قريبه (أ. ح)، المشعوذ الثقيل الظلّ. أشعر بالاستياء من توجّهي إلى هناك؛ فأنا أكره هؤلاء الدجّالين؛ لأنّهم – حسب ظنّي – يدلّسون على الناس ويبيعونهم الوهم. لكن ما باليد حيلة، فأنا أصلاً لا أعرف طريقًا غيره. ولأنّ أبي هو من دلّني عليه فلا بدّ أنّ لديه ما أحتاجه.

زهوٌ هو ما أشعر به الآن. إنّه الشعور بالتحدّي المفضي للخلاص.

لا بدّ أن أضع حدًّا لسيطرة تلك الظلال، حرصًا على ألَّا أنتهي لقمة سائغة بين براثنها. عليَّ الحذر من غوايتها وكلّ أساليبها التضليليّة.

ب ـ الـفـكــرة

الحلم، الازدهاء، الكينونة، أو كلّ ذلك

الـفـكــرة الأولى

الانطباع الأوّلي تضليل الإرادة

زرته في منزله العتيق ذي الأدوار الثلاثة، والمنزوي في إحدى الضواحي العشوائيّة لمدينة ما. الطابقان الأوّل والثاني للعمل، والثالث للسكن. كان (أ. ح) شيخًا في منتصف الستّين، طويلاً نحيلاً، أسمر، بأنف حادّ، وعينين جاحظتين مكحّلتين على الدوام، يعلوهما حاجبان كثيفان وخطهما البياض؛ ما جعله يبدو مخيفًا. وجهه طويل، مدبّب الذقن، ناتئ العظام، عريض الجبين متغضّنه.

في البداية رفض حتى أن يكلّمني؛ كأنّه كان يشعر بمدى ازدرائي له. كان يبدو صارمًا في عدم قبول طلبي الانضمام إليه. وبالكاد قصصت عليه حكايتي، وأنّ والدي هو من حثّني على المجيء إليه. استغربت سرعة تبدّل موقفه. كان على ما يبدو بحاجة إلى إشارة أو أمارة معينة، وجدها في ثنايا الحكاية.

اشتهر (أ. ح) بأنّه «يفتح الكتاب» ويحضّر الأرواح والجنّ، ويضع الحجب والتمائم والرقى، ويقرأ الكفّ والفنجان والنجوم... كما ذاع صيته كساحر جهبذ ملمّ بكثير من فنون السحر وحيل المداواة بالأعشاب

والقرآن، ومهارة عالية في تجبير الكسور.

يتمتّع بذكاء حادّ، وذاكرة متّقدة، وخيال خصب، ولسان لبق، وشخصيّة جذّابة؛ ما مكّنه من إقناع الكثيرين بقدراته، فتهافتوا عليه ينشدون بركاته. كان قادرًا ـ بطريقة ما ـ على فهم زبائنه، يعطيهم ما يريدون، فيعطوه أكثر ممّا ينتظر. يعمل طوال النهار، وفي المساء يأوي إلى مهجعه في الدور الثالث، حيث تقطن زوجته الثانية، الشابّة الفتيّة، التي تصغره بحوالى الثلاثين عامًا.

كان قد عرفها أثناء اختلافها إليه للعلاج وإخراج «الجنّي الذي تلبّسها». متزوّجة كانت؛ غير أنّ زوجها لم يتحمّل «تمارضها» المستمرّ، كما كان يقول، فطلّقها. كانت تشعر بالوحدة والفراغ، وشيء آخر أكثر أهمّيّة: الشبق. وكردّ للجميل على إنقاذه إيّاها قرّرتْ إيقاعه في حبائلها. لم يتمكّن الشيخ ـ المحروم منذ فترة طويلة؛ عقب هجره زوجته الأولى أمّ أولاده، وتركه إيّاها في منزل القرية ـ من مقاومة سحرها وجمالها، فوقع على الفور.

كان شيخي، كما سأدعوه منذ الآن، قد رزق من زوجته الأولى ثلاثة أبناء: ولدين وبنتًا، لكلّ منهم قصّة غريبة؛ فالابن البكر، الذي كانت مواصفاته تنبئ بمستقبل باهر، جُنَّ فجأة بعد إنهاء دراسته الجامعيّة، بدون سببٍ واضح، وإن تداولت الألسن أخبارًا تفيد بأنّ السبب أنّ ابنة عمّه ومحبوبته تزوّجت، فجأة، من شخص آخر. لم تفلح محاولات أهله الكثيرة في معالجته. وحتى أبوه، الذي يُعتقد أنّه قادر على معالجة أعتى الحالات، لم يفلح أيضًا، فانتشرت على الفور إشاعة (قد يكون مصدرها مطبخ أبيه) أنّها لعنة أبديّة أصابته؛ لعنة أسياد تمرّدوا على الأب، المحروس، فأصيب بها الابن.

الابن الآخر وُلد معتوهًا، ليظلّ عبئًا على أمّه ثقيلاً.

أمّا شقيقتهما الصغرى فقد لقيت حتفها في الثانية عشرة من عمرها، عندما جرفها سيل تدفّق على الوادي القريب من القرية. دفعها شقيقها المعتوه. كانا يلعبان على حافّة حقل يطلّ على «السائلة». هي كانت رفيقتي في الرعي!

* * *

كنت أشعر أنّ (أ. ح) على يقين من أنّ ما أصاب أولاده إنّما هو لعنة أصابته بها الظلال، بسببي. كان، لكي يجنّبني الشعور بالحرج، يربت على كتفي بحنوٍّ ولطف، ويقول، ساهمًا غارقًا في الحزن: «لا عليك يا بني! لا عليك! إنّه القدر! نعم، إنّه القدر ليس إلّا!». كأنّه بذلك كان يقول: إنّها الظلال!

عملتُ لديه مساعدًا وتلميذًا. رأيت الكثير، عرفت الكثير، تعلّمت الكثير. أهمُّ ذاك الكثير أنّ الشكّ هو أساس كلّ إيمان، وأنّ الإيمان أساس كلّ يقين، وأنّ حياة القلق هي ما يخلق الارتياب ويجعل من الظنون والشكوك أهمّ ركائز الحياة، أو أنّها المعرفة. إنّها تلك الحياة التي تبدو لي الآن وكأنّها مجرّد ظلّ.

كان شديد التحفّظ في ما يتعلّق بزوجته، حتى إنّي لم أتمكّن من رؤيتها ـ رغم صلة القربى التي تجمعني به ـ إلّا بعد أكثر من ثلاثة أشهر. كان شديد الشكّ والارتياب في هذا الشأن، بل وفي كلّ شأن. يحرص على عدم خروجها من المنزل، وإذا حصل فإنّه في العادة يرسل وراءها من يراقبها.

كان يقابل الكثير من النساء كلّ يوم، بعضهنّ يسهل عليه استدراجهنّ وإغواؤهنّ، مُغْفِلاً كونهنّ مريضات أو متوهّمات، يؤمنَّ به، أيًّا كان ما يفعله. كان مستدرجًا هو أيضًا، كما هو شأن الكثير من الرجال. لذا لم يتزوّج تلك إلّا لأنّه اقتنع بعد محاولات كثيرة لم تفلح

بإغوائها. كانت قادرة دائمًا على الالتزام بالحدود التي وضعتها لعلاقتهما. كانت تدرك ما تفعل. جعلته يندفع متلهّفًا إلى طلب الزواج. حين تأخّر ردّها، ذهب إليها راجيًا أشدّ الرجاء، فكان ما كان.

كان أيضًا شديد الحرص على تجنُّب الظهور ولفت الأنظار. عرفتُ لاحقًا أنّه بذلك يتجنّب إثارة الظلال أو لفت انتباهها، لم يكن بأيّ حال من الأحوال يفكّر في مواجهتها! ومع كلّ ما حدث له كان لا بدّ أن يستسلم وينزوي؛ لذا ظلّ متحفّظًا، لا يفتح قلبه إلّا نزرًا، حتى حدثت تلك الحادثة البسيطة التي حوّلت الأمور وقلبت الأوضاع رأسًا على عقب.

تُرى أيّ قوّة تلك التي تتمتّع بها الظلال ليخشاها شخص مثله، لديه كلّ هذه القدرات والمهارات والمعارف؟! كان كلّما رآني يقول لي مازحًا، أو جادًّا، لا أدري: «أشمُّ رائحة الظلال تفوح منك». وحين كنت أبتعد عنه كنت أشمُّها أنا أيضًا.

كان مسكونًا بخوف غامض يثير الرجفة في جسدي. لكن أليس هو الخوف ما يجعلنا نتحلّى بالشجاعة؟! أليس اعتياد الخوف شجاعة بحدّ ذاته؟ إنّها غربة الروح ما يفضي إلى الانتماء. هو التمرّغ في الوهم ما يجعل الحقائق ممكنة، ويصنع المعجزات. أليس الوهم هو الرديف الممكن للمستحيل، والمستحيل هو التعبير الأرقى عن العجز، واجتراح المعجزات هو الداحض البيِّن للعجز؟! إذن؟ لا شيء مستحيل، بمعيار الزمان والمكان، إلّا ما أردناه.

لعلّه الهذيان يكتب.

الفكرة الثانية

«لا تستهن بكلّ ذي شيبة!»

عمل (أ. ح) شرخ شبابه عسكريًا في إحدى دوائر الأمن الريفيّة البعيدة. كان عمله مقتصرًا على إبلاغ وإحضار من يأمره مدير الدائرة من المواطنين.

كانت المنطقة جبليّة، وعرة الدروب والمسالك، تناثر فيها الكثير من أضرحة الأولياء ومقاماتهم. هناك مرَّ بتجربة صدمته، وجعلته ما هو عليه الآن. كان ذلك أثناء قيامه بإحدى المأموريّات، والتقائه رَجُلاً غَيَّرَ مجرى حياته، بل وحياتي أنا أيضًا.

أشيب، يفيض النور من وجهه المتغضّن، ويلهج فمه الأدرد بالحكمة، تضمّخه البساطة، ويجمّله التواضع. منظره لا يوحي بمكانة أو علوّ شأن. حافيًا يمشي، حاسرًا. أسماله دائمًا تلك البيضاء، شبه البالية، النظيفة على الدوام. يأكل من عمل يديه المتشقّقتين. هو التواضع يمشي على الأرض. عاش طويلاً، ليس زمنيًّا فقط، بل ومعرفيًّا. زهد عن الدنيا، فأفضت إليه بأسرارها.

إنّه (أ. ع)، شيخه ومعلّمي، من انتهلنا من فيض معارفه، وتمكّنت

بفضله من المضيّ في الدرب الذي اختطّته لي الأقدار.

ليس مهمًّا كوني في عداد البشر. المهمّ أن أكون قادرًا على إدراك مغزى كوني إنسانًا. بذلك فقط أكون إنسانًا حقيقيًّا.

كان (أ. ح) قد كُلّف بإحضار أحد كبار الفلّاحين في قرية (أ. ع)، تأخّر في دفع ما عليه للدولة. وصل قبيل الظهيرة. القرية ـ التي اعتلت أحد الجبال واحتجبت به على ما سواه ـ كأنّها خاوية على عروشها. كان منهكًا، يشعر بضيق يجثم على صدره من طول الطريق ووعورته.

جال في الأزقّة إلى أن رأى أحد الصبية، فسأله عن منزل المطلوب. قاده الصبي. وجد المنزل يضجّ بعويل نسوة. أحسّ بخيبة؛ لم يكن هذا ما يأمل. لا بدّ أنّ أحدًا قد مات، وهو ما أكّده الصبي وصبية آخرون، والذين قادوه إلى المسجد ليلحق بالمشيّعين. خجل من أن يسأل عن المتوفّى، فاتّجه إلى حيث قادوه. وهناك عرف أنّ المتوفّى هو نفسه الرجل المطلوب. صفعه الخبر؛ كان شيئًا مؤسفًا؛ فقد أصبحت أجرته في خبر كان! إنّما لن يعدم من يستضيفه، خصوصًا وأنّه كان ينوي المبيت مسبقًا، متحجّجًا لنفسه بألَّا حول له ولا قدرة على العودة قبل الصباح.

بالقرب من المقبرة اقشعرّ بدنه؛ لا يدري لماذا!

المقبرة تقع أسفل القرية، في الاتّجاه المقابل لمدخلها، على مقربة من منحدر شاهق لا يُسبر له غور. كانت شمس الظهيرة قد زادته رهقًا، فراح يجول بعينيه في أرجاء المكان بحثًا عن ظلّ. تهاوى إلى ظلّ شجرة سدر تقبع يتيمة في طرفٍ من المقبرة.

هاجمه قلق شديد وهو يرى جموع المشيّعين يغادرون دون أن يعيره أحدهم اهتمامًا. يا لوقاحتهم! أيمكن أن يترك غريب ويُمرّ به مرور

الكرام؟! كرام. . . ! إنّه اللؤم بعينه. أهذا كلّه لأنّي أرتدي هذا الزيّ اللعين؟! هل نحن مكروهون إلى هذه الدرجة؟! حتى في هذه القرية، التي يُفترض أنّها ما تزال بكرًا، لم تتأثّر بنوازع المدنيَّة اللعينة؟ ألم يتعيّن أن يموت هذا الوسِخ إلّا في هذا اليوم؟! أستغفر الله! لو كان انتظر ريثما آخذ أجرتي، وليذهب بعدها إلى الجحيم! لكن ربّما أنّنا معشر العسكر من زرع كلّ هذا الخوف فيهم! نعم، نحن! يا إلٰهي! كم هو مقيت هذا الزيّ وهذه الوظيفة!

وبينما كان غارقًا في تساؤلاته، انبثقت فكرة: لا بدّ وأنّ أهل المتوفّى قد أعدّوا مأدبة عزاء، وعليه أن يلحق بها، ضاربًا بكلّ تساؤلاته عرض حائط الجوع. نهض ينفض عنه الغبار، وها هو شيخ أشيب يقف أمامه فجأة، كأنّه انشقّ من العدم. صافحه مرحّبًا، وطلب إليه اللحاق به. تبعه دون سؤال. ظنّه أحد أقرباء الفقيد يمضي به إلى حيث يكون الغداء. انزاح قلقه، بل أحسّ نفسه خفيفًا، كأنّه يمشي في الهواء. لم يمض به من الطريق الذي قدم منه، فظنّه يسلك طريقًا مختصرًا. توقّفا وسط القرية، أمام منزل عتيق من طابقين، يبدو مهجورًا، بعيدًا عن منزل المتوفّى. أشار إليه أن ينتظر خارج المنزل حتى يستدعيه. تقدّم الرجل من الباب الخشبي العتيق، لينفتح من تلقاء نفسه. دهش (أ. ح) للأمر، لكنّه ظنّها تهيّؤات جائع. أخذ يفكّر في سبب مجيئه إلى هنا؛ لماذا لم يذهب به هذا العجوز الغريب إلى بيت العزاء؟! منظره لا يوحي بأنّه قادر حتى على إطعام نفسه، فكيف بالآخرين! إنّها تلك النظرة السطحيّة التي تجعلنا كثيرًا ما نقيّم الأمور بشكل أخرق.

همَّ بالمغادرة؛ فتفكيره بالطعام جعله يزداد جوعًا. إنّه يعرف منزل المتوفّى. سيذهب إليه، وليترك هذا العجوز الخرف وهذا البيت المقفر الذي يبدو مهجورًا منذ زمن طويل؛ وبهذا يكون قد حظي بجزء من

أجرته على الأقلّ. مشى خطوتين. . . ثلاثًا، قبل أن يتوقّف على صوت يناديه من إحدى نوافذ الطابق الثاني. شعر بشيء ما يشدّه للاستجابة للنداء. كان الظلام كثيفًا داخل المنزل، مع أنّ النهار كان في أوجّ شمسه. تحسّس طريقه بصعوبة، مسترشدًا بهمهمات غامضة قادمة من الطابق العلوي، كانت كأنَّ حشدًا من الناس يتحادثون بأصوات خافتة. تنامى إلى سمعه ذلك الصوت يناديه من الغرفة المقابلة لدرجات السلّم. شعر بتكاثف الظلمة عليه قبل أن يجد نفسه فجأة يقف في الغرفة. هو لم يدخلها، لم يشعر أنّه استخدم قدميه، ربّما لم يحرّكهما. لكنّه وجد نفسه داخلها! تلبّسته الحيرة. وزادته حيرة هالة ضوء فسفوري رآها تحيط بالعجوز.

بصوت شاحب أجوف كأنّه آتٍ من غياهب بئر، ودون أدنى حركة من شفتيه: «انزع عنك هذا العناء! آن الأوان! تحرّرْ من سيطرة هذا الزيّ، وأيّ زيّ آخر؛ من هذه البندقيّة التي أثقلت كاهلك. . . إنّها مجرّد أوهام تشعرك بالتميّز. ما تفعله ليس أنت. أنت منوط بك شيء آخر، هدف سام، سيقودك لتحرير نفسك. إنّها مهمّة عظيمة. سخِّرْ لها ذاتك، وستفيض نورًا. احتمل آلامك، وسترى!».

تردّد قليلاً. ما حدث كان غريبًا، كأنّه في حلم. كان شيء ما في أعماقه يحثّه على الإذعان. وضع بندقيّته جانبًا ونزع بزّته العسكريّة، وناولهما العجوز. شعر أنّ عبئًا ثقيلاً انزاح عنه، إذ رأى نفسه مرتديًا ذاك الثوب المهلهل الذي يرتديه العجوز. ها هو يتناول منه شيئًا ما، لا يدريه. حمله، دون أن يأبه، ودون انتظار أن يتقدّمه صاحب البيت. هبطا الدرج متّجهين نحو الخارج. كان كأنّه نسي كلّ حياته الماضية؛ حتى ذلك الجوع.

كان آخر ما جاءه من العجوز صوته يتردّد: «لا بد أن تتعلّم الكثير،

لتكون جديرًا بما ستكون! هذا قدرك. ولسوف تتعلم».

أفاق وقد أتت الشمس على ما استفاء به من ظلّ، وها هي تكاد تصهره، مشعلة فيه عطشًا جحيميًّا استبدّ به وأخرجه من غياهب حلمه ذاك. انتفض يبحث عن بندقيّته، مطمئنًّا إلى أنّ الأمر مجرّد حلم. قاده عطشه إلى أوّل بيت يغيثه بشربة ماء. كان البيت يكاد يكون ملتصقًا بالمقبرة، لولا ذلك الفناء الذي يمنعه أن يكون جزءًا منها.

الفكــرة الثـالـثـة

الرغبة: هيمنة الحواسّ واستلاب الفكر

خصّص لي شيخي إحدى غرف الطابق الثاني. في الأيّام الخمسة الأولى، اقتصر عملي على مراقبته عن كثب أثناء أدائه أعماله الاعتياديّة؛ اعتياديّة من وجهة نظره، أمّا على تلميذ مبتدئ مثلي فعجيبة ولا شكّ. كان يدهشني ما أرى ويبهتني؛ ولكن سرعان ما سأعتاد عليه، بل وسأبدأ في تطبيق بعض ممّا كان يعلّمني.

زادت قدرتي على الاستيعاب بدرجة لم تكن أثناء دراستي في المدرسة أو الجامعة. طبعًا لم أخبركم أنّي ـ مثل كثيرين ـ لم أدرس في الجامعة إلّا ما لم أرغب به، وهو ما فرضته درجتي المنخفضة في الثانويّة العامّة؛ لأجد نفسي، هكذا ومن دون تفكير، أدرس الفلسفة، ولأتمّها ـ بعد عناء ومشقّة ـ كيفما اتّفق. الآن أشعر أنّ ذلك لم يكن هباءً؛ فقد أعانتني الفلسفة كثيرًا على مقاومة الإيغال في الأمور الغيبيّة، التي وجدْتُني غارقًا فيها، والتي كانت تستهويني حدّ الهوس.

كانت تدهشني الأجواء العبقة بروائح البخور والأعشاب الأخرى، بتهويمات الأرواح الكثيرة، أرواح إنس وجنّ. كانت الدهشة تبلغ بي

مداها في الجلسات الليليّة التي يسرد لي خلالها تفاصيل قصّته مع معلّمه، معلّمي، الولي العارف (أ. ع). أكثر ما كان يستهويني، مداعباته و«قفشاته» الدائمة ببعض الحيل السحريّة، التي كنت ـ لحسن حظّي ـ أحسبها خدعًا بصريّة؛ وإلّا لكان عقلي زاغ رعبًا.

كان منزله يكتظّ طوال اليوم بالمرضى وطالبي قدراته المتنوّعة، ما أتاح لي مخالطة أطياف مختلفة من البشر، والتعرّف على الكثيرين، وعلى الكثيرات. كان الكثير من الزبائن يسترضونني بالمديح والإطراء، والذي لم يعد بعد فترة بسيطة يؤثّر عليَّ. المال وحده بقي الوسيلة الأنجع لتسريع دخولهم وعرض حالاتهم على «الشيخ»: الاسم الجامع الذي يعنُّ للناس إطلاقه على الدجّالين والمشعوذين والفقهاء ورؤساء القبائل، الذين يشترك معظمهم في خداع الناس واستغلالهم وتضليلهم، وإن اختلفت الأساليب والصور.

النساء كُنَّ أكثر زبائنه ومرتاديه. وعمومًا، كان زبائنه الذكور هم من المصابين بالعجز الجنسي أو «الممسوسين» المسكونين بالجنّ، أو ممّن تعرّضوا لبعض الكسور. ونادرًا ما كان يأتيه راغب في قراءة طالع أو طالب تميمة أو رقيّة. أمّا النساء، فبالإضافة إلى ذلك أيضًا، فقد كانت أغراضهنّ متعدّدة متشعّبة: قراءة الطالع، إبراؤهنّ من العقم، طلب التمائم والرقي، وضع الأسحار وفكّها، كشف أماكن ومصائر المفقودات والمسروقات، تحضير الأرواح والجنّ، وأغراض أخرى كثيرة، لا أدري من أين ولا متى ولا كيف يفكّرن أو يأتين بها!

الغريب أنّ «الشيخ» كان يبدو واثقًا من قدرته على معالجة معظم تلك الأمراض والأسقام. لم أكن أدري كيف! لم يكن يعدم وسيلة يتهرّب بها من حالة استعصت عليه، وبقدرة فائقة على الإقناع.

أخبرني أنّه لا يستطيع إلّا الاستجابة لأوهام الناس وإيمانهم

بقدراته، ولو بالوهم أيضًا؛ لأنّهم يريدونه قادرًا على كلّ شيء، وإلّا نبذوه.

كان عمله يدرّ عليه الكثير من الأموال؛ لكنّ الغريب أنّ ذلك لم يظهر في مستوى وأسلوب حياته، ومن يره يظنّه معدمًا لا يملك شروى نقير.

* * *

أوّل لقاء لي بامرأته الشابّة كان صدفة. صدفة!؟ هل ثمّة شيء اسمه الصدفة!؟ لو أنّني أحصر كلّ ما يمكن اعتباره صدفًا لاعتبرت حياتي واعتبرَتْني محض صدفة كبيرة.

كان أن فقد شيخي وعيه فجأة، أثناء إحدى جلسات تحضير الأرواح. ارتبكتُ ـ على عكس مساعديه الآخرين ـ لبعض الوقت؛ لكنّي ثبتُّ سريعًا وأنا أرى عدم تأثّرهما. كان عليَّ أن أقول للزبائن إنّه ثقل وطأة وسطوة الأسياد. بعد أن خلا المكان، إلّا من ثلاثتنا إلى جانبه، رحت أستعجل أخذه إلى المستشفى. أصرَّا على ألّا يحدث ذلك؛ إذ إنّه لا يكره شيئًا كرهه المستشفيات. أخبراني بأنّه مصاب بمرض السكّري منذ فترة، وأنّه لم يكن يريد تصديق ذلك، فظلّ على عناده دون علاج أو حميّة، ما فاقم المرض حتى حدث له ما حدث.

حملناه صاعدين به إلى الدور الثالث. وهناك تركاني أمام الباب. تردّدتُ قليلاً في طرق الباب؛ كنت أعرف حساسيّته المفرطة تجاه زوجته. لكنّي كنت قريبه الوحيد في تلك الأثناء، كما أنّ حالته كانت تستلزم تفكيرًا على غير ذلك النحو، فأنا لا أعمل بذلك سوى ما يتوجّب عمله.

اضطربْتُ قليلاً إذ فتحتْ الباب. لم يندّ عنها أيّ اضطراب، ولا

حتى المتوقّع من زوجة على زوجها. كانت سافرة الوجه، نصف شعرها الكثيف الأسود المتموّج يتدلّى من تحت حجابها منسدلاً حتى الخصر. تسمّرتُ منشدهًا وهي تنسحب للداخل متهادية بغنج ودلال، تقلب عجزًا مثيرًا، مترجرجًا مشدودًا، بارزًا خفيًّا، صاعدًا هابطًا، ساكنًا منتفضًا، عازمًا متردّدًا، طيّعًا متمرّدًا. . . ما أثارني حدّ اصطكاك رُكبتيّ.

عادت لما بدا مساعدة لي في حمله إلى غرفته. اقتربتْ. . . نكاد أن نلتصق. تعمّدتْ تكرار ملامستي متظاهرة بانهماكها في مساعدتي. شممت لأوّل مرّة عبق امرأة ينضح بالتشهّي. تعمّدَتْ الالتصاق فتعمّدْتُ. ضغطَتْ فضغطتُ. أحسسنا بأنفاسنا حارّة تلفح. سرى ذلك التيّار المباغت في جسدي، وفي جسدها لا شكّ. تلاقت عيوننا. غضضناها، وقد أدرك كلّ منّا المبتغى. رحتُ أختلس النظرات إلى جسدها المتهدّج وأعضائه النافرة تحت تلك الملابس الخفيفة. كان جمالها أخّاذًا، وملامحها تطفح بالرغبة.

تباطأنا في وضعه على السرير، حتى شعرتُ لكأنّه، وهو الغارق في غيبوبته، يتميّز غيظًا، بل ويرمقنا شزرًا لحظة وضعناه، قبل أن يغمض عينيْه، ذاهبًا فيما هو فيه. ابتعدتْ وهي تبتسم في وجهي غير عابئة. غمزتْ مردّدة بخبث عبارات ترحيب تقولها النسوة هناك ترحيبًا بمن يأتي، وإن بدا في صوتها ما يوحي. . . يوحي بكلّ ذلك الذي سيحدث لاحقًا.

قطع صوتها حبل استغراقي، تخبرني أنّها ليست المرّة الأولى.

ذهبتْ إلى المطبخ كما يبدو، كأنّها ذاهبة إلى السرير، تتلوّى في ذات المشية كأفعى. عادت مرتدية ملابس أقلّ تبرّجًا، وإن ظلّت سافرة حاسرة، تحمل حقنة أنسولين وخزتها في ساعده ربّما!

جمالها الشهواني، صوتها المتغنّج، نظراتها الملتهبة. . . أثارت رغبتي حدّ انتصاب كلّ شيء.

تطلّب الأمر أسبوعًا كاملاً حتى استردّ الشيخ قواه وبدأ يتواءم مع المرض، كنتُ خلالها أتردّد باستمرار، لا أدري أعليه أم عليها. توثّقت علاقتي بكليهما يومًا بعد آخر.

هل للخيانة مكان هنا؟! أم أنّه الحرمان يخرجنا عن أطوارنا؟ أم هي تلك الرغبة في انتهاك المحرّمات ونيل ما ليس لنا؟ أم هي الرغبة مجرّدة؟

أخبرتني أنّها أحبّته رغم ذلك الفارق الكبير في السنّ بينهما، وأنّها بذلت قصارى جهدها في إسعاده وإرضائه. هو كان كذلك أوّل الأمر؛ غير أنّ ذلك لم يدم طويلاً؛ فبعد عام واحد بدأ يهملها ويتهرّب منها، مع تراجع قدراته الجنسيّة؛ ربّما لتقدّمه في العمر. زاد الطين بلّة إصابته بالسكّري، والذي قضى على البقيّة الباقية، وتركها لنيرانها المتأجّجة داخلها.

حاولت في البداية أن أتماسك، وأن أبعدها عن تفكيري. لكنّها تمكّنت من إيقاعي بالحيل والأساليب المعروفة. كان ذلك ما أتمنّاه؛ فمن ذا يمكنه مقاومة كلّ ذلك الجمال والسحر والفتنة؟! ربّما كان هناك من يمكنهم ذلك؛ لكنّني بالتأكيد لستُ منهم.

كان لنا ما أردنا. غرقنا في بحور اللذّة. ارتجفنا في ثنايا اللهفة. تهصرني وأهصرها حتى تنزُّ كلّ خليّة في جسدينا بالعرق. كنّا إعصارًا من شبق.

وها هو الشيخ يبل من مرضه ويعود لعمله، فاتّفقنا أنا وهي على تحيُّن كلّ سانحة.

الغريب أنّ شعورًا غريبًا كان يراودني بأنّ الشيخ على علم بالأمر، وأنّه يتغاضى عن ذلك، بل ويتعمّد تسهيل لقاءاتنا. في مرّات كثيرة كان يطلب منّي شراء أشياء وإيصالها إليها. كما كان يطلب منّي مرافقتها أثناء خروجها من المنزل. ثم إنّه كثيرًا ما كان يتركنا معًا في الجلسات الليليّة مستأذنًا للخلود إلى النوم، وإذا ما استأذنتُ أنا نهرني بلطف طالبًا منّي البقاء. لم أكن أنصرف إلّا وقد تدبّرنا أمر لقائنا التالي.

لم يعد الشيخ مهتمًّا بها كما كان. جلّ همّه كان منصبًّا عليَّ وعلى إكمال مهمّته معي، قبل حدوث ما لا تُحمد عقباه، كما كان يقول. كنت محور اهتمامهما؛ كأنّها هي الأخرى كانت تؤدّي معي مهمّة ما.

سألني ذات مرّة: «أتعرف سبب اهتمامي بك، رغم إدراكي صفاقة ما نقوم به؟». ثم أردف دون أن ينتظر جوابًا: «إنّها وصيّة معلّمي. هو معلّمك أيضًا. ما أقوم به الآن أمر كلّفني به. هو أراد تعليمك وإطلاعك على كلّ ما لديّ، بل والسكوت عنك وعنّي. أتدري ما يبعث على الأسى؟ أن يغدو الطبيب مريضًا، أن يصبح من ظلّ طوال عمره يعالج العاجزين عاجزًا بدوره».

أدركتُ أنّه كان يلمّح إلى ما بيني وبين زوجته؛ وكيف بمثله ألا يعرف؟!

لفَّ المكان صمت ثقيل. نهضتُ منصرفًا، تجثم عليَّ جبال من الارتباك والخجل. لا أدري كم من الوقت استغرق نهوضي ذاك! رمقته بعينين مطأطئتين انتفضتا فزعًا وأنا أراه مغشيًّا عليه يخرج الرضاب من شدقيه. ناديتها؛ لكنّها كعهدها لم تحرّك ساكنًا، بل ولم يرفّ لها جفن؛ يبدو أنّها كانت قد اعتادت ذلك؛ فالاعتياد هو ما يخلق فينا عدم الاكتراث. تقدّمتْ نحوي. دفعتني إلى الجدار. خلعتْ إزارها وانكبّتْ تخلع ملابسي، وكأنّها تخلع كلّ تلك الجبال من الشعور بالارتباك.

تطارحنا. غبنا، بل غاب كلّ شيء من حولنا. يومها كان للوجود الكثيف غير المرئي وطأة تملأ المكان.

في ذروة انهماكنا شعرتُ، ربّما رأيتُ، كأنّه يفيق ويعتدل بهدوء، وكأنّه يتناول بيدين مرتعشتين حقنة من حقيبة على يمينه، ويغرزها في مكان ما من بطنه، ثم يستكين ويغرق في النوم مرّة أخرى. هل رآنا؟! هل رأيناه؟! هل كنّا هناك فعلاً؟! هل ما حصل حصل حقًّا؟!

في تالي ذلك اليوم، حين أفاق، أو حين أفقتُ أنا، لا أدري من منّا كان المغشي عليه، طلب أن أمنحه جلّ انتباهي. أدركتُ كم كان حريصًا على أن ينهي أمرًا ما. كان صوته يقول بأنّني ذلك الأمر، وأنّ كلّ اهتمامه منصبٌّ على الانتهاء منه في أسرع وقت. ناولني مفتاحًا، وأشار إلى خزنة جداريّة تعلو سريره، خلف صورة كبيرة له. فتحتها وأخرجت منها عشرة كتب. كان بعضها بخطّ يد، ربّما يده. أعطاني ما هو مطبوع منها لقراءته في أوقات أخرى. بدأتْ أولى جلساتنا. يعرض ما نسخته يده ويشرحه بتفصيل يأخذ عليَّ كلّ وقتي، سارقًا منّي كلّ تلك المتع التي اعتدتها. استمرّت جلساتنا وفق خطّة كان قد وضعها لننتهي في الوقت الملائم. كنتُ بعد كلّ جلسة أشعر بدناءة وصغار إذ أردّ له جميله بكلّ ذلك السوء. لكن كأنّ ذلك كان فوق إرادتي.

الفكــرة الـرابـعـة

لا أعتى من ظمأ الحواسّ

ما زال صدى صوته اللاهج بالحكاية يتردّد في أعماقي:

قادني عطشي – يا بني – إلى ذلك المنزل، لغبًا لا أكاد أميّز شيئًا إلّا رغبتي في إطفاء هذا الظمأ. كم من الأمواه طافت في مخيّلتي حينها، فلم تزدني إلّا شحوبًا ولهفة! لك أن تتخيّل كم كان العطش قد استبدّ، حتى طغى على كلّ ما كان من جوعي، وعلى ذلك الحلم الذي طاف بي. وها أنا لا أتذكّر إلّا وجه ذلك العجوز الذي جاءني في غفوتي، يطلّ من باب المنزل وبالثياب والهيئة ذاتها التي كان عليها في الحلم، لأتهاوى بعدها ضاربًا في الغياب. لا أدري أكان عدم قدرتي على احتمال العطش أكثر أم أنّه وجه العجوز وبكلّ تفاصيله تلك!

أفقت على فراش شاحب شحوب الغرفة وشحوب الوقت. احتجت إلى بعض الوقت لإدراك ماذا أتى بي إلى هذه الغرفة الغريبة عنّي، ولأستعيد تفاصيل ما حدث، ولأراني بالثياب نفسها التي أعطانيها العجوز في الحلم وبالهيئة ذاتها.

أيُّ وَلَهٍ حميمي ذاك الذي يجعل الإنسان قابلاً للتغيّر في طرفة

عين!؟ إنّه لدليل قاطع على أنّ هذا الكائن ـ كما هو الكون بأكمله ـ مجبول على التغيّر؛ وإلّا فقد ذاته، واختلّ الكون لذلك أيضًا. أليس في هذا ما يفسّر رسوخ بعض أحداث عابرة في الذاكرة، وتلاشي أحداث كانت معدودة في الأساسيّات.

وجهان أيضًا أفقت عليهما: فتاة بدت لي في السابعة عشرة من عمرها، وأخرى بضعفي عمرها تقريبًا، تبدوان شديدتي الشبه إحداهما بالأخرى. كانتا جميلتين جمالاً مذهلاً، وإن كانت نظرات الكبرى أشدّ سطوة ورغبة، بحيث جعلتني أتسمّر في مكاني لا ألوي على شيء، قبل أن أنتفض متلفتًا أبحث عن بندقيّتي وملابسي العسكريّة. كنت مرتبكًا لا أدري لماذا لا أرى إلّا عينيْ تلك الأنثى تحاصرانني منبثقتين من كلّ مكان.

عرفت منهما أنّ يومين قد مرّا على ما كنت فيه من غياب، وأنّ من حسن حظّي أن غبت بين يدي شيخ مدرك كلّ تلك المهارات المسمّاة تطبيبًا. وكأنّما أدركتْ الكبرى ما كنت أبحث عنه لتقول لي إنّها في غرفة أبيها، وأنّه لا بدّ عائد من صلاة العشاء. كان ما قالته فعلاً؛ فإنْ هي إلّا لحظات حتى سمعنا طرقًا على الباب، لتهرع وتعود وذلك العجوز الحلم.

لا أدري ما الذي جعلني أنهض بذلك الانشداه، قيامًا من فراشي، ليشير لي بحركة من يده أن لا داعي لذلك، مردفًا بصوت بشٍّ مغرق في الودّ: «حمدًا لله على سلامتك!».

وها هي الكبرى تقول له بمكر: «كان ينتظر وصولك فحسب، لتعطيه بندقيّته وملابسه». ردّ عليها بمكر أشدّ: «وأين تراه يذهب؟! ألم يدرك أنّه جزء من حلم لم ينته بعد؟!»، ونظر إليّ بتينك العينين المتّقدتين المتروّيتين، وليدوّي ذلك الكلام الذي قاله طاغيًا في أعماقي.

وهكذا، يا بُنيّ، لم يكن في ذلك الحلم إلّا المضي وتشرُّب كلّ ما اختير لي. ويكفي أنّني جزء منه، مثلما أنّك جزء منه.

الكبرى هي ابنته الوحيدة، والصغرى حفيدته الوحيدة أيضًا. وهو ـ قدّس سرُّه ـ معلّمي ومعلّمك.

تطوّرت علاقتي بابنته يومًا بعد يوم، كأنّما كانت تَعِدُ رغباتنا بالتحقّق. كانت قد تزوّجت في الرابعة عشرة فلاّحًا من أبناء عمومتها. أنجبت منه ابنتهما الوحيدة بعد عام. بعد عامين هاجر إلى بلاد الغربة حين ضاقت عليه السبل. وبعد عامين آخرين انقطعت أخباره.

إذن هو الظمأ يا بني! إنّها الرغبة والحرمان.

كنت أشعر بمدى تأفّف وانزعاج الحفيدة من انطلاق وجرأة أمّها معي. سنّها لمّا تكن تؤهّلها بعد للشعور بمعاناتها. كانت دائمة التبرّم إذ ترانا معًا. وعندما تكونان وحدهما تعلو أصوات شجار محتدم. لكن إن هي إلّا مدّة حتى توقّفت عن ذلك، بل وتحوّلت إلى عون ومؤازر لنا؛ ذلك أنّ رغباتها استعرّت هي الأخرى ووقعت في تلك الهاوية اللامتناهية: العشق، مع الابن الأكبر لكبير القرية.

أخبرني معلّمنا ـ يا بنيّ ـ أنّه كان قد عرف بقدومي بعد رؤيا رآها قبل ثلاث ليال من وصولي. هو من أولئك الذين لا تأتيهم الرؤى إلّا نادرًا؛ وحينها لا تكون جزافًا.

رآه يقف مع باقي أبناء القرية في ساحتها يحيون زفاف أحدهم (هو المتوفّى يوم وصولي). كان شبح طائر عملاق يحوم قبل أن ينقضّ وينتشله من بين براثن الجميع. رآه يستكين دون مقاومة، والطائر يرتفع ويحلّق به في العلاء، مميلاً رأسه بحيث تمكّن كلاهما من رؤية وجه الآخر. نعم كان طائرًا؛ لكن بوجه إنسان، وكان وجهي أنا تحديدًا.

حلّقتُ به فوق القرية، لأحطّ به أمام منزله القديم. سمعني آمره بإخراج أشياء من المنزل، سمّيتُها ـ كما قال ـ «أشياء الظلال». دخل وأخرجها ليجدني في هيئتي هذه، وإن كنت ما أزال قادرًا على الطيران. طرتُ بها وبه إلى منزله ذاك، حيث ابنته وحفيدته. وفجأة شعر بجمجمته تنشقّ لألتهم ـ أو ذلك الذي يشبهني ـ بعضًا منها. حاولت ابنته الذود عنه، إلّا أنّني ـ كما قال ـ انتزعت قلبها بيدين عاريتين والتهمتُه من فوري ثم عدت لالتهام ذلك البعض من دماغه. لم تمت، بل أمسكت بيدي وجذبتني برفق بعيدًا عنه عدّة خطوات، قبل أن نفترق كلّ في اتّجاه، ونبتعد إلى أن نتلاشى. حينها ظهرت حفيدته ولملمت ما تبقّى من دماغ سال، مخبّئة جزءًا منه في منزل سينزاح ليتوسّط المقبرة، بينما الجزء الآخر في مقام أبيض يتربّع ربوة شاهقة تعصف فيها الريح من كلّ الاتّجاهات، وهو ما قال إنّه ينطبق على مقام جدّه الكبير، من يطلق عليه الناس هنا «الولي». ثم ظهر ظلّ معتم ووقف أمامنا أنا وحفيدته. وما أظنّ ذلك الظلّ إلّا أنت؛ لا لشيء، إلّا أنّني أشعر بذلك.

لقد قال إنّ ذاك الظلّ فتح جمجمتي كما حصل له معي، ثم هام مع الحفيدة يبحثان في المخبأين.

* * *

أكمل (أ. ح) يقول لي:

مكثتُ هناك عامين كاملين تلقّيت خلالهما الكثير من المعارف والعلوم؛ علوم لا يدركها إلّا الراسخون في العلم من ذوي الخصائص والكرامات؛ بعضًا من مهارات وفنون السحر والحيل والشعوذة وأسرار النجوم والفلك والتداوي بالأعشاب وطرق تجبير العظام المكسورة وبعض المعارف الصوفيّة وعلوم الأديان والفلسفات وطرق تحضير الأرواح واستحضار الجنّ... وهي علوم وفنون لا ينالها إلّا صالح

فالح من أهل الولاية والرشاد، أو طاغ طالح من أهل الغواية والفساد. وعلى المريدين، أو المختارين ـ سمِّهمْ ما شئت ـ انتهاج أحد طريقين: إمّا طريق الصلاح، وهو طريق وعر؛ وإمّا طريق «الطلاح»، وهو الأسهل ويفضي إلى تأجّج الرغبات واستعارها؛ مع العلم بأنّ التداخل والغموض واختلاف المفاهيم يكتنف المسارين، بحسب ظروف الزمان والمكان. وسواء مضيت في هذا الطريق أم ذاك، فإنّها لحظة كشف فارقة تومض بالبرهان. فالوهم قد يكون حقيقة أكثر من الحقيقة نفسها. إنّه تجسيد لغير الممكن أو غير المتاح، أو لما لا يمكن أن يتحقّق.

أخبرني أنّه وحفيدته قطبان في دائرة للخلاص لا تكتمل إلّا بهما، كما لا تكتمل يا بنيّ إلّا بي وبك. إنّنا أقطاب في حلقة واحدة؛ حلقة مصيرنا جميعًا.

شعرتْ عندما جئت أن قد آن أوان إطفاء الظمأ. لقد تجلّدتْ زمنًا طويلاً، وقاومتْ كثيرًا، وها هي تنهار دفعة واحدة. تشعر أنّ هناك من يجرّها إلى هذا جرًّا، ولا تقوى على مقاومته، وها هي تتلوّى في أحضاني وتستغرقها النشوة، وكأنّها تعرفني منذ لا زمن. طغى لهيب حرمانها على حيائها الذي اشتهر عنها، فانكبّت تغترف اللذّة وتبلسم آلامها في أحضان هذا الوافد الغريب.

كانت تعلم أنّني سأرحل، مهما طال بي المقام؛ لذا كان عليها أو علينا أن نستغلّ المتاح لنا قدر المستطاع، لتعويض ولو جزء ممّا فات، وممّا سيستعرّ من رغباتنا فيما بعد. كانت في قرارة نفسها تشعر بأنّها فرصتها الوحيدة، التي قد لا تحظى بمثلها. هذا ما كان يفرّق بيني وبينها؛ إذ إنّني كنت أتعامل مع المسألة وكأنّها ستدوم إلى الأبد.

كان أبوها ينتظر قدوم شخص بعينه. وكانت هي ترتقب قدوم أيٍّ كان، لا يهمّ، ما دام يستطيع تلبية ما تهفو إليه. فصودف أن كنتُ الاثنين

معًا: من ينتظره الأب، ومن تنتظره هي. لن يقوم أبوها بأيّ تصرّف يؤدّي إلى مغادرة ذلك المنتظر قبل أن يتأكّد من جاهزيّته لأداء مهمّته. إنّها التراتبيّة المتلاحقة؛ فقد كان يعدّني لما لم يستطع بلوغه؛ إنّه الزمن لم يُمَكّنهُ من ذلك؛ أنا كنت امتداده، أو بالأصحّ كنت وحفيدته امتداده لتحقيق ذلك.

كانا عامين، هما أجمل أيّام حياتي. تعلّمتُ فيهما الكثير، ووجدت فيهما الهدف من حياتي، ممضيًا أمتع الأوقات مع المرأة الوحيدة التي أحببت ربّما.

حاولت عدّة مرّات طلبها من أبيها، إلّا أنّ طلبي قوبل في كلّ مرّة برفض قاطع، رغم معرفة الأب بعمق العلاقة التي تربطني بها؛ ربّما كان يخشى تأثير زواجنا على ما سيوكل إليَّ من مهمّة.

الفكرة الخامسة

الحكمة إدراك الإدراك

كان معلّمنا ـ يا بنيّ ـ الناجي الوحيد من حريق التهم منزل عائلته: أبويه وأخيه وأخته الأصغر منه كلّ منهما بعامين.

كان في الثالثة عشرة. والليل في منتصفه تقريبًا عندما شبّ الحريق. تمكّن الأب ـ بعد أن أُغمي على الجميع من شدّة الدخان ـ أن يَلُفُّه في بساط مع بضعة كتب مخطوطة ووثائق هامّة متوارثة كابرًا عن كابر وبضعة أشياء ثمينة كان حريصًا أشدّ الحرص على إنقاذها، وقذف به وبها من نافذة إحدى غرف الدور العلوي، ليتلقّفه متجمهرون هبّوا للمساعدة في إطفاء الحريق دون أن يتمكّنوا من فعل شيء أمام هوله وسرعة انتشاره.

مضى الأب لإنقاذ البقيّة، إلّا أنّ أرضيّة الغرفة انهارت، لتبتلعهم جميعًا. دفن الوالدان في ضريح الجدّ، «المجنة»، حيث مقام جدّه الولي على «أكمة الريح». ودفن أخواه في مقبرة القرية جوار داره الحاليّة. كان يؤكّد باستمرار أنّ لعنة الظلال وراء تلك المأساة.

كان قد حفظ القرآن وتعلّم أصول القراءة والكتابة وقسطًا لا بأس به من علوم الدين، على يد أبيه «فقيه» القرية.

كان دربًا مقدّرًا، ساقت له الأقدار من يدلّه عليه. وكان زوج عمّته، معلّمه ومربّيه، هو ذلك الدليل؛ فعلى يديه تلقّى معارفه في السحر وفهم محتويات كتب ومخطوطات جدّه المطلسمة التي أُنقذت معه. وعلى يديه عرف وأدرك واجتاز الحجب والبرازخ والمفازات، حتى بلغ مرتبة الولاية، كما كان جدّه، بل وتجاوزه بما أدرك من علوم أخرى كعلم «الجفر» الغامض.

قضى سنوات وسنوات برفقة زوج عمّته، تعلّم فيها الكثير والكثير من المعارف، وأدرك الكثير والكثير من الأسرار، وإن استمرّ طوال عمره، الذي تجاوز التسعين، في رحلة بحث معرفيّة لم تنقطع، تمرّد خلالها على كلّ مألوف وسائد، ليفوق من سبقوه. ومع هذا فقد كان حريصًا على ألّا يظهر من ذلك شيئًا، حرصًا على أن يبقى بين الناس شخصًا عاديًّا، مثلهم، نافرًا من أن يتجلّل بأيّة هالة تقديس قد تعوقه عمّا بين يديه. كان لا يفتأ يردّد أنّ البسطاء هم مصدر إلهامه؛ لأنّهم وحدهم من يمتلكون القناعة والإيمان.

كان زوج عمّته، الذي اشتهر بين الناس بـ «الحكيم»، رَجُلاً شديد الغموض، ويتمتّع بالكثير من القدرات والخوارق، التي لم يتمكّن خلال عمره الطويل من اكتسابها كاملة. في أوّل حياته كان شخصًا عاديًّا، اضطرّ بسبب الفقر إلى الهجرة واجتياز البحر للبحث عن عمل في بعض بلدان شرق ووسط أفريقيا، وتحديدا «إثيوبيا» و«كينيا» و«تنزانيا». وهناك اكتسب الكثير من المعارف والقدرات والمهارات الغامضة التي قال إنّ الأقدار ساقته ليكتسبها، متنقّلاً وقاطنًا، في الأدغال بين عدد من القبائل البدائيّة المستغرقة بروح الطبيعة وجوهرها. كان السحر أهمّ لغاتهم المتداولة، يفهمه العوامّ، ويتقنه الخواصّ. زعيم القبيلة وسيّدها هو الساحر الأعظم. ولشيءٍ ما غامض كان زعماء القبائل والعشائر يقرّبونه

منهم ويعلّمونه أسرار السحر وفنونه، رغم ما يعرف عنهم من حذر وحرص شديدين على عدم إطلاع الغرباء عليها، باعتبارها من خصوصيّاتهم التي ينبغي ألّا يطّلع عليها الآخرون. استوعب روح الطبيعة فاستوعبته، وأعطته بعضًا من قواها وقدراتها. كان يجيد قراءة الأفكار وفهم كثير ممّا يختلج في النفوس، يستكْنه الأصوات ويرى المحجوب، يستجلي بواطن الأمور ويخترق المادّيات ويتحكّم ببعض قوى الطبيعة، فيزجي الرياح ويرسل البروق ويشعل الحرائق... يختفي في مكان ويظهر في مكان آخر... كان غريب الأطوار، متّقد النشاط على الدوام، يكاد لا ينام وإن تظاهر بذلك أحيانًا. يتكلّم لغات كثيرة، بعضها موغل في الغموض، بحسب ما بدا لمعلّمي. يتحدّث عن بلدان وكأنّه عاش فيها طوال حياته، ولم يكن قد زارها أو حتى سمع عنها. يرطن أحيانًا بكلام غير مفهوم يتّضح لاحقًا أنّه لغة ما لا يمكن أن يكون قد سمع عنها أو حتى علم بوجودها ربّما. كان قادرًا على الاستقراء الذهني، أو التخاطر، حتى مع أشخاص من بلدان وأمم أخرى. لم يكن هناك حدود لقدراته؛ فالقوى الروحيّة لا تعترف بالحدود، السياسيّة أو الجغرافيّة أو الثقافيّة...

هيئته عاديّة كانت، ليس فيها أيّ ملمح غريب أو مميّز، كما هي العادة عند من يمارسون السحر والشعوذة ويبحثون في ما وراء الطبيعة، سوى وميض النور الساكن في عينيه العسليّتين على الدوام. قمحي البشرة، هادئ الملامح، قصير القامة ممتلئها، بضع شعيرات نبتت متفرّقة في ذقنه المدبّب. يرتدي ثوبًا أبيض مهندمًا على الدوام. ويعتمر قلنسوة بيضاء مثقبة، من تلك التي يفضّلها بسطاء الصوفيّة، يداري بها صلعته.

* * *

الإحساس العميق بالمسؤوليّة وأهمّيّة المهمّة الملقاة على كاهليهما أهمّ الأسباب التي جعلت معلّمي يتغاضى عن تجاوزات شيخي مع ابنته، وما جعل شيخي أيضًا يتجاوز عن تصرّفاتي مع زوجته، مع إدراكهما الحرمان العاصف بالمرأتين.

يعرفان أهمّيّة دورهما وخطورته. ويدركان أنّ الظلال ستضع الكثير من العوائق لعرقلتهما وإلهائهما عن أداء مهمّتهما: تهيئة أحد المقاومين لمواجهة عالم الظلال المتمرّدة. لم يأبها، رغم الآلام الشديدة التي عانياها جرّاء ذلك. تحمّلا الكثير، وضغطا على مشاعرهما، وضمّدا جراحهما؛ إنّها قدسيّة المهمّة. لقد اعتبرا آلامهما تلك بمثابة الأعراض الجانبيّة المصاحبة لاستخدام بعض الأدوية القويّة، والتي قد تفوق في آلامها آلام المرض نفسه؛ ولكنّها الرغبة في الشفاء، أو فلنقُلْ إنّها ضريبة ذلك.

هذا ما اتّضح لي بعدما عانيت أنا أيضًا الكثير من ذلك، ليس بالكيفيّة نفسها، ولكن بالقدر نفسه من الآلام. وهذا ما استشففته من كلام شيخي المرير.

ها أنا أعود للترّهات مجدّدًا، أحاول تبرير تصرّفات شخصين أدرك مقدار فضلهما عليَّ، دون أن يكونا بحاجة إلى تبريراتي تلك. لكن ذلك ما شعرت به؛ لذا، وتحرّيًا للصدق، رأيت أن أورده.

عاد «الحكيم»، بعد عشر سنوات، مترعًا بالمعرفة، زاهدًا عن المغريات، عازفًا عن المزيد من الترحال. ولأنّه كان قد تغيّر كثيرًا فقد قرّر أن يتزوّج امرأة من إحدى عائلات «الولاية». تزوّج من إحدى بنات وليّ المنطقة، واستقرّ في قريته يفلح قطعتَيْ أرض له كانتا مجدبتين، وببركته ورضا الله أصبحتا أخصب حقلين في المنطقة. طبعًا لم تكونا تكفيان لتغطية ولو جزء من لوازم معيشته؛ لكنّه كان يعتمد أيضًا على ما

يحصل عليه من مداواة المرضى ومن خدماته تلك للناس، وإن كان لا يشترط ولا يطلب منهم شيئًا محدّدًا نظير ذلك. لا يأخذ إلّا من الميسورين، وفقط ما يسدّ به حاجته. كثيرًا ما كان يضطرّ لمغادرة قريته، استجابة لنداءات خفيّة عن حالة تتطلّب تدخُّله. ذاع صيته في أرجاء المنطقة، خصوصًا بعدما آمن الناس بقدرته على مداواة الكثير من الحالات المستعصية. ليس هذا فحسب، بل إنّه كان قادرًا على الاختفاء والانتقال من مكان إلى آخر، مهما بعد، في لمحة عين؛ وإن لم يكن يفعل ذلك إلّا في القليل النادر وعندما يستدعي الأمر ذلك، كحالة مرضيّة طارئة مثلاً. هو رجل يجترح المعجزات، أو كما يسمّيها مريدوه: الكرامات؛ إذ إنّ المعجزات تخصّ الأنبياء والرسل، بينما الكرامات تخصّ أهل الولاية والصلاح. وما زال الكثيرون يردّدون من الوقائع ما يستشهدون به على ذلك، ولعلّ هذه الواقعة من أشهرها:

أصيب طفل حديث الولادة في إحدى القرى البعيدة بمرض مفاجئ كاد أن يزهق روحه. كان أهله قد حاولوا جاهدين معالجته بكافّة الوسائل. وحين استيأسوا من حالته استنجدت الأمّ بـ «الحكيم« أمام نسوة القرية المحتشدات في بيتها للاطمئنان على الطفل: «أيّها الحكيم! إن كنت حكيمًا حقًّا فستأتي لتنقذ طفلي المسكين!». إن هي إلّا لحظات حتى سُمع طرق على باب البيت، وإذا بـ «الحكيم» يقف أمامهنّ بشحمه ولحمه يطلب رؤية الطفل المريض. مسّد جسد الطفل بمرهم كان بحوزته، وما غادر إلّا والطفل قد برئ تمامًا.

آخرون يستشهدون بحادثة «الصخرة»: انهارت صخرة عملاقة من قمّة جبل يطلّ على إحدى قرى المنطقة، وسقطت فوق بعض منازل القرية. كثير من الناجين رزحوا تحت الأنقاض دون أن يتمكّن الناس من إنقاذهم، نظرًا لضخامة الكتل الصخريّة. استنجد البعض بـ «الحكيم»، فلم ينتبهوا

إلّا وهو أمامهم. وأمام دهشة الحاضرين، أخذ يتمتم بألفاظ مبهمة رافعًا يديه إلى الأعلى مبتهلاً، فإذا بتلك الجلاميد تتزحزح واحدًا واحدًا.

وغير هاتين الحالتين الكثير والكثير من الحالات.

ها أنا أورد كلّ ذاك على لساني، آخذًا دور شيخي في السرد حتى لا يحملن عليه أحد، يتّهمه بالكذب. قد أحتمل تهمة كتلك، أمّا أن تكال لشيخي أو معلّمي فذلك ما لا يليق ولا أسمح به على الإطلاق! فحذار أيّها المتلقّي أو القارئ أو أيًّا كنت!

ولنعد إلى ذلك «الحكيم»! لم يكن يحبّذ الحديث عن حياته في الغربة، إلّا بما يكفي لتسليط الضوء على بعض جوانب الغموض في العلوم والفنون التي يلقّنها لتلميذه؛ فنقول إنّه اختفى فجأة حين بلغ تلميذه الثامنة عشرة، وبعد أيّام قليلة من تلقينه كلّ ما لديه. وتقول الشائعة إنّه أخذ زوجته وأبناءه ورحل مرّة أخرى إلى البلاد التي أحبّ، حيث ينتظره معلّموه بعدما أدّى مهمّته على أكمل وجه.

هو من أولئك الذين يظهرون في حياتنا فجأة ويذهبون كما جاؤوا، بعد أن يتركوا بصمات خالدة لا تمّحي.

وإذن عاد معلّمي إلى قريته ليطوّر وينمّي ما تعلّمه من «حكيمه»، ولتكون له حكمته الخاصّة.

إنّه الأمل ما يجعلنا نتغلّب على الانتظار وإلّا فكيف توالت على كلّ أولئك، كلّ تلك السنين من الانتظار؟!

* * *

من ذا لاحظ ظلًّا يمتزج بآخر، تداخل الظلال وامتزاجها، ووقوع ظلّ على ظلّ، امتزاج طيف منعكس بطيف منعكس؟! ما الذي يتبيّنه؟ هل يتغيّر منها شيء؟

ثمّة نوعان من الظلال: ظلال النور، وظلال العتمة. ظلال النور ما نراها بأمّ الأعين إثر انعكاس الضوء العادي، ضوء الشمس على الأجسام مثلاً، بزاوية ميل معيّنة تحكم حجم وشكل الظلّ. هذا النوع عادة ما يكون خاضعًا مستكينًا، ويتفاوت خضوعه بحسب طوله، وفقًا لميل زاوية الإضاءة لا لطول الجسم، فكلّما زاد طوله زاد خضوعه. أمّا ذروة تمرّده فعندما يكون في أقصر حالاته؛ أي عندما يمتزج الظلّ بجسمه تمامًا ويختفي عن الأنظار، الأمر الذي يجعله في ذروة توحّده مع نفسه وبالتالي تمرّده، ويصبح ميّالاً للانفصال والتحرّر؛ لكن تمنعه خشيته المتأصّلة من الزوال والتلاشي في حضرة الضوء المنتشر من حول جسمه، ولذلك قد تنجح الظلال من الانفصال أو التحرّك بحرّيّة أن خفت الضوء أو خبا، وهو ما لا يمكن إلّا في الظلمة، وحينها تكون تلك الظلال معتمة وتندرج تحت ظلال العتمة.

ألم يحدث أن شعرتَ إذ تمشي وحيدًا في الليل في مكان مقفر مظلم، بشيء ما خفيٍّ يلاحقك ويكاد يلمسك من خلفك أو ينتظرك في بقعة معيّنة من ذلك المكان؟ ألا تشعر في مكان ما بانقباض في صدرك وانتصاب شعر رأسك وبالقشعريرة في جسدك؟ البعض قد يعزو ذلك إلى شعور بالخوف كامن منذ مراحل العمر المبكرة؛ لكن لماذا يحدث هذا حتى في أماكن نزورها لأوّل مرّة، وفي سنّ أكبر من أن يسيطر فيها علينا الخوف؟! ولماذا تزول هذه المشاعر عندما نجتاز ذلك المكان؟!

تقول إحدى الإشارات الواردة في «كتاب الظلّ»، الخاصّ بالمعلّم (أ. ع)، كعلم شيخي (أ. ح)، إنّ ذلك المكان أو تلك المنطقة من المناطق التفاعليّة أو التجاذبيّة، ولأسباب مجهولة يكون بإمكان تلك ظلال العتمة إن واءمتها الظروف أن تتفاعل بعضها مع بعض مكوّنة حقل ذبذبات يتّسع كلّما ازداد تحفّزها وتوتّرها وخوفها من وجود ظلّ لا يزال

متّصلاً بجسده، فتحاول جذب ذلك الظلّ وفصله، وهو ما يقاومه بشدّة، باعتباره ظلًّا خاضعًا بطبيعته، فيستجمع كلّ قواه وينكمش متشبّثًا بجسده، ممّا يثير فينا ذلك الشعور. وحين نبتعد عن تلك المنطقة تخفّ سطوة الظلال المنفصلة ويخفّ انكماش الظلّ المتّصل وتشبّثه، ليزول ذلك الإحساس شيئًا فشيئًا. وبالتالي فإنّ مثل تلك المناطق لا بدّ أنّها قريبة من إحدى بؤر أو مراكز الظلال، أو ما يطلق عليها «المستوطنات»، المنتشرة في شتّى أصقاع الأرض، وهي في العادة أماكن مظلمة على الدوام، كمناطق الأحراش الكثيفة أو الكهوف المعتمة، ويمتدّ تأثيرها إلى بعض المناطق المقفرة، ليس بالضرورة أن تكون قريبة من تلك المستوطنات، بل يكفي أن تكون مناطق ملائمة لأنْ تبسط تلك الظلال سيطرتها فيها. المسافة لا تهمّ مطلقًا؛ لأنّ الظلال من السرعة بحيث لا تغدو المسافات عاملاً مؤثّرًا يمكن أخذه في الاعتبار. هذا أمر معروف وجلي؛ فما دامت الظلال انعكاسًا للضوء فإنّ سرعتها بالتأكيد هي سرعة الضوء، وهي سرعة ـ في ظلّ الأبعاد المكانيّة والزمانيّة ـ خارقة. عمومًا فإنّ المناطق المقفرة تعدّ مراتع أو متنزّهات لما (أو بالأحرى: لمن) يقرّر سادة المستوطنات الترويح عنه من الظلال، خصوصًا الظلال المتمرّدة حديثًا، التي لمّا تعتدْ بعدُ البقاء محصورة في المستوطنات. والأكيد أنّ تلك الظلال لا تطلق إلى تلك المتنزّهات المقفرة إلّا في أشدّ الليالي عتمة؛ لسبب غاية في البساطة: الضوء؛ فالظلال المنفصلة المتمرّدة لا تقوى على مواجهته؛ لأنّها تتلاشى أمامه مباشرة، هذا إذا لم يعدها إلى حالتها الطبيعيّة الخانعة، بل الأشدّ خنوعًا، كظلال متّصلة غير قابلة للانفصال مرّة أخرى. وإذا حدث فإنّها تتلاشى، وهذه هي ظلال الأجسام الماديّة، كُلٌّ بحسب درجة خضوعه؛ فظلال الحيوانات أقلّ خضوعًا من ظلال النباتات، وهذه بدورها أقلّ خضوعًا من ظلال

الأجساد الجامدة، وهكذا... وهو ما يميّزها عن ظلال الأجساد البشريّة، الأقلّ خنوعًا، والتي خلقت لتكون بمجملها ظلالاً أصليّة مجبولة على الانفصال والتحوّل إلى كائنات مستقلّة، أو بمعنى أدقّ: متحوّلة.

الفكــرة الســادســة

المعرفة: تراكم حيوات، ونشدان كمال

أتعرفون؟ أكثر ما آسى له أنّني لم أتلقَّ معارفي من معلّمي مباشرة. لم أتشرّب أسرارها منه، تمامًا كما هو حالكم الآن معي، مع اختلاف بسيط: أنّي تلقّيتها عبر وسيطين وكتب معرفيّة كثيرة.

أُخضعتُ لامتحان خرافي لا يصدّق، واجتزت من المعوقات ما إن أحدها ليجعل أعتى الرجال يقف أمامه حائرًا عاجزًا، وهذا ما لن تروه أو تمرّوا به، ما لم تردّوه لحسن حظّكم ربّما. اطّلعت على الكثير من الكتب، لبعض معلّمي الظلّ، وهو ما يتوجّب عليكم فعله بعد أن تطّلعوا على كتابي هذا، ما سيؤهّلكم لتصبحوا بدوركم من روّاد الظلّ ومعلّميه.

أودّ أن أوضح أيضًا أنّ كتاب الظلّ هذا، مثله كمثل كتب الظلّ الأخرى، ليس كتابًا للسحر كما يزعم الكثيرون، وإن لم يخلُ منه؛ بل هو كتاب أقرب لسيرة ذاتيّة معرفيّة، أو كتاب تجارب شخصيّة، وفي أجلى الحالات: كتاب لتعليم بعض صنوف الحكمة. كما أودّ أن أحذّر من أنّ جزءًا كبيرًا من تعاليم السحر الواردة بين دفّتيه مضلّلة غير حقيقيّة، لا تجدي نفعًا لمن يبتغي السحر بحدّ ذاته، وإن كان بالإمكان استخدامها

كمدخل للمبتدئين. أمّا الجزء الآخر من تلك التعاليم فيمكن اعتباره مفاتيح لمعرفة ما لا بدّ من معرفته، بمعنى آخر: لفتح أبواب الحكمة، والوصول إلى جوهر الإدراك، ومن ثم الارتقاء إلى مرتبة الحكيم أو معلم الحكمة.

أشعر أنّني ـ وهو ما اتّهمني به الكثير من مريدي الظلال الذين تفوّقت عليهم وانتزعت منهم مرتبة المقاوم المختار، التي لا ينالها إلّا شخص واحد في زمانه ـ مذبذب الولاء، يتجاذبني الكثير من الأهواء والرغبات والنزعات، غير قادر على الاستقرار على شيء، ولا حتى تحديد ما أريد.

ترى هل ما أدوِّنه الآن ينتهي للحكمة، أم أنّه محض جنون؟ لا أدري! خيط واهٍ ما بين الحالين. أظنّه مزيجًا من الاثنين، أو هو ما يمكن وصفه بهلوسات مريض ممتلئ بالتكهّنات والأوهام والمعارف.

أستطيع تمثيل حالتي بظلّين متداخلين يمتزجان وينفصلان متى شاءا.

* * *

سبعة كتب أساسيّة هي حصيلتي التي خرجت بها من تتلمذي على شيخي. وهي ضروريّة لمن أراد الخوض في علوم الغيب الماورائيّة، وإن كان بعضها كتبًا علميّة خالصة؛ الكتاب الأوّل في علم البصريّات، ويمثّل شروحًا ومقارنات لكتابَيْ نيوتن وابن الهيثم في البصريّات، وفيه شروح عظيمة عن الضوء وخصائصه وأنواعه ودرجاته وغيرها، وعن الظلمة والعتمة والفوارق بينهما وخصائصهما وأنواعهما ودرجاتهما، وعن الظلال وخصائصها ومسبّباتها وأنواعها، وعن طبيعة العلاقة بين الضوء والظلمة وبين الظلال، والتي تربطهما بعضهما ببعض من ناحية أخرى... وبالإضافة إلى ذلك مواضيع أخرى ذات صلة.

أمّا الكتاب الثاني فيتعلّق بفنّ السحر، كما يسمّيه البعض، أو علم الحيل والخفّة، كما يسمّيه آخرون. هو من الكتب القديمة التي عنيت بالسحر وألوانه وأساليبه وفنونه وتعاويذه وتعاليمه... وتحضير الجنّ والأرواح، والفروق بين السحر والشعوذة، وبعض حيل السحر المشهورة، وقصص وحكايا عن بعض مشاهير السحرة والمشعوذين قديمًا وبعض أساليبهم. مؤلّفه مجهول، كلّ ما يعرف عنه من سياق الكتاب أنّه يهودي.

الكتاب الثالث يتعلّق بطرق استخدام الأعشاب الطبّيّة لتحضير الأدوية لكثير من الأمراض والعلل الشائعة، ونبذة عن التطبيب والتمريض، وما يتعلّق بهذا المجال، وبعض الأساليب البديلة التي يستعاض بها عن كثير من تلك الأدوية.

الكتاب الرابع مخطوط قديم مكوّن من كتابين مختلفين: الأوّل: اسمه «الكشف عن الجفر» لمؤلّفه جعفر بن منصور اليمن، ويتعلّق بعلم غامض شديد التعقيد يخوض في طلاسم الحروف المؤبجدة وأرقامها وعلاقتها بالأبراج والكواكب، وقدرات أخرى لا يتوجّب ذكرها في معرض حديث عامّ؛ لأنّها مناطة بأصحابها من أهل الولاية والراسخين في العلم؛ فـ «الجفر» في أحد جوانبه يتعلّق بآليّة تبلغ بمن يفهمها القدرة على تأويل المتشابه في القرآن الكريم وفي الكتب السماويّة الأخرى. ويعدّ الكاتب من أهمّ مراجع الشيعة القدامى، وقد عاش إبّان الدولة الفاطميّة في اليمن ومصر. هو، واحد من أعلام الإسماعيليّة الكبار، عاش فترة طويلة في اليمن، إبّان مكوث أبيه المكنّى بـ «منصور» اليمن وبعده. والثاني: كتاب قديم في علم الفلك والنجوم ومفاتيحها ودوائرها وتأثيراتها على العالم الأرضي. ولعلّ أهمّ ما فيه هو رسم توضيحي لخارطة النجوم والبروج والأفلاك التي اعتمد عليها جعفر بن منصور

اليمن كثيرًا في كتابه، وأظنّ أنّ هذا هو السبب في ضمّ الكتابين في مخطوط واحد.

أمّا الكتاب الخامس فكتاب ضخم في الصوفيّة. لم يرد اسم كاتبه. بين دفّتيه كثير من أفكار علماء الصوفيّة الكبار، أمثال «محيي الدين أحمد بن عربي»، و«أحمد بن علوان»، و«النفّري»، و«السهروردي»، وآخرين. وقد تضمّن أيضًا مبحثًا في طرق الصوفيّة المختلفة وطقوسها وتبايناتها، ومبحثًا في علم الحروف وخصائصها وأشكالها وأسرارها، ومبحثًا في الخيال ومحدّداته وإمكاناته، ومبحثًا أخيرًا في علم الإشارات ودلالاتها.

الكتاب السادس يحوي خلاصات ومناقشات ونصوصًا من رسائل إخوان الصفا، ناقش فيها أولئك المجهولون ـ الذين يحلو للبعض إلحاقهم قسرًا بالمذهب الإسماعيلي ـ الكثير من الأفكار الفلسفيّة والدينيّة السائدة في زمنهم، بأسلوب راق متجرّد متحرّر من كلّ القيود.

أمّا الكتاب السابع فيخصّ جدّ معلّمي، وقد سمّاه كما هي العادة «كتاب الظلّ»، ويتطرّق فيه إلى تجاربه ومعارفه وسيرته... هو كتاب فيه من الغموض أكثر منه من الوضوح؛ إذ خصّص الجزء الأخير منه لتجربته مع الظلال وعالمها الخفي الغامض. ويورد بعض التعويذات المبهمة ادّعى أنّها تمكّن مُدركها من الكشف عن وجود الظلال المتمرّدة وتجنّب شرورها. كما يورد بعض التعليقات والملاحظات على عدد من الحوادث التي وقعت له أو لغيره من أهل زمانه، والنتائج التي توصّل إليها، والخطوات التي اتّبعها وينصح باتّباعها لتجاوز بعض العقبات والمعوقات التي تعترض مريدي وطالبي المعرفة، وكتابات أخرى مرمّزة لم أتمكّن، ولا أظنّ أنّ أحدًا قد تمكّن من فكّها، حتى شيخي نفسه. يقيني أنّها تخصّ كاتبها فقط، لذلك لم تكن لتهمّني في شيء، على الأقلّ في حينه.

وأنوّه هنا بمساعدة شيخي في الكثير من الأمور ورجوعي إليه كلّما استعصت عليَّ مسألة ما، وإلّا فما كنت لأخرج بتلك الحصيلة المعرفيّة.

فكّرت في أنّ سبب عدم ذكر أو ورود أسماء مؤلّفي بعض هذه الكتب يعود إلى كونهم مجرّد ظلال.

ها أنذا عام أو يزيد أكمل تشرُّب شتّى المعارف والمهارات من شيخي. كان كلّما حدّثني عن تلك التفاصيل التي عاشها مع المعلّم، شعرت وكأنّي أنا من عاشها. كانت الرغبة التي عاشها هناك، أعيشها أنا هنا. وها أنذا أذهب إليه في وقت متأخّر من الليل، لا أعلم أنّها ستكون آخر مرّة أراه فيها، ولا أنّه آخر أيّامي هناك. كان يمرّ بإحدى نوبات مرضه. أظنّ طبعه العنيد هو ما أوصله إلى هذا المآل؛ كيف يقبل فكرة إصابته بالمرض وهو المداوي العظيم؟! كان جسده موهنًا، ووجهه ضامرًا تعلوه صفرة؛ أخشى أن أقول إنّها صفرة الموت.

كان قد طلب من زوجته، التي ستفجع بكلينا، الانتظار خارجًا ريثما ننهي حديثًا خاصًّا. طلب أن أضعه على الأريكة المحاذية لباب الغرفة. استقرّ في جلسته، أشار إليَّ بأن أزيح السرير، ليكشف عن مخبأ صغير مسقوف بلوح خشبي متطابق مع أرضيّة الغرفة، لا يكاد يبيّن. طلب منّي الإسراع في فتحه وإخراج ما فيه. كان صندوقًا خشبيًّا صغير الحجم. ناولته إيّاه. وبأنامل مرتجفة أخرج منه خاتمًا فضّيًّا كبيرًا مطرّزًا بكتابات دقيقة، عبريّة وعربيّة، موشًّى بعقيق أحمر قان بداخله شكل طير يشبه القُبَّرة. كان من أجمل ما رأيت. أعطانيه وأوصاني بأن أضعه في بنصر يدي اليمنى على الدوام، كما قال، أدلّل به على مزيّتي عند أصحاب الحظوة والشأن من السادرين في حضرة الظلّ، كما ورُقْيّة تقيني شرور العين والأرواح، بل وتجلب الفأل الحسن. أخرج رقيتين

صغيرتين من القماش، مثلّثتي الشكل، معقودتين إلى عقد فضّي أشار بأن أطوّق بهما زنديَّ حماية لي من الأطياف، أو الظلال، بحسب ما قال. ثم أخرج «مسودّة» متوسّطة الحجم ذات غلاف سميك، مدوّنًا فيها الكثير من التعليقات والملاحظات وسرد كامل لقصّته مع معلّمه، أو «سيّده العارف»، كما كان يكنّيه، وهو ما سأعرفه لاحقًا وسأعتمد عليه كثيرًا في سرد بعض أحداث مدوّني هذا. ناولنيها بتردّد وكأنّه كان لا يريد لها إلّا أن تكون معه، أو كأنّي أسلبه فلذة كبده أو ذلك الشيء الذي نذر له حياته. صعر لي وجهه بكبرياء مرتعشة، وقال بجفاء إنّه لا يريد رؤيتي بعدها. كان شيء فيه يخبرني أنّه راحل أيضًا. إلى أين؟ هذا ما لم أعلمه لحظتها. علمت لاحقًا أنّه ما لبث أن غادر إلى قريته ليكمل ما تبقّى له من عمر هناك.

في الصباح الباكر أفقت عازمًا العودة من حيث أتيت. كان اشتدّ بي الشوق لرؤية زوجتي وطفليّ. أخذت أرتّب حاجياتي، فإذا بزوجة معلّمي تدخل وفي يدها ظرف قالت إنّه تركه لي. سألتها عن حالته فأخبرتني أنّه شدّ رحاله مع نداء الفجر الأوّل، إلى حيث لا تدري. كان وجهها طلقًا مشرقًا يطفح بشيء لا يتناسب مع ما يحدث.

تركتُ كلّ شيء وانكببتُ عليها، انكباب مودع. انصرفتُ تشيّعني بدمع ربّما لم تسكبه من قبل بهذا السخاء.

أتلفّت صوب الدار بين فينة وأخرى، حتى إذا ما أوشكت على الغروب ورائي، أحسست باختلافها؛ بدا لي أنّ ظلالاً كثيفة كانت قد بدأت تحتويها.

كلّ ذلك الوقت ولم أفكّر بأمر الرسالة ولا بأمر رحيل شيخي. ها هي الفكرة تجتاحني. شرعت أفضّ الظرف. كان مبلغًا لا بأس به تطويه رسالة بخطّ شيخي الذي أصبح قريبًا إلى نفسي بقدر ما كان نافرًا فيما

مضى. قرأتها بانكباب. أيّامي المقبلة تتجلّى فيها؛ إذ غيَّرت مسار وجهتي التي اعتزمتها.

لم أكن لأنتظر أجرًا على عملي لديه؛ فقد كنت أحصل على مبالغ جيّدة من زبائنه، لم أنفق منها إلّا القليل.

سأعلم من تلك الرسالة أيضًا كم أنّ المهمّة التي كان مكلّفًا بها قد منعته عنّي وعن شططي مع زوجته. وسأعرف كم من الودّ كان يكنّ لأبي، وأنّ أبي كان من كبار المقاومين الذين عرفهم، وأنّ هذا ما جعله يغفر لي.

تمكّنتُ بعد بحث دؤوب من استئجار سيّارة مرتفعة تلائم ـ كما أخبرني شيخي في رسالته تلك ـ ما وعر من طريق إلى قرية المعلّم، حيث تقطن حفيدته.

(ج) الـــتـــغـيّـــــــــــر

أقوى المعارف حيث اللا متوقّع

التغيّر الأوّل

«المحجوبة»

متأصّل هو الشرّ في نفوسنا، وباهت هو الخير، وإلّا فما الذي يجعل الشرّ هو الطاغي؟! تقضي الأعراف العسكريّة المتحكّمة بمجتمعاتنا أنّ السيئّة تعمّ والحسنة تخصّ. إذن فالشرّ هو المتأصّل والمستشري في نفوسنا على الدوام، بينما الخير هو الاستثناء. يا لهول الفكرة! لهي الفزع بعينه.

ولأنّ الطريق إلى الجحيم مفروش بالنوايا الحسنة، كما يحكي المثل؛ فإنّ كثيرًا من الخلق يسلكون هذا الطريق اختصارًا لطريق سواه أكثر مشقّة ووعورة؛ لا لشيء إلّا بناءً على نواياهم تلك؛ لذا فإنّ من الصعوبة ردّهم عن طريقهم التي نذروا أنفسهم لاجتيازها.

ما أقسى أن نتهيّأ للشوق، ثم لا نلبث أن نكسره بالتأجيل؛ لأيّ سبب كان! حينها يكون الألم في ذروة تسيُّده.

كان جواب السائق، وهو يقول إنّه يعرف القرية والطريق إليها، حاسمًا، بحيث لم يدع لي مجالاً للمماطلة. كان لا بدّ من قطع دابر التردّد، والتوجّه إلى تلك القرية فورًا.

بلغناها بشقّ الأنفس بعد أكثر من عشر ساعات من السير الحثيث. وبسبب الوعورة الشديدة في الأجزاء الأخيرة من الطريق أشرفنا على الهلاك.

كان السائق في الثلث الأخير من عمره تقريبًا، قوي البنية، أشيب، قمحي البشرة، نزقًا أكثر منّي، مع طيبة بالغة تطبع في العادة هذا النوع من البشر، ما جعلنا نقضي معظم الطريق في مقارعات طويلة كانت برغم ثقلها قد أنستنا طول المسافة. وما إن أشرفنا على قرية «المحجوبة»، قرية معلّمي، حتى كنّا قد ارتبطنا بعلاقة صداقة وشيجة. الحقيقة أنّه كان لديه خبرات ومعارف كثيرة؛ رغم عدم تلقّيه أيّ قسط من التعليم، اكتسبها ربّما بحكم الحياة القاسية التي عاشها، وعمله لفترة طويلة كسائق، ما مكّنه من الاحتكاك بصنوف الناس والاستفادة من معارفهم. كما كان يمتلك في أوقات صفائه قدرًا من الظُرْف والمرح وخفّة الظلّ، يطغى على نزقه، وهذا ما سأستشفّه بمرور الوقت.

لا أدري لمَ قادتني ذاكرتي ذات مرّة، بعد أن توثّقتْ معرفتي به، إلى شيء قرأته في أحد كتب الشعر الرومانيّة القديمة، عنوانه «عشر نصائح في حبّ النساء». تقول إحداها في فقرة من الفقرات: «لا تستهنْ بكلّ ذي شيبة! إنّهم مخازن متنقّلة للحكمة والمعرفة».

كان الليل مخيّمًا حين بلغنا مشارف القرية. نصح بأن نعود أدراجنا إلى أقرب منطقة يوجد بها فندق نبيت فيه ليلتنا؛ فمن غير اللائق أو الملائم أن نهجم هكذا، على أناس لمّا يعرفونا بعد، في وقت كهذا، والصباح لديه عيون كما يُقال. كان جلّ همّي حينها منصبًّا على نفض التعب والإجهاد، المسيطرين على جسدي، بالنوم. لذا سريعًا ما اقتنعت برأيه.

عدنا لنعثر على فندق صغير بعد مسير ساعة عند المفترق مع الطريق

العام. قبلناه مضطرين رغم رداءته. عشاء خفيف وانكفاء على سريرين متعفّنين، وكلّ منّا يلوك صمته مستغرقًا في نوم عميق.

* * *

فتحت عينيَّ على خيوط الفجر الأولى، ملقًى على أرضيّة الغرفة. منذ مدّة طويلة لم أستغرق في نوم كهذا؛ وكأنَّ استيائي من هذا الفندق لم يمنعني من أن أشعر براحة لم أعهدها منذ فترة. أحيانًا نجد راحتنا أو بغيتنا في المكان أو الشيء الذي لم نكن نرغب فيه.

كان يصلّي بخشوع، أسفل الغرفة؛ فاجتاحتني رغبة بالصلاة. توجّهت إلى الحمّام وتوضّأت. صلّيت ثم لحقت بصاحبي الذي خرج لتفقّد وتهيئة السيّارة استعدادًا للانطلاق. في مطعم قريب من الفندق، تناولنا إفطارًا ساخنًا أشعرني بالدفء وجعلني أغفو مجدّدًا في السيّارة بعد أن قطعنا مسافة بسيطة.

رأيتني مستلقيًا بين سماء وأرض، تحوطني أطياف بيضاء من كلّ جانب، كأنّها تلك التي رأيتها في «الكهف المنجوث». رفعت رأسي قليلاً لأنظر إلى الأمام. كانت فوهة هلاميّة مظلمة، كتلك التي رأيتها سابقًا تبتلع والدي، تلوح في الأفق، وتلك الأطياف تشدّني نحوها. حاولت المقاومة، لكنّ شعورًا بالعجز كان يشلّ حركتي تمامًا. رأيت - وأنا أوشك أن أهوي في الدوّامة - والدي ينبثق من وسط الفوهة ويقف خارجها باذلاً جهدًا مضنيًا ليحول بيني وبين الوقوع فيها. أحسست - بعد شدّ وجذب بينه وبين الفوهة التي تحاول استعادته - بأنّ قدرته على المقاومة توشك على الانهيار. نظر إلى نقطة في الأفق خلفي، كأنّما يستجمع كلّ ما تبقّى من قواه. التفتُّ فإذا امرأة فائقة الجمال، تحوطها هالة شفّافة كثيفة من الأطياف الرماديّة، تنبثق من الغيب وتطير نحوي. رأيتني أتشبّث بيديها وهي تشدّني بقوّة كبيرة لا يوحي بها حجمها

وأنوثتها، غير عابئة بالظلال البيضاء التي تركت أبي جانبًا واندفعت تلتحم مع ظلالها الرماديّة في معركة ضارية، الأمر الذي أتاح له فرصة التقاط أنفاسه، ليتمكّن من الاندفاع بسرعة بدت خارقة، مطوّحًا بي وبها بعيدًا عن الفوهة، قبل أن يرتدّ ليتهاوى مرّة أخرى في غياهبها.

انتفضتُ على ما لا أدري، أهي صرخة أطلقتُها في ما ظننته فزعًا على أبي! أم أنّها صرخة أبي الموغل في دوّامته اللامتناهية من الظلال! أم أنّه السائق المشاكس وكان قد أطلق عقيرته بالغناء، غير آبه لمن بجواره! يا لغفوتي الكابوس!!

كنت أتصبّب عرقًا باردًا ببرودة ظلٍّ في مثل هكذا وقت ومكان، مرتجفًا، كناجٍ لتوّه من موت محقّق. استويت على المقعد. رفعت زجاج النافذة، ورحت أتأمّل وجهي في مرآة السيّارة أمامي، وأنا أفكّر في من عساها تكون تلك المرأة.

انتفضتُ فزعًا حين لم يظهر شيء من وجهي في المرآة. نظرتُ مجدّدًا، وعلى حالها لم تعكس شيئًا. تلمّست وجهي بأنامل مرتجفة! لم أعثر عليه! فراغًا كان ما لمسَتُ. حاولت أن أطلق صرخة فزع أبت أن تتجاوز حنجرتي. هذه المرّة أفقت بشفتين مبيضّتين مرتجفتين، أسمع صاحبي يصفر لحنًا حزينًا نفض عن ذهني كلّ تفاصيل الكابوس المزدوج الذي فارقني منذ لحظات. عجبًا! كان صوته عذبًا شجيًّا ملؤه الشجن. كانت خيوط شمس ذهبيّة تبسط هيمنة تدريجيّة على سفوح التلال والجبال الممتدّة حتى الأفق. تحاشيت النظر إلى المرآة خشية ألّا أراني، وتعمّدتُ الدخول في حديث معه كيفما اتّفق؛ لأتأكّد من أنّي قد أفقت فعلاً، أو على الأقلّ لأتأكّد من كوني لم أتحوّل إلى ظلّ؛ فالظلال وحدها لا مكان لها في المرايا.

بلغنا القرية تمام الثامنة صباحًا. ركنّا السيّارة في ساحة عند

المدخل. ترجّلت أتلفّت في كلّ الاتّجاهات متأمّلاً تلالاً خمسًا تطوّق القرية كوحوش أسطوريّة، ليس لها من شيء سوى حماية هذه «المحجوبة» النائية وإخفائها عن الأنظار.

معلوم أنّ الأسماء لا تعلّل؛ غير أنّي أدرك الآن أنّ قدماءنا ما كانوا ليطلقوها جزافًا؛ فأكثرها معلّل كلّ التعليل. وأجزم أنّ قرية «المحجوبة» سمّيت هكذا لوقوعها بين أحضان تلك القمم الخمس.

التغيّر الثاني

النساء يجترحن أعظم الحِكَمْ

أحاط بي عدد من الصبية ظهروا فجأة كأنّما انشقّ عنهم الغيب. أعينهم تتساءل بفضول ووجوههم بتجهّم عن سبب مجيء غريبين إلى هذه القرية المنبوذة الغارقة في الملل. كان يومًا استثنائيًا بالنسبة لي، وحدثًا استثنائيًّا كنّا بالنسبة لهم. ترجّل صاحبي العجوز حاملاً علبة ممتلئة بقطع الحلوى. أعطاهم خمسًا منها، بعددهم. لانت ملامحهم قليلاً، فوجدتها فرصة كي أسألهم عن حفيدة معلّمي، التي لا بدّ أن تكون اليوم أمًّا لدزينة من الأولاد، ربّما يكون بعضهم بين هؤلاء. غير أنّ حواسّهم كانت مصوّبة على العلبة، طمعًا في الحصول على المزيد. كنت حائرًا! كيف أستعلمهم عن امرأة، فضلاً عن أنّ سؤالَ غريبٍ عن امرأة لا تمتُّ إليه بصلة ضرب من اللامألوف المحرج في مجتمع تقليدي كمجتمعنا؟! أخرجني صاحبي من هذا الموقف حين بادر بإغرائهم بالمزيد من قطع الحلوى إن هم دلّونا على تلك التي «منزل جدّها يقع في طرف المقبرة». ذلك كلّ ما استطعت قوله لهم. ولمّا لم يبدُ عليهم أنّهم فهموا، هذا إذا كنت قد تمكّنت أصلاً من إيصال فكرتي إليهم، وهو ما لا أظنّه، رحت

أوضح سؤالي أكثر: «أين هي حفيدة المعلّم؟». زادت حيرة الصبية أكثر، ليرمقني صاحبي بنظرة مربكة مفادها: أيّ حفيدة وأيّ معلّم تريد من هؤلاء الصغار، يا أنت!؟ طلب منهم أن يدلّونا على منزل شيخ القرية، وهو بالتأكيد من سيدلّنا إلى بغيتنا. قادنا الصبية إلى دار عتيقة من خمسة طوابق، أشبه بحصن حربي منها بدار، قبل أن يغادروا متضاحكين ظفرًا بما نالوه. أخبرني ونحن ننتظر ردًّا على طرقاتنا أنّه يحتفظ دائمًا بتلك الحلوى المفضّلة لدى أحفاده كلّما عاد من سفر. انفتح الباب الخشبي الكبير، ليطلّ وجه هزيل شاحب، في العشرين من العمر تقريبًا، يشبه كثيرًا وجه قنفذ متضوّر. لا أعلم من أين يخطر لي مثل هكذا تشبيهات! ربّما ورثت هذه الصفة عن أمّي، التي كانت تمتعنا دائمًا بإطلاقها على كلّ من هبَّ ودبَّ. قادنا بعد أن استفسر عن بغيتنا إلى الدور الثاني حيث يقع «الديوان»، كما تسمّى غرفة استقبال الضيوف، واستأذن منصرفًا لإخبار سيّده. انتظرنا حوالى خمس دقائق، دخل بعدها رجل في منتصف الأربعين، متوسّط الطول مع ميل للقصر، ممتلئ دون أثر لسمنة، تنضح من ملامحه الوسيمة سيماء عيش رغد، يرتدي ثوبًا طويلاً أبيض، ويتمنطق «جنبيّة» عتيقة تبدو باهظة الثمن. سلّم علينا بحفاوة بدا أنّها دأبه مع الضيوف، قبل أن يطلب من الشابّ القنفذ الواقف على الباب إحضار القهوة وطعام الإفطار. شكرناه أنْ قد تناولنا إفطارنا مسبقًا ولكن لا بأس بشيء من قهوة.

سألته عنها تغيّرت سحنته وهو يسألني محاولاً عدم إظهار توتّره عمّن أقصد بالضبط.

أجبته مرتبكًا:

ـ إنّني مرسل من لدن أحد تلامذة جدّها.

ـ أحد تلمذ على يد مولانا؟

ـ أنت تعرفها إذن؟! إن كنت تقصد بـ «مولانا» جدّها، فذلك التلميذ هو شيخي، وقد طلب منّي المجيء إلى هنا لرؤيتها، تنفيذًا لوصيّة جدّها.

ـ ما هي أمارتك؟

ـ هي الوحيدة المخوّلة رؤية تلك الأمارة.

ـ ليس في هذه القرية ما تبحث عنه.

ـ لكنّني متأكّد من وجهتي! هذه هي قريتها.

ـ وأنا متأكّد من أنّه لا يمكنك رؤيتها دون أن تريني أمارتك أوّلاً. أنا كبير القرية، وسواءً رضيت أم أبيت فلن يحدث هذا دون إذن منّي.

كانت نبرة صوته حاسمة قاطعة، ما جعلني أفكّر أن لا ضير إن أريته تلك الأمارة. والحقيقة أن لا شيء كان يمنعني من ذلك، خاصّة بعد أن اطمأننت من كلامه، وإن لم يكن صريحًا أنّي سأراها.

كنت على وشك إخباره بأمارتي لولا أن حانت منّي التفاتة إلى الخاتم المستحوذ على بنصري، فإذا بي أنهض محتدًّا طالبًا من صاحبي النهوض، لنغادر. كان عناد مكابر يرتسم في أفقي، لا أدري لماذا! كأنّه من الخاتم. انكسر ذلك العناد المرسوم على وجهي ليتحوّل إلى انبهات حين سمعته يقول بصوت مشوب بالإعجاب أو الاستغراب؛ ربّما من ردّة فعلي المفاجئة:

ـ أهي هذا الخاتم؟

ـ . . . !

ـ وماذا أيضًا؟

أجبته بتلعثم مشيرًا إلى شيء ما في حقيبتي التي لم تكن لتفارقني أبدًا:

ـ لديَّ أيضًا بضعة كتب خطّها معلّمي بيده. لكن لِمَ كلّ هذا الإلحاح؟!

ـ هي زوجتي. لقد انتظرتْ فترة طويلة. أمّا هذا الإلحاح فلأنّه سبق أن أتى اثنان خلال العامين المنصرمين يدّعيان ما تدّعيه فانتهيا ها هنا، ما سبّب الكثير والكثير. وإن صحّ أنّك الشخص المنتظر فلا بدّ أن أكون من يبشّرها بذلك. سأذهب لأزفّ لها الخبر وأعود. انتظرا هنا على الرحب والسعة.

استغربت استغراقه وقتًا طويلاً في ذهابه، كأنّما ذهب إلى مكان بعيد. أرسلت نظرة استفهام للقنفذي؛ فأجاب وكأنّه بانتظارها: «إنّها تعيش وحدها في «دار المقبرة»، منزل جدّها منذ تزوّج زوجها من امرأة أخرى بعدما أعجزتهما القدرة على الإنجاب».

* * *

تنتابني دائمًا فكرة أنّ النساء لدينا أكثر وفاء من الرجال. إن من أهمّ طبائع البشر، وبشكل عامّ، أنّ العمل للرجال، والأمومة للنساء. هذا إذا نظرنا للأمر بصورة مجرّدة، بغض النظر عن تداخلات وتمازجات كلّ تلك العموميّات. سأقتصر على ما هو سائد في مجتمعنا، ما يعني عدم القياس على المجتمعات الأخرى. معظم الرجال هنا يتزوّجون بمضي فترة قصيرة على وفاة زوجاتهم، مهما كانت أعمارهم، ومهما كانوا يكنّون لهنّ من حبّ. هذا طبعًا إن لم يكونوا قد تزوّجوا في حياتهنّ. بينما ترفض معظم النسوة، خصوصًا من لديهنّ أبناء، الزواج بعد وفاة أزواجهنّ، أو حتى عندما يُطلّقن، حتى لو كُنَّ في أوجّ شبابهنّ. كما أنّهم يتزوّجون على نسائهم فور أن يكتشفوا عقمهنّ، هذا إذا لم يتخلّوا عنهنّ في الأساس، وذلك رغم أنّ الأبوة ليست في مقدّمة أولويّاتهم. لا تفعل النساء ذلك؛ فيحرص معظمهنّ على الوفاء والبقاء

مع أزواجهنّ؛ وذلك رغم أنّ الأمومة أولى أولوياتهنّ. وليس ذلك المثل الشعبي، الذي يصوّر حالة الزوج بعد وفاة زوجته بـ «عين في المقبرة وعين تدوّر مرة»، إلّا مصداقًا لذلك.

علمتُ من صبية القنفذ، وقد انطلق فور مضي سيّده في الهذر، وكأنَّ صبره على وشك النفاد، أنّها كانت حتى قبل حردها الطويل تحنُّ إلى المكوث في «دار المقبرة»، وأنّها لم يعد يحلو لها المقام إلّا هناك.

«دار المقبرة»، هكذا كان المعلّم يسمّي داره إذن! هذا ما سيعلق في ذهني من كلّ حديث ذاك الصبي.

دمغها الكثيرون (أي شيختي) بالسحر والقدرة على تبديل الأحوال وتغيير الأشكال، وأنّها ـ كما أشيع ـ تتواصل مع العالم السفلي، أو عالم الأموات؛ ما جعلها مصدر رهبة لدى الناس هناك، ومنهم زوجها أيضًا. ربّما اجترحتْ المسبّبات واختلقت الكثير من الأعذار لتأوي إلى ها هناك، مقيمة مع صديقتها الوحيدة، كانت تقوم بخدمتها والإشراف على كلّ متطلّباتها.

كانت قد حاولت إقناع زوجها بالانتقال والعيش معها في منزل جدّها، إلّا أنّ رفضه كان حاسمًا؛ ربّما لئلّا يقال إنّه ترك دار أبيه وذهب ليعيش في منزل زوجته. صحيح أنّه كان يختلف إليها من حين لآخر في بداية الأمر، إلّا أنّ إصرارها على البقاء هناك عزّز قناعته ـ إضافة إلى عدم الإنجاب ـ بالزواج من أخرى، رغم كلّ ذلك الحبّ الكبير الذي كان يكنّه لها.

ظللنا نرتشف قهوتنا باندفاع كاندفاع الصبي ذاك في أحاديث لم يطلب منه أحد أن يقولها. يبدو أنّه كان يرغب في إيصال رسالة ما، أو أنّه كان ثرثارًا بطبعه، وإن ملت لاحقًا إلى السبب الأوّل.

دهمني قلق جارف بعد تأخّر الرجل. غرقت متظاهرًا بالإنصات إلى نقاش احتدم بين صاحبي والصبي، لم يكن يصلني منه إلّا أشتات أصداء: موت، مقابر، أرواح، جنّ، دار المقبرة...

ترى ما عساه يكون الردّ؟! ولِمَ لمْ يذهب بي مباشرة لمقابلتها؟ ولماذا تأخّر كلّ هذا الوقت؟... وساوس كثيرة يغيبك بها الانتظار عن كلّ ما حولك. لا يهمّ إن قادك كلّ ذلك الانتظار إلى دحض كلّ الأوهام التي استبدّت بك.

لست أدري ما الذي أشعرني بوهن شديد في تلك اللحظة! لا أظنّه إلّا الخوف من المجهول، أو القلق الذي يعتريني من كلّ ما هو جديد، والرغبة في الانطواء والعزلة التي فارقتها مجبرًا.

لعلّه الانتظار لا غير، أدخل كلّ هذه الوساوس في رأسي، زرع بداخلي كلّ هذا القلق. ألم يقل أحدهم، وما أحسبه إلّا فيلسوفًا عظيمًا، إنّ الانتظار أصل كلّ الشرور؟!

التغيّر الثالث

سرّ مبهم بين يديك

أخيرًا وبعد ساعتين كأنّهما الدهر، عاد ليخبرني أنّها ستكون بانتظاري عقب صلاة العشاء، ولكن فقط إن تمكّنتُ من فهم واستيعاب كتيّب خطّه جدّها بيده، أرسلتْه معه. اللقاء مشروط إذن! والشرط هنا من قبل معلّمي شخصيًّا، ولا مناصّ منه.

تناولتُ الكتيّب، كطالب يتناول ورقة امتحان لم يكن مستعدًّا له. كان أربع صفحات من الورق الأصفر المقوّى، الذي يستخدم عادة للوثائق والمخطوطات المنسوخة باليد، مغلّفًا بغلاف من الجلد سميك. وجدتُ بداخله رسالة منها مكتوبة على ورق عادي، سأقرؤها باهتمام بالغ؛ لأنّها الوحيدة التي كان بإمكاني الوقوف عليها. أمّا الكتيّب فكان معظمه مجرّد أرقام تجعلك تصرف النظر عنه للوهلة الأولى. إنّما لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، كما يقولون. أدركتُ أنّني أمام اختبار صعب سيكون عليَّ تسخير كلّ طاقاتي وقدراتي ومعارفي لتجاوزه. استأذنتُ صاحب المنزل أن يوفّر لي مكانًا أختلي فيه، دون أن يشوّش عليَّ شيء.

«يا هذا! سأحاول كسر مخاوفك وتبديدها قبل الخوض في هذا

اللغز. لقد انتظرتُك طويلاً؛ ليس لأنّك أنت، فأنا حتى لا أعرف من تكون، بل لما سيكون منك. أودّ، إن كنتَ تهيّئ نفسك لتحوز ما ليس لك، أن تعود أدراجك قبل فوات الأوان. لن تحوز شيئًا، تأكّد من ذلك! أمّا إن كان مجيئك بلا سابق نيّة، إلّا ما فرضته عليك آنيّة اللحظة، فواصل دربك. لستُ مخوّلة تسليمك شيئًا إلّا إن حزتَ الفهم وتمكّنتَ من إدراك هذا الماثل بين يديك. تأمّله وأعمِل كلّ معارفك فيه! أظنّها تحوي الحلّ وفيها يكمن السرّ. فكّر كما يريد لك أن تفكّر، لا كما تريد أنت! تأمّل في الأرقام، قد يؤون لها ألّا تعود كذلك بعد الآن. هناك إرشادات لا بدّ من تشرّبها. لا تهمل حرفًا ولا رقمًا ولا شكلاً. جئ في الموعد! لكن لا تأت إلّا وأنت أنت! ما لم... لن تدرك لحظتها أيّ جحيم قادتك إليه خطاك».

صعد بي إلى غرفة منفردة مع حمّام، أعلى الدار، قال إنّه يستخدمها مكتبًا ومكتبة. طلبتُ منه، بنبرة آمرة خرجت دون إرادة منّي، عدم السماح لأيٍّ كان بإزعاجي، وأيًّا كانت الأسباب، حتى أخرج من تلقاء نفسي.

أشار لصبيّه القنفذ إشارة سريعة حاول جاهدًا ألّا ألمحها. ذهب ذاك سريعًا ليعود بعد بضع دقائق محمّلاً ببعض طعام. لم أكن أرغب في تناول شيء، حتى لا يكون في ذلك ما قد يشوّش عليَّ. لكنّني قبلته شاكرًا بطريقة شبه انفعاليّة، اعتقادًا منّي أنّ من العيب أن أردّ زادًا قُدّم لي، حتى إن كنت شبعانَ، واحتياطًا لو صودف وهصرني الجوع. كان جُلّ تفكيري منصبًّا على عدم إضاعة المزيد من الوقت.

أخرجتُ ما بحوزتي من كتب في تلك الحقيبة، التي لا تكاد تفارقني. وضعتها في جانب من طاولة المكتب. ثم ها أنا أشرع في تناول ذلك الكتيّب غارقًا فيه.

لا أدري كم من الوقت استغرقتُ تائهًا، دون أن أخرج بنتيجة. أيقظتني دقّات ساعة الحائط تشير إلى الثانية عشرة، موعد صلاة الظهر. وها هي الغرفة تتبدّى أمامي؛ كأنّي حين دخلتها لم أكن أنا، أو كأنّها لم تكن هذه التي أراها الآن. كانت بلا نوافذ عدا واحدة في الجهة الجنوبيّة إلى يسار المكتب، بينما تحيط بباقي جوانبها رفوف خشبيّة رصّ عليها المئات من الكتب. يا لهذا الكنز الدفين، في هذا المنزل الدفين، في هذه القرية الدفينة! سجاجيد حمراء مطرّزة الحوافّ بخيوط سوداء ثخينة تعطي للغرفة منظرًا مهيبًا ومفزعًا في آن واحد، خصوصًا مع تلك الإضاءة الخافتة التي تغمرها حتى في مثل هذا الوقت.

صحيح أنّني لم أكن متديّنًا على النحو المطلوب، أو على أيّ نحو؛ لكنّي شعرت حينها بحاجة إلى الصلاة ومناجاة الله. هي حاجة تنتابني في أوقات الضعف أو المواقف الحاسمة التي أشعر فيها بأنّني على مفترق طرق. توضّأتُ، وها أنا بين يدي الخشوع والقلق أصلّي ركعتين تقرّبًا وابتهالاً إلى الله أن يفتح عليَّ أبواب معرفته ويلهمني فهم وإدراك ما يستغلق عليَّ في هذا الكتيّب. ثم صلّيتُ الظهر على عجالة، كأنّني أسقط بها واجبًا فقط. قد تتساءلون لماذا لم أكن بذلك الخشوع الذي أدّيت به تينك الركعتين! أنا نفسي لا أدري! أظنّه الفارق بين الإجبار والرغبة.

انتهيتُ، لأرى طيف زوجتي يتهادى. تذكّرتُ كم من الخطايا والموبقات ارتكبتُ في حقّها ونفسي والآخرين. انقبض صدري. عاودت الصلاة بقلب خاشع وجل. خيطا دموع ينسربان دون عناء. إنّها المرّة الأولى التي أبكي فيها ندمًا وألمًا، من نفسي وعليها في الآن نفسه. كنت أشعر بأنّني وبعد كلّ هذا الندم سأرتكب ـ مرغمًا ـ الكثير من تلك الموبقات فيما سيأتي. لا أدري! أتمنّى أن أكون مجدّفًا في

شعوري هذا، وإن كنت عازمًا على بذل ما يمكنني من جهد لئلّا أقع في إسار تلك الموبقات مجدّدًا.

عدت إلى مكاني. فتحت الكتيّب واستأنفت القراءة، هذه المرّة بأناةٍ وتروٍّ. هاجس ما وكأنّه صوت أبي بدأ يدوّي في أعماقي، لينداح من بين ثناياي وكأنّه هو من يقرأ:

«بسم الله، إلٰه جميع العوالم، وسعتْ رحمته وحلمه كلّ خطايانا، نحن الفانين المجبولين على الأخطاء وعلى النسيان، الجهلة مهما بلغتْ بهم معارفهم، الضعفاء مهما ازدانت بهم قواهم وتجلّت قدراتهم. وأصلّي وأسلّم على نبيّ الرحمة، محمّد، إمام الهدى، صلاة وتسليمًا كثيرًا. أكتب ـ أنا الغارق في الآثام والشرور، والمترع بالنقصان ـ كلامي إليك يا من أجهله. سيقودك إن أدركته إلى بغيتك. تأمّله، واستفتِ فؤادك إن ضللك العقل. استوحِ المعنى من فيض الصمت، من أنجم هذا الكون وأحرفه! تجرّد من أهوائك، من رغباتك، منك! أشعل نور يديك، يديها، ترَ الرقم الحرف! ستدرك حتمًا فحوى السرّ النائم بالمقلوب هنالك بين يديك.

الفقير إلى الله الطالب رحمته.

ملحوظة: ثق يا أيًّا كنت، أنت خلاصة حلم تامّ، لا تخذله ولا يخذلك.

١٠ ٨٠، ٣ ٦ ١َ، ٤٠٠ ٤٠ ٣٠ ٩٠٠ ٣٠ ١، ١٠٠ ٥٠٠ ٢ ٤ ٥٠
١٠، ٢٠٠ ٦ ٥٠ ٣٠ ١، ٨٠٠ ٤٠ ٦ ١٠ ٣٠، ٥٠ ٤٠، ١٠٠ ١ ٤٠ ٧٠
١ ٨٠ ٥ ٢٠ ٣٠ .١ ٥٠ ١٠ ٨ ٦، ٢٠٠ ٢ ٢٠ ٤٠٠ ٦٠، ٢٠ ٤٠٠ ٦٠٠
٢٠٠ ٩٠، ١ّ ٣٠ ٦ ١َ ٢ ١، ٢٠ ٣ّ ٤ ١٠ ٦، ٢٠ ٢ ٣٠ ١٠٠، ٢٠ ١
٧٠٠، ٢٠ ٤ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠، ٤٠ ٦ ٤٠٠ ٨ ٤٠ ٣٠ ١.

١ ٥، ٤٠٠ ٥٠ أَ، ٥٠ آ ٣٠ ١، ٤ ١٠٠ ٦، ٤٠٠ ٣٠ ٧٠ ٣٠٠ أَ، ٧ ١٠٠٠ ٣٠ ٣٠ ١، أَ ٤ ٢ ٤٠٠ ٦٠، ٢٠ ٤٠٠ ٩٠٠ ٨ ٣٠، آ ٣٠ ٦ أَ ٣٠ ١، ٢٠ ٧٠ ٦ ٨٠٠ ٤٠٠ ٦٠، ٨ ٦ ٢٠٠، ١٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ١٠ ١٠٠٠ ٩٠، أْ ١ ٥٠ ٦٠ ٨ ٣٠ ١، ١ ٥ ٥٠٠ ٧٠ ٢ ٤٠٠ ٦٠، ١٠٠ ١ ٤٠ ٧٠ أَ، ٢٠ ٥٠ ٤٠، ١٠٠ ١ ٤٠ ٧٠ أَ ٦، ١ ٥ ٥٠. ٤٠ ٢٠٠ ٧٠٠ ٨ ١ ٨٠، ٥٠ أَ، ١ ٥ ١٠َ، ٣٠ُ؛ ٥٠ ٤٠٠! ١ ٧٠٠ ٥، ١٠٠ ٢ ٧٠، ٨٠٠ ٢٠٠ أَ ٣٠ ١، آ ٥٠٠ ٥٠ أَ ٣٠ ١، ١ ٣٠، ٢٠٠ ١٠ ١٠٠٠!

٢٠٠ ٧٠٠ ٨ ١، ٥٠ أَ، ٢٠٠ ٩٠٠ ٥٠ ٤٠٠، ١٠ ٨٠، أْ ١٠ ٣٠٠ ١ ٣٠ ٣٠ ١، ٢٠ ٢٠٠ ٣ ٥ ٤٠٠ ٨٠، أْ ١ ١٠ ٣٠٠ أَ ٣٠ ١، آ ٣٠ ٦ْ أَ، ٥٠ أَ، ٢٠٠ ٩٠٠ ٥٠ ٤٠٠، ١ ٥ ٠١ ٥٠ ١٠ ٧٠، آ ٤٠٠ ٨، ٧٠ ٩ ٦٠ ١٠، ٢٠ ٩٠٠، ٨٠٠ ٨ ٤٠، ٥٠ ٤٠، ١ ٤٠ ٢٠ ١٠٠ ١ ٤٠ ٧٠ أَ.

أَ ٢ ٦٠٠ ٤٠ ٣٠ ١، ٦٠ ٦ ٢٠٠ ٨ ٤٠، ٢٠ ٩٠٠ ٢٠ ١. ٢ ١ ٥٠ أَ، ١ ٥٠ أَ ٦، ٢٠ ١ ٧٠٠، ٣٠ ٩٠٠ ٢٠ ١، أً. ٢ ٦ ٢٠ ٩٠ ٤٠، ٧٠٠ ٥٠ ٤٠، ٢٠٠ ٦ ٥ ٤، ٣٠ أَ ٦٠ ١٠، ٥٠ ٤٠، ١ ٦ ٣ ٣٠ ٦، ٢٠٠ ١ ٥٠ ٣٠ ١، ١ ٣٠ ٢، ٣٠ ٩٠٠: ٨٠ ١٠ ٢٠، ٥ ٦ ٦٠ ٥٠، ١ ٣٠ ٢، ٤ٍ ٦٠ ٣، ١ ٥ ٣ ٢٠٠ ١ ٦٠٠؟

٥٠ ١ ٢٠٠ ٦ ١٠٠٠ ٤٠٠ ٦٠، ٥ ١٠ ٣٠ إ، ٤ ١٠٠ ٦، ٥ًّ ٣َ، ٣٠ ١٠ ٣٠ ٣٠. ١ ١ ٥ ٤٠٠ ٩٠٠ ٨ ٣٠ ٦، ١ ٣٠، أْ ١٠ ٣٠٠، آ ٦ ٦٠، ٥٠ أَ، ٧٠ ٢ ٤٠٠ ٤٠٠، ٦٠ ٤٠ ٣٠٠، ١ ٥ ٤٠٠ ٢٠٠ ١٠ ٩٠. ٢ ١٠٠ ١ ٤٠ ٧٠ أَ، أْ ٢ ٥٠ ٤٠٠، ٥٠ ٧٠، ٣٠ ٦ ٥ ٣ ٤٠، ٦٠ ١٠ ٣٠، ٤٠ ١ ٢٠٠ ١٠، ٥٠ ٧٠، ٢٠٠ ٦٠، ٥٠ ٦ ٥٠ ٢٠ ٤٠، ١٠ ٨٠، ٥٠ ٢٠ ٢٠٠، ٥٠ ٤٠، ١٠ ٧٠٠ ٥، ٨٠٠

٢٠٠ أ ٣٠ ١، ٤٠٠ ٥٠ ٦ ٢٠ ٦٠ ٤٠ ٣٠ ١، ٤٠٠ ٦ ٤٠ ٣٠ ١. ٢
٦ ٥، آ ٣٠ ٦ أ، ٥٠ أ، ٥ ٧٠ ٤ ٦ ٤٠٠، ٢٠ ١٠ ٢ ٥٠ ٣، ١ ٣٠
إ ٦، ٥ ٤٠٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٦٠، ٤٠٠ ٤٠ ٣٠ ٩٠٠ ٣٠ ١، ٢٠ ٥٠
٤٠، ١ ٤٠ ٢٠، ١ ٥٠ ٤٠٠ ١٠٠ ٢٠٠. ٦٠

١ ١٠، ٣٠ ٥ أ، ٢ ٢٠٠ ٤ ٣٠ ١، ٣٠ ٥ أ، ١٠٠ ٦ ٣٠٠ ٣٠
١، ٣٠ ٥ أ، ٤٠٠ ٢٠٠ ٨٠٠ ٨ ٣٠ ١! ١ ٦ ٤ ٤٠، ٤٠٠ ٨ ٥٠ ٣
أ، ٨ ٨٠ ٩٠ ٣٠ ١، آ ٣٠ إ، ١٠ ٨ ٦ ٢٠٠، ١٠ ٥٠ ٦ ٢٠٠ ٧٠٠
٦، ١٠ ٨٠، ٤٠٠ ١٠٠ ٦ ٢٠٠ أ، ٥٠ ١ ١٠ ٦٠ ٥٠ ٣٠ ١، ١٠ ٥٠
١٠٠٠ ٢٠ةّ ٤٠ أ، ١ ٣٠ ١٠ ٢٠، ١٠ ٥٠ ١٠ ٦٠ ٥٠ ١٠، ١ ٧٠٠
٥، ٥٠ ٦٠ ٦ ٣٠ ١، ٤٠ أْ ١ ١٠٠٠ ٣٠ ١، ١٠ ٨٠، ١ اًّ ٥٠ ١٠
٧٠، ٥٠ أ، ٤٠ ٢٠ ٤ ٥ ٣٠٠ أ، ١٠ ٥٠ أ، ٥٠ آ ٣٠ ١، ٤٠٠ ٦
٤٠ أ، ٤ ١٠٠ ٦، ٤٠٠ ١٠ ٤ أ، ٤٠ ٢٠ ٤٠٠ ٥٠ ١ ٤٠ أ!

٧٠٠ ٦٠٠، ١ ٤٠، ١٠ ٨٠، ١٠ ٤٠٠ ٤٠ ٩٠، ٥٠ ٤٠، ٤٠٠
١ ٨٠٠ ٤٠ ٦، ١ ٥ ٥٠٠ ٧٠ ٢ ٤٠٠، ٢ ٤٠٠ ٢٠، ١ ٥ ٥٠ ٢٠ ٦٠
أ، أً ٣٠ ٩٠٠، ٥٠ ٧٠، ٣٠ ٩٠٠، أً ٨٠ ١ ٣٠ ٦٠ أ، ٥٠ ٧٠،
٨٠ ١ ٣٠ ٦٠ أ. ١٠ ٥، ٧٠٠ ٥٠ ٤٠، ٥٠ آ ٣٠ ١، ١ ٥ ٥٠ ٢٠
٦٠ ٤٠٠. ٦٠ ٥٠ ١ ٤ ٣٠٠ ٤٠٠ ٦٠، ٦ ٩ ٦٠٠ ٣٠ ١، آ ٣٠ إ،
٥٠ ٢٠ ٢٠٠، ١٠ ٨٠ ٦٠٠ ٤٠، ٥٠ ٤٠، ٤٠٠ ٢٠٠ ٢ ١٠٠ ٤٠، ٨
٦ ٢٠٠ ٣٠ ١/ ٣٠ ٩٠٠ ٣٠ ١، ٥٠ ٤٠ ٦، ٢ ١ ٢٠٠ ٨ ٤٠، ٨ ١٠
٢٠٠ ٣٠ ١/ ٤٠٠ ٤٠ ٣٠ ٩٠٠ ٣٠. ١ ١٠ ٥، ٤٠٠ ٩٠٠ ٨ ٣٠،
١٠ ٦٠٠ ٢٠٠ ١٠، ٣٠ ٩٠٠ ٣٠ ١، ٥ ١ ٤. ٤٠ ٢٠٠ ٣ ٨٠ ٣٠ ١
٦، ١٠٠ ٥٠ ١ ٧٠ ١٠، ٥ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٥، ١٠ ٢٠ةّ ٧٠ ١٠ ٦، ٨ ٢
٣٠٠، ٣٠ ١٠ ٣٠ ٣٠. ١

٦٠ ٤٠ ٣٠٠، أ ١ ١٠٠ ٢٠٠ ٧، ٣٠ ٤٠ ١ ٢٠ ٢، ١ ٥ ٤٠٠

٦ ٩ ٦٠، ٦٠ ٤٠ ١ ٣٠ ٤٠٠ ٦٠، ٨ ٦ ٢٠٠، ٤٠٠ ٤٠ ٤٠٠ ٧٠ ٣٠
١، ٣٠ ٢ ١٠٠ ٤٠٠ ٦، ٤٠٠ ٥ ٢ ٣، ٥٠ ٤٠، ١ ٥ ٤٠٠ ١٠٠ ١
٨٠، اً ٦٠ ٤٠. ٣٠٠ ٣٠ ٢ ١ ١٠٠، ٢٠ ١٠ ٦٠ ٤٠ ٣٠٠، اْ ٢ ٥٠
١٠ ٦٠، ١ ٤٠ ٥ اُ ٦ ٨٠٠، ٥٠ ٧٠، اْ ١٠ ٣٠٠، ٤٠٠ ٥٠٠ ١ ٣٠
٥٠٠ ٦، ٤ ١ ٥ ٣٠٠ اَ، ٥٠ ٧٠، ١ ٥ ٩ ٦٠ ٦ اَ، ٣؛ُ ٣ْ ١، اْ ١
٤ ٩٠ اَ، ٥٠ ١ ١٠ ٦٠ ٥٠ ٣٠. ١ ٣٠ ٨٠ ٦٠ اَ، ٢٠ ٥٠ ٤٠، اّ
٣٠ ٧٠ ١ ٦، ٢٠ ٥٠ ٤٠، ٢٠٠ ٨٠ ٨ ٤٠٠. ٦٠ ١ ٣٠، ٤ِ٠٠ ٨٠
٤٠٠ ٦٠ ٤٠٠، ٤٠٠ ٤٠ ٣٠ ٩٠٠ ٣٠ ١، ٢٠٠ ١ ٦ ٥٠ اَ ٣٠ ١. ٦
٤٠؛ ٨٠ ٤٠٠ ٦٠ ١، ٢٠ ١٠ ٤ ١٠!

٥٠ ١ ٢٠٠ ٦ ١٠٠٠ ٤٠٠ ٦٠، اّ ٣٠ اِ، ١ ٤٠، ٥ ٢ ٣٠٠
١٠، اً ٢٠٠ ٦ ١٠٠٠، ٢٠٠ ٦٠٠ اّ. ١ ٣٠، ٦٠ ١ ٨٠ ٥٠ اَ، ٢٠
١ ٥٠ ٥، اْ ١٠ ٣٠٠. ٣٠ ١ ٣٠، ٣٠ اَ ٦٠ ٤٠٠، ٥٠ ١٠ اَ، ٢
٢٠٠ ٤ ٣٠ ١! ١ ٣٠، ١ ٥ ٢٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٤٠٠، ٨ ٢ ٦٠٠ ٤٠٠
٤٠٠، ١٠ ٨٠، ١ ٥ ٤٠٠ ٤٠ ٣٠. ٩٠٠ ٥٠٠ ٧٠ ٢ ١ ٦، ٥٠ ٤٠،
٢٠ ٦٠ ٨٠ ٥٠، ١ ٤٠، ٦ ٣٠ ٣ ١٠، ٨٠ ٦ ٦٠٠ ٣٠. ١ ١٠ ٨٠٠
٤٠ ٤٠٠ ٦٠، ٥٠٠ ١٠ ٨، ٤٠ ١ ٥٠ ٤٠٠، ٤٠٠ ٥٠٠ ١ ٣٠ ٥٠٠،
٤ ١ ٦٠ ٣ اَ/ ٨ ١ ٦ ٢٠٠ اَ: ٥٠ ١٠ ٥٠ ٥٠٠ ١، ١ ٣٠ ٢، ٣٠
٢٠ ٣٠٠، ١ ١٠٠ ٢٠؛ ٨ُ، ٢٠٠ ١ ٥٠ ٣٠ ١ ٢، ١ ٢ ٣٠ ٩٠، ٢
١٠ ٥ ٣٠ ٢، ٥٠ ١ ٦٠٠ ٤. ٦ ٥٠٠ ٣٠ ١ ٥٠٠ ٣٠ ١ ٦، ٤٠ ١ ٥،
اّ ٣٠ ٧٠، ٣؛ ٩٠٠، ١٠٠٠ ٢٠٠ ٤٠ ٤٠٠ ٦، ٥ ١٠ ٨٠، ٣٠ ٩٠٠
١٠ ٦٠، ٣٠٠ ٤٠٠ ٨٠ ١٠، ٥٠ ٧٠، ٢٠٠ ٢٠ ٦، ٣٠ ٩٠٠ ٣٠
٣٠، ١ اّ ٨٠٠ ٨٠ ٣٠ ١، ٢٠ ٣٠ ١ ٥٠ ٥، ٥٠٠ ١٠ ٨، ٤ ١ ١٠
٦٠ اَ ٣٠ ١، ٣٠٠ ٦ ٢٠٠ ٧٠، ٢٠٠ ٩٠٠ ٤٠٠ ٥٠ ٤٠٠، ٥٠٠ ٣٠
١ ٥٠٠ ٣٠ ١، ٤ ٧٠ ٢، ٤٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٧٠ ٣٠. ١ ١٠ ٥٠ ١ ٢٠٠

٤٠٠ ٦٠، ٦ اَ، ١ ٥ ١ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠، ١ ٣٠، ١٠٠ ٢٠٠ ٨٠، ١ ٤٠، ٥٠ ١٠ ٢، ٢ ١ ٢٠٠ ٤٠٠، ١٠٠ ٦ ٢٠٠ ٨ ٤٠، ٢ ١ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦، ١٠٠ ٦ ٢٠٠ ٨ ٤٠، اّ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠، أْ ١ ٤٠ ٦٠ اَ ٣٠ ١، ٢٠ ٣٠ ١ ٥٠ ٥، ٤٠٠ ١٠٠ ٣٠ ١ ٧٠، ١٠ ٨٠، ٥٠ ٨٠٠ ٨، ٢ ١٠ ١٠٠٠ ٣٠ .١

٣ ٢٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٦٠، اً ٣٠ ٧٠ ٤٠٠ ٥٠ ٤٠، ٤٠ ١ ٤ ١٠٠ اَ، ٨ ١٠ ٢٠٠ ٣٠ ١، ٢٠٠ ٤ ١ ١٠٠٠ ٤٠٠، ١ ٧٠٠ ٥، ٢ ٢٠٠ ٤ ٣٠ ١، اّ ٣٠ إِ، ٢ ٢٠٠ ٤، ٢٠ أُ ٣٠ ٤٠ ٤٠٠، ٤٠٠ ٢٠٠ ٤ ١٠٠ ٣٠ ١، ٥ ١٠ .٨٠ اً ٤ ١٠ ٨ ٦، ٢٠ ١٠ ٣ ١ ٥٠ ٤٠٠ ٦٠، ٢٠ ١ ٥٠ .٥ ٥٠٠ ٢٠ ٤٠ ١،١ ٤٠، اّ ١٠ ٣٠ٍ، ٢٠ ٣٠ ٩٠٠ ٣٠، ٥٠ اَ، أْ ٥ ١ ٤٠ ٤٠٠ ١٠، ٥٠ ٧٠، ٣٠ ٢٠، ٣٠ ١ ٣٠ .٩٠٠ ١ ٥ ٤٠٠ ٩٠٠ ٨ ٣٠، ٥٠ ٦ ٢٠ ١٠ ٦٠، ٢٠ ٢ ٣٠ ١٠٠ ٣٠، ٥٠ اَ، ١٠ ٨٠٠ ٤٠ ١٠، ١٠ ٨٠، ٢ ٢٠٠ ٤، ٣ ١٠ ٦ ٤٠٠ ٤٠٠ ٣٠ .١ ٢٠ ٢ ٦ ٣ ٤٠٠ ٦٠، ١٠٠ ١ ٨٠ اّ، ٤٠٠ ١ ٧ ١ ٨٠ ٤٠ ٦، اّ ٤٠٠ ٣٠٠، اً ٥٠٠ ٨ ٢، ٥٠ ٧٠، ٢٠٠ ٨٠ ٦٠، ٩ ٦ ٩ ٦٠٠ ٤٠، ٧٠٠ ٥٠ ٤٠، أْ ٤ ٢ ٣٠ ١، ٥ ٣٠ ١٠٠ ١ ٥٠ ٤٠٠، ٢٠٠ ٣٠٠ ٢، ٣٠ ١ ٣٠ ٩٠٠ .٦ ٤ ٦ ٧٠ ٤٠٠ ٦٠، ٤ ١٠٠ ٦، ٢٠ ١٠٠ ٥ ٢٠٠ اَ، ٥٠٠ ٨ ٢ ٣٠ ١، ٣٠ ١٠٠ ٥٠٠ اَ ٦، ٢٠ ٣٠ ٥ ١ ٢٠، ٣٠ ١ ٨ ٢٠٠ ٤٠٠ ٣٠ ١، ٦ ٨٠ ١٠٠٠ ٤٠٠ ٣٠، ١٠ ٨٠، ٢٠٠ ٤ ٩٠، ٤٠٠ ١ ٤٠ ٣٠٢٠ ٣٠ .١ ١ ٥ ٤٠٠ ٩٠٠ ٨ ٣٠، ٤ ٦ ٧٠ ٤٠٠ ٦٠، ٢٠ ١٠٣٠ .١

٥٠ ١ ٣٠ ٦ ٨، ٤٠٠ ٥٠ اَ ٦، ٢٠ ٣٠ ١ ٥٠ ٥، ٣٠ ٤٠ ٢٠ ٤٠٠، ٢٠٠ ٦٠٠ اّ، ١ ٤٠، ٥ ٤٠٠ ٩ ٤٠٠ ٦٠٠ ١، ٢٠ ٣٠، ٢٠٠ ١ ٤ ١٠٠ اَ ٣٠ .١ ٢٠ ٤ ٦ ١٠٠ ١٠ ٦٠، أْ ١٠ ٣٠٠، ٢٠ ٥٠

٤٠، آ ٣٠ إِ، ٧٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٤٠، ٢٠ ٨٠ ٦ ٦٠٠، ٥٠٠ ١٠ ٨،
٣٠ ٩٠٠ ٣٠ ١، ٤٠ ١ ٥٠ ١٠، ٢٠ ١ ٥٠ .٥

١٠٠ ٤ ٨، ١٠ ٨٠، ٤٠٠ ٩ ٢٠٠ ١ ٦٠٠، ٣٠ ٩٠٠ ٣٠ .١
٨٠٠ ٤٠ ١٠٠٠ ١، ٢٠ ١ ًّ ٥٠ ١٠ .٧٠ ٧ ٢٠ ٢٠٠، ٣٠ ٢٠، ٢٠
١ ٦ ١٠٠/ ٢٠ ٣٠ ١ ٣٠ ٩٠٠، ١٠ ٢٠، آ ٦٠ ٥٠ .٤٠٠ ٤ ٢٠٠ ٣
٤٠٠ ٦، ٥٠ ٤٠، ٢٠ أْ ١ ٤٠ ٦٠ اَ، ٥٠ ٤٠، ٢٠ ٤٠ ١ ٣٠ ٨ اَ،
٥٠ ٤٠، ٢٠ ٦٠ ١ ٨٠ ٥٠ اَ، أْ ٣٠ إِ، ٢ ٨ ٣٠ ١، ٨٠٠ ٨ ٤٠ ٣٠
.١ ٢٠ ١ ٤ ١٠، ٥٠ إِ ٦، ٤٠٠ ٧ ٨، ٤٠٠ ٢٠٠ ٤ ١٠٠ ٣٠ ١،
٧٠ ٦ ٩، ٢٠ ١٠ ٤ ١٠، ١ ٣٠ إِ ٦، ٧٠ ١ ٨٠٠، ٢ ٢٠٠ ٤ ٣٠ ١،
٤٠٠ ١٠٠ ٦ ٩ ٦، ٤٠٠ ٥٠ ٧٠ ٣٠ ٣٠ ١، ٥٠ ٤٠، ٤٠٠ ٢ ٢ ٨
اَ. ١٠٠ ٢٠٠ ١٠٠٠ اَ، ١٠ ٨٠، ٤٠٠ ٤٠ ٣٠ ٩٠٠ ٣٠ ١، أْ ٦
٨٠٠ ٣٠ ١ ٨٠، ٤٠ ١٠ ٩٠ ٦٠٠، ٤٠٠ ١٠ أُ ٢٠٠ ٣٠ ١، ٢٠ ١
٢٠٠ ٤ إِ ٣٠ ١ .٦ ٣٠ ٤٠ اَ ٤٠٠، ٢٠ ٤٠٠ ٤ ٤٠، ٤٠٠ ٤٠ ٦
٣٠ ٧٠ ٤٠ ٣٠ ١، أْ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠، ٢٠ ٤٠ ٥ ٦، أْ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦،
٥ ٤٠٠ ٤٠ ٢٠ ٨، ٥٠ ٤٠، ٢٠ ٤ ٦ ١٠٠ ٤٠٠، ١٠ ٨٠، ٢ ٢٠٠ ٤
٣٠ ١، ٢٠ ٣٠ ١ ١٠ ٦٠٠ ٦/ ٢٠ ٤ ٦٠ ٣، ٨ ٣ ٢٠٠ اَ ٤٠٠ ١٠،
١٠ ٨٠، ٦ ٣ ٣٠ .١ ٢٠ ١ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠، ٤ ١٠٠ ٦، ٤٠٠ ٢٠٠
٢٠٠ ٢٠ ٤٠٠، أْ ٣٠ إِ، ٥٠ ١٠ ٣٠ ٩٠٠، ٥٠ ١٠ ٥٠ ٥٠٠ ١، ١
٣٠ ٨٠، ١٠ ٢٠٠ ٤ ٤٠٠، ١ ٥ ٤٠٠ ٩٠٠ ٨ ٣٠، ١ ٤٠ ٥ ١٠ اَ،
٤٠٠ ٥٠ اَ. ٢٠٠ ٧٠٠ ٨ ١، ٥٠ اَ، ٢٠ ٥٠ ٤٠٠ ٨٠ ١٠، ٣٠
٩٠٠ ٣٠ ١، ١٠ ٣٠ ٢٠ ٣٠ .١ ٥ ٣٠ ٢ ١ ١٠٠ ٤٠٠ .٦٠ ٢٠٠ ٦
٥٠٠ ١٠ ٦٠، ٨٠ ٦ ٦٠٠ ٣٠ ١، ٤٠ ٥٠٠ ١ ٣ ٣٠ ١، ١٠ ٨٠، ٢٠
١ ًّ ٥٠ ١٠ .٧٠ ٢٠ ًّ ٨ ٤٠٠، ٤٠ ٦٠ ١ ٣٠ ١، ٥٠ ١ ًّ ٨ ٤٠٠،
٤٠٠ ٩٠٠ ٨ ٣٠، ٥٠ اَ، ٤ ٤٠٠ ٤٠ ١٠، ٣٠ ٩٠٠ ٣٠ ١، ١٠ ٦ ٩

١٠ ٣٠، ٣٠ ٢٠، ٣٠ ١ ٣٠ .٩٠٠ ١ ٣٠، ٢٠ ٧٠ ٤ ٦٠٠ ٤٠٠، ٤٠٠ ٦ ٩ ٦٠ ٣٠ ١، ١٠ ٨٠، ٤٠٠ ٢٠٠ ٨٠٠ ٨، ٢٠٠ ٦٠٠ آ، ٣٠ .٩ ٢٠٠ ٦٠٠ آ، ٣٠ ٩، ٥ ٤٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠، ٣٠ ٩٠٠ ٢، ٢٠٠ ٦٠٠ آ، ٢٠ ١٠ ٨٠، ٥٠ ٢٠ ٤٠٠ ٣٠ ٦، ٤٠٠ ٢٠٠ ٨٠٠ ٨ ٣٠ ١، ٤٠٠ ٥٠ أَ».

* * *

أيّ إحساس مفرغ وشعور عقيم يمكن أن تمنحه هذي الأرقام لإنسان عابر، غير مسكون بها، أو لا تهمّه في شيء؟! أمّا لمن هو مثلي فقد جعلت الأرض تمور من حوله. صوت أبي لا يزال حضورًا طاغيًا، وكلّما أعاد قراءة تلك الأرقام، شعرت كأنّي أتحرّر. أتحرّر ممّاذا؟! سبق أن قلت مرارًا: لا أدري!

القراءة للمرّة العاشرة ربّما، ولا أقرأ شيئًا. أيّ شيفرة هذه يريد اختباري بها؟!

أعتقد أنّه ـ دام ظلّه ـ يرغب في ذلك الاختبار لسبب في نفسه. إنّه استقراء لا بدّ منه للتأكّد من كوني أنا.

أنا على يقين من أنّ فكّ شيفرة كهذه ليس بالأمر الهيّن، كما أنّه ليس بذلك التعقيد الذي يُعجز شخصًا مثلي. أظنّني بحاجة إلى بعض الإمعان فقط. ربّما القليل من الوقوف مع تلك المقدّمة قد يفضي بي إلى شيء.

التغيّر الرابع

الكشف

يقولون إنّ أصعب المسائل وأكثرها تعقيدًا هي تلك التي تكون مفاتيح حلولها نصب أعيننا. وما دامت المهلة لا تتجاوز الثامنة مساءً، فلا بدّ أن يكون الحلّ قريبًا منّي، أي أنّ بإمكاني التوصّل سريعًا لحلّ الشيفرة. وإذن لكلّ حدث حديث.

قرأت المقدّمة (بصوتي أنا هذه المرّة، كأنَّ صوت أبي قد تلاشى، أو أنّه غادرني بعد أن اطمأنّ إلى ذلك التحرر). قرأت مرة أخرى، وأخرى، وأنا أمعن تفكيري ذارعًا الغرفة جيئةً وذهابًا، محللاً كلّ شاردة وواردة. وإذا بفكرة تجتاحني على حين صمت، مكنتني من وضع قدمي في بداية الطريق.

هذا الاستهلال الذي نجده في معظم كتبنا القديمة سأتجاوزه، وسأبدأ من حيث ينتهي. لا شكّ أنّ الأرقام هنا تودّ أن تكون معنًى ما. الأرقام ليست اللغة ـ إن جاز لنا تسميتها كذلك ـ التي نعرفها والمنسوخة بها هذه الكتب، وهذا الكتاب تحديدًا. وإذن لا بدّ من كشف المعنى الذي تتضمّنه، ومعرفة ما يقابلها من الكلمات. الكلمات

أحرف، والأحرف هي اللغة. إذن يتوجّب عليَّ اكتشاف الطريقة التي يمكن بها لمثل معلّمي وضع المعاني في أرقام. وهو بهذا محدود الخيارات. فرغم سعة علمه، لا بدّ أنّه اختار طريقة يمكن لمثلي استيعابها وإدراكها. أدركتُ حينها أنّ عليَّ ـ للتوصّل إلى الحلّ بشكل أسرع ـ أن أمسك الحبل من آخره ثم تتبّعه. سأجد أنّ طريقة علّمنيها شيخي قد تكون هي الأنسب. إنّها تلك التي يستخدمها المنجّمون، وهي طريقة شائعة وسهلة، وإن كانت ضعيفة وغير موثوق بها، وكثيرًا ما تستخدم في معرفة البروج الفرعيّة. ليس هذا ما يهمّنا. فالمهمّ هو طريقة حسابها وربطها بتلك الأرقام، وذلك ما سأتبيّنه في الآتي:

أوّلاً: إعادة الحروف الهجائيّة العربيّة الثمانية والعشرين إلى ترتيبها الأبجدي القديم والمنسوبة إليه تسمية تلك الحروف بالأبجديّة (أبجد هوّز حطّي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ).

ثانيًا: تحديد قيمة عدديّة لكلّ حرف حسب ترتيبه الأبجدي؛ فتأخذ أوّلُ عشرة أحرف، ابتداءً بالألف وانتهاءً بالياء، القيم الأوّليّة من الواحد إلى العشرة. تليها التسعة الأحرف التي تبدأ بالكاف وتنتهي بالقاف، لتأخذ من القيم مضاعفات العشرة من العشرين إلى المائة، أمّا التسعة الأحرف الأخيرة فتأخذ قيمًا من مضاعفات المائة تبتدئ بالمائتين وتنتهي بالألف. ويمكن إيضاح الحروف وقيمها العدديّة كما يلي:

أ	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ي
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10
ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	

20	30	40	50	60	70	80	90	100	
ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ	
200	300	400	500	600	700	800	900	1000	

هكذا يمكننا استبدال كلّ قيمة عدديّة بالحرف الذي يقابلها.

كم كان فرحي وأنا أعود إلى مقدّمة الكتيّب، التي تتحدّث عن أنجم وحروف، وعن الرقم الحرف. تأكّدت من صحّة الفرضيّة وأنا أطبّقها على بعض الأرقام؛ فلم تخرج عن قيم الحروف المؤبجدة. هذا بالإضافة إلى قيام معلّمي باستخدام علامات التشكيل، وإن كان أغلبها للرقم واحد الممثّل لحرف الألف والذي يمثّل عقبة أمام هذه الطريقة لتعدد همزاته بحسب وضعها في الكلمة (١، ا ـ اَ، أ ـ اِ، إ ـ اُ، ؤ ـ اْ، ئ، ء ـ آ، ى)، كما فصل بين ما يبدو أنّها أرقام تخصّ كلّ كلمة عمّا ما يليها بفاصلة (،).

كان يبدو أنّ الإبهام يعتري كلّ الكلمات التي طبّقت عليها هذه الطريقة، رغم أنّني كنت قد تأكّدت من صحّتها. قرّرت تحويل كلّ ما بداخل الكتيّب إلى أحرف ومن ثم أبحث عن حلّ لهذا الغموض. استغرقت عمليّة التحويل ما يقارب الثلاث ساعات، ولولا معرفتي السابقة بتلك الطريقة لاستغرقت وقتًا أطول بكثير. تحوّلت تلك الأرقام كما يلي:

«ي ف، ج و أ، ة م ل ظ ل ا، ق ث ب ن ي، ر و ن ل ا، ض

م و ي ل، ن م، ق ا م ع أ، ف ه ك ل ا. ث ي ح و، ر ب ك ت
س، ك ت خ ر ص، ى ل و أ ل ا، ك لّ د ي و، ك ب ل ق، ك ا ذ،
ك د ر ش ت، م و ت ح م ل ا.

ا ه، ت ن أ، ن آ ل ا، د ق و، ت ل ع ش أ، زغ ل ل ا، أ د ب
ت س، ك ت ظ ح ل، ى ل و أ ل ا، ك ع و ض ت س، ح و ر، ي
ت ر ي غ ص، ء ا ن س ح ل ا، ا ه ث ع ب ت س، ق ا م ع أ، ك
ن م، ق ا م ع أ و، ا ه ن م. ر ذ ح ا ف، ن أ، ا ه قَ شُ ن ت! ا ذ
ه،ق ب ع، ض ر أ ل ا، ى ث ن أ ل ا، ا ل، ر ي غ!

ر ذ ح ا، ن أ، ر ظ ن ت، ي ف، ء ي ش ا ل ل ا، ك ر ج ه
ت ف، ء ا ي ش أ ل ا. ى ل وْ أ، ن أ، ر ظ ن ت، ا ه يَّ ن ي ع،
ى ت ح، ع ط س ي، ل ظ، ض ح م، ن م، ا م ك ق ا م ع أ.

أ ب خ م ل ا، س و ر ح م، ل ظ ل ا ب. ا ن أ، ا ن أ و، ك ا
ذ، ل ظ ل ا، اً ب و ل ص م، ذ ن م، ر و ه د، ل أ س ي، ن م، ا
و ج ل و، ر ا ن ل ا، ا ل ب، ل ظ: ف ي ك، ه و س ن، ا ل ب،
دٍ س ج، ا ه ج ر ا خ؟

ن ا ر و غ ت س، ه ي ل إ، د ق و، نَّ جَ، ل ي ل ل ا. ا ه ت
ظ ح ل و، ا ل، ء ي ش، ى و س، ن أ، ع ب ت ت، س م ش، ا ه
ت ر ي ص ب. ق ا م ع أ، ئ ب ن ت، ن ع، ل و ه ج م، س ي
ل، م ا ر ي، ن ع، ر س، ن و ن ك م، ي ف، ن ك ر، ن م، ي ذ
ه، ض ر أ ل ا، ة ن و ك س م ل ا، ت و م ل ا ب. و ه، ى ل و أ،
ن أ، ه ع د و ت، ك ي ب ن ج، ا ل إ و، ه ت ق ر س، ة م ل ظ ل
ا، ك ن م، ا م ك، ا ن ت ق ر س.

ا ي، ل ه أ، ب ر د ل ا، ل ه أ، ق و ش ل ا، ل ه أ، ة ر ض

ح ل ا! ا و د م، ة ح ن ج أ، ح ف ص ل ا، ى ل إ، ي ح و ر، ي ن و ر ذ و، ي ف، ة ق و ر أ، ن ا ي س ن ل ا، ي ن غ رّ م أ، ا ل ي ك، ي ن ي س ن ي، ا ذ ه، ن س و ل ا، م ئ ا غ ل ا، ي ف، يَّ ن ي ع، ن أ، م ك د ه ش أ، ي ن أ، ن آ ل ا، ت و م أ، د ق و، ت ي د أ، م ك ت ن ا م أ!...

الساعة تقترب من الرابعة عصرًا. لقد انتهيت من كتابة تلك الحروف. أعدت قراءتها بتأنٍّ وتدقيق. وبقدر ما كنت قد أحسست بقرب الحلّ من متناول يدي، أحسست باستغلاقه. فحين قرأتها اعتمادًا على ما توصّلت إليه، لم أكد أفهم منها شيئًا. مجرّد أحرف لا تؤدّي إلى شيء. أعدت قراءتها وقراءة المقدّمة، بل ورسالة الحفيدة، عدّة مرّات، دون جدوى. قرّرت على سبيل الاستراحة، الذهاب للحمّام لقضاء الحاجة والوضوء لصلاة العصر، مع أنّ موعدها كان قد مضى عليه الكثير. أسبغت وضوئي وهممت بالخروج حين التفتُّ إلى مرآة على الجدار المحاذي للباب، لم ألتفت إليها قبلاً؛ حتى هذه المرّة، كأنّها هي التفتتْ إليَّ. أمعنتُ النظر إلى وجهي، الذي لم أره منذ ذلك الموقف الغريب في السيّارة. وإذا بي، أو بالأصحّ، إذا بالحلّ يدركني. حقًّا لقد كان نصب عينيَّ!

هل يمكن أن يكون بهذا القدر من البساطة؟! الآن تجلّى كلّ تلك العبارات المبهمة في مقدّمة الكتيّب. ألم يقل: «وستدرك حتمًا فحوى السرّ النائم بالمقلوب هنالك بين يديك؟!».

وإذن، كانت الأرقام/ الحروف مرتّبة عكسيًّا، أي أنّ كلّ كلمة تُقرأ من الحرف الأخير.

التغيّر الخامس

المتن

تركت أمر الصلاة جانبًا واندفعت في الأحرف التي كنت قد انتهيت منها، لأراها الآن كلمات تتجلّى. عكفت على النصّ أدوّنه كاملاً:

«في أوج الظلمة ينبثق النور ليومض من أعماق الكهف. وحيث ستكبر صرختُك الأولى ويدلّلك قلبك، ذاك تشرّدك المحتوم.

ها أنت الآن، وقد أشعلت اللغز، ستبدأ لحظتك الأولى. ستضوعك روح صغيرتي الحسناء. ستبعثها أعماق منك وأعماق منها. فاحذر أن تنشُقَها! هذا عبق الأرض الأنثى لا غير! احذر أن تنظر في اللّاشيء فتهجرك الأشياء. أَوْلى أن تنظر عينيها حتى يسطع ظلّ محض من أعماقكما.

المخبأ محروس بالظلّ. أنا وأنا ذاك الظلّ، مصلوبًا منذ دهور يسأل من ولجوا النار بلا ظلّ: كيف نسوه بلا جسدٍ خارجها؟

ستغوران إليه وقد جَنَّ الليل. ولحظتها لا شيء سوى أن تتبع شمس بصيرتها. أعماق تنبئ عن مجهول ليس يرام، عن سرّ مكنون في

ركن من هذي الأرض المسكونة بالموت. هو أولى أن تودعه جنبيك وإلّا سرقته الظلمة منك كما سرقتنا.

يا أهل الدرب، أهل الشوق، أهل الحضرة! مدّوا أجنحة الصفح إلى روحي وذروني في أروقة النسيان أمرّغني، كيلا ينسيني هذا الوسن الغائم في عينيَّ أن أشهدكم أنّي الآن أموت وقد أدّيت أمانتكم!

خذ ما في صمتي من ومضات تبعثها كتب أسكنها ظلًّا عن ظلّ، أسلافًا عن أسلاف. هي منذ الآن ستسكنها. ستشدّان الخطو إلى ركن مخفي من مقبرة الروح/ الظلّ، ومن محراب الريح/ الظلمة. هي لحظة يرخي الظلّ مداه، والفجر يعانق هيكله ويعرّي شبح الليل.

شمس زرقاء بكامل سطوتها ستلامس روح العتمة، وتقبّل جبهة من فاقتها شمسًا. قابل شمسيك، سينبئ ضوؤهما عن شيء وثلاثة أشهاد، عن أوسطها أجْلُ أصداء النسيان. أسفل منك وأعلى منك ستحفر. لا تستفتِ الظلمة والأنوار. استفتِ يديك!

ستغوران إلى ما يشبه غورًا آخر. لا أنفاس هناك لشيء. لا تسأل أين الدرب! لا تتركها تتخبط في ظلمتها. وابعث من نفسك ما يجلو الخوف. ستمضي حيث تنام ثلاثة أجساد/ أرواح: اثنين بلا شكل حُرِقا بالنار، صلبا بالخوف، بلهيب ودخان. والثالث هام على ظلٍّ وتمرغ فيه، سيظل يفتش عن وكر للظل الفضيّ هنالك حيث الأسياد عروش تنتظر الثالث بعد العشرة. ستراني أو ستراها، لا فرق، ما بين تراب محروق وتراب محروق، سترى الأسماء هنالك عالقة في حضن الغيب.

ستخرج منتعلاً أقدام الريح، تغادر هذا الدرب إلى درب تملؤك القدرة فيه. وحيدًا ستناجيك هناك. أمكث ما شِيء لظلّك أن يتماهى عن كلّ ظلال. لحظتها سيكون لقلبك أن يمضي في درب التتويج. ستجوبك

آفاق ومفازات شتّى بحثًا عن سفر مخطوط منذ البدء تناقله بشر وظلال. ستعود وقد أرهقك البحث وأثقل كاهلك الترحال، لتغفو في صدر الكلمات الأولى. لحظتها ستعود إليك.

حولان وأنت هنالك، تكمل آخر ما اختطّته لك الأقدار. سيقودك شيءٌ منك إلى مرتع خوفك، حيث الظلّ ينام هناك.

حدّق في خارطة الظلّ. أغمض عينيك. ركّز كلّ قواك/ ظلالك كي تنسى. وتجرّد من أسمائك، من أحلامك، من أنفاسك، إلّا الحبّ المحض. يداك وإن حزّت القدرة طوع يديك، وإلّا ضاع الدرب وطوّقت اللعنة من أحببت. اغرق في الظلمة، فالضوء خصيم الرؤية والإدراك. تأمّل مدّتك المعلومة، سترى وهمك، سترى حكمته من ستقودك في الدرب، وخيالك/ جسدك يتأرجح في الجوّ. ستراك وقد تكرّرت إلى ظلّين اثنين؛ فلا تدري لحظتها أيّهما أنت. احذر أن يفتنك الظلّ الكلّي. ستقابله. سيثور الخوف الجاثم في عينيك. تحرّ الاسم، تحيّن لحظة أن يمتدّ الظلّ ليطوي كلّ ظلال. لا تخدعك السطوة في حضرة آخر ظلّ. آخر ظلّ شتّته بظلّ آخر فيك، ولتكن الحضرة أنت».

أعدتُ قراءة النصّ مرّتين وثلاثًا، مستغرقًا في تفكير طويل، أحاول أن أصل إلى مكنون الكلمات. هصرني الجوع. تناولت بضع لقيمات اقتحمت معدتي، لتقتحم ذهني أطياف ووجوه شتّى، عائثة فيه: صورتي في ثوب الرعي، رفيقي جسدًا متفحّمًا، قطط وشياه وكلاب تذوي دون رحمة بين يدي، ملامح رعب مرتسمة على وجوه أطفال يوقعهم حظّهم العاثر في براثن ظلّي، وجوه نساء وصبايا أقتحمهنّ وأنشب رغباتي في أرجائهنّ، وجه زوجة شيخي يومض متّقدًا بالشهوة، وجها أمّي وأبي يستغرقان، وجوه كثيرة أخرى لا أتبيّن لمن تكون، ووجه زوجتي يطغى على كلّ شيء، صوتها ودودًا صدوقًا كعهدي به (لا تخدش معنى الحبّ

بقلبي! لا تسرق قلبًا هو لسواك!).

انتفضتُ واقفًا من الفزع وأنا أدرك ألمًا لم أشعر بمثله من قبل. أغمضت عينيَّ. لا أدري هل كلّ ما مرّ بي حقيقة أم مُجرّد وهم؟! هل أنا ذلك الذي كنته، أم ذلك الذي أصبحته؟! أم أنّني آخر لم يكن ولم يصبح، آخر يحاول فقط إدراك من هو؟! كنت كمن أُصيب فجأة بفقدان ذاكرة، فوجد نفسه حياةً أخرى لم تكن منه في شيء. كأنَّ أهمّ طور تغييري في حياتي كان يحدث للتوّ. أحسبني وقد جافتني الكثير من الرغبات التي كنتها. غمرني إحساس بالعزوف عن كلّ تلك التي كنت أحسبها ملذّات. كنت كأنّ عليَّ أن أزيل كلّ تلك الندوب العالقة بي. كأنَّ عليَّ أن أقسم بأغلظها ألّا أتمرّغ بفراش آخر، وألّا تسكنني تلك القسوة والغلظة واللامبالاة التي كنت أسكنها، وألّا... وألّا... وألّا...

أحسست ببعض من تحرّر أزاح عنّي أكثر ما جثم من جاثم. كأنّما عادت نفسي إليَّ. فتحت عينيَّ وقرأت النصّ مرّة أخرى؛ كانت الأخيرة. عندها بدأ الكثير من الغموض يتجلّى متزاحمًا في الوضوح. تفسيرات وتأويلات لم يكن لي أن أبلغها. كأنّه انبثاق، كان. فإذا الصورة تتكشّف. وإذا أنا يتكوّن لديَّ ما يمكنني من مقابلة الشيخة. ثم كأنّني شعرت بالاختناق، فاتّجهت صوب النافذة أستنشق بعض هواء. كان الأفق محتقنًا بأطياف شمس قانية أوشكت على التلاشي. بدا اختناقًا لا علاقة له بالهواء. عدت إلى مكاني. أذان المغرب يصدح في سكون القرية فيشعر النفس بغروب آخر، أو أنّه رحيل آخر. نهضت لا أعي إلّا ذلك الذي أقوله في قرارة نفسي: «لا شكّ أنّني سأبلي حسنًا. لا شكّ في ذلك. نعم، لا شكّ». ردّدت ذلك كأنّما أنا الشكّ بعينه، أو هو كلّ ما كان يسكنني. كلّ شيء هنا كان وكأنّه.

فتحتُ باب الغرفة ليكون أوّل وجه أقابله وجه ذاك الصبي القنفذي ينتظرني بعينين أدمَعَهما التثاؤب. اقتادني إلى المسجد، كأنّه أراد أن ينتهي من مهمّة أضجرته، لألحق بصاحبيَّ اللذين سبقاني إلى هناك. أدّينا الصلاة، فانزويت في ركن ألملم شتات أفكاري. صاحباي يسترقان إليَّ نظرات وأخرى، لا تنضحان إلّا بالفضول. رحت في سريرتي أتعجّل صلاة العشاء متمنّيًا عليها (سريرتي) بعض سكينة ستحظى بها فور أن أنتهي من أمر هذي المقابلة. ها نحن أخيرًا نؤدّي الصلاة، بل وها أنا أؤدّيها كيفما اتّفق. ما كدنا ننتهي حتى انطلقنا، باستثناء الصبي، لمقابلة تلك المتلهّف للقائها والخاشي منها، تلك التي كَنَّاها جدّها بـ «صغيرتي الحسناء». ترى كيف هو ذاك الحُسْن لمن في مقام شيختي، ولمن في مثل سنّها الآن؟!

كانت على جمر الانتظار؛ خشيَتُها من ألّا أكون من تنتظره كان أوّل ما صدمني من ملامحها؛ لا لشيء إلّا لكونها تودّ أن تنفض عنها هذا الشاغل المسيطر، والذي من أجله تخلّت عن كلّ شيء. كلّ ما كان يمكن أن تقوم به في حياتها منقضٍ أو أنّه مؤجّل؛ ربّما ريثما تنتهي من نفسها. كانت تفكّر أنّ بإمكانها ـ حال انتهائها ـ القيام بالشيء الكثير؛ الكثير حدّ اللاشيء. هذا ما أدركه الآن، والآن فقط.

استقبلتنا في ذلك الفناء الذي استُقبل فيه شيخي. هكذا عشت الموقف. تقدّمتنا حتى الديوان، حيث كان مُقامه. حالما تموضعنا انصرفت لتفي بمقتضيات الضيافة. كان جليًّا عدم إعارتها زوجها أيّ اهتمام. بدا وكأنّه لا يقلّ عنّا غربة هنا، وكأن ليس من صلة تربطهما. الأغرب من ذلك عدم ظهور ما يشي بأيّ استهجان أو استياء من قبله. كان واضحًا أنّهما قد ارتضيا أن يتعاملا هكذا. إنّما كنت على يقين من أنّ خلف طبقة الجليد تلك المغلّفة لوجهيهما بركانًا يتلظّى.

أذهلتني. ها هي ذي تدخل علينا سافرة الوجه، بعد أن أزاحت عنه النقاب؛ ذلك الذي يجعل من المرأة شبحًا تتكرّر نُسَخُه إلى ما لا نهاية. مرآها تدخل جعلني موقنًا من أنّ لقب «الحسناء» ذاك لا شيء أمام ما أراه. كانت، رغم اقترابها من الستّين، آية حسن وجمال لا نظير لها. هذا ما قالته عيناي. إنّه لشيء مفزع أن يتمكّن البصر أحيانًا من استلابنا والسيطرة على باقي حواسنا وأحاسيسنا.

الجمال مفزع مروع، موحش متوحّش، وحش يفترس ويثير الفزع. لا أدري لماذا كلّما أردنا أن نتحدّث عن الجمال، أيّ جمال، لا نجد من الألفاظ إلّا ما يشي بالقبح. ربّما هو الخوف من أن يستلبنا ذلك الجمال، ليس إلّا!

إنّ إدراكنا للجمال وردّ فعلنا إزاءه غاية في القبح. هذا وإنّ كثيرًا منه قد يصيب النفس بالملل إن هي أمعنت فيه، أو كان هو الممعن. لكن جمالها كان من ذلك النوع الذي كلّما أُمعنت النظر فيه ازداد جمالاً.

آه كم آسى لمن سلبهم القدر هذه الحاسّة المدهشة: البصر! أعتقد، بل أكاد أجزم، أنّهم يفقدون ثلاثة أرباع الشعور الغامض والرائع الذي نلهث وراءه دومًا، والذي اتّفق على تسميته بالمتعة. وآه كم أقدّر القدرة والإرادة الفائقتين اللتين يتحلّى بهما هؤلاء المكفوفون، وهم يختلّقون متعهم من أعماق دياجير دائمة، فكيف بمن نبغ وتميّز منهم، واجترح ما لا يجترحه الراؤون! أعتقد أنّ أقلّ ما يمكن أن نكونه معهم هو ذلك الإجلال حدّ التقديس.

كان أن دارت تقدّم لكلّ منّا كوب عصير، ولتتّخذ لها مكانًا قبالتي، تتفرّس فيّ حدًّا أحسست معه بالارتباك الشديد؛ خصوصًا أنّ زوجها كان وكأنّه يسلّط كلّ حواسّه علينا.

لا أدري! هل أشعر أنّ نظراتها لم تكن بريئة!؟ إنّها نظرات أنثى في ذروة الشبق.

* * *

الأجسام الشفّافة أجسام سُلبت منها ظلالها بطريقة أو بأخرى. إنّها ساحات معارك ضارية بين ظلال وظلال، التقت ملتحمة فتفانت، لتتحوّل الأجساد إلى ظلال. ومثلما هو نفي النفي إثبات، فإنّ ظلّ الظلّ محض جسم؛ إنّما ليس أيّ جسم، ولكن جسم شفّاف؛ وبصيغة أخرى: جسم لا ظلّ له؛ إذ إنّ تلك الأجسام، بدلاً من أن تمتصّ الأضواء المسلّطة عليها أو تعكسها، تنفّذها من خلالها. وإذن هي أجسام جدباء، فقدت أيّ رغبة في الظهور أو التشكّل، وتخلّت عن وظيفتها كيانًا، تاركة الأضواء تنفذ من خلالها، قدر تخلّيها عن ظلّها. وبالتالي فهي في حكم غير الموجود، وإن كانت موجودة.

تناقض من انشداه وخجل، من رغبة في الإمعان والغض، في الشغف بها والتعفّف.

لأوّل مرّة منذ ارتدتني المراهقة، والتي لا أدري متى كانت لتغادرني، أو ما هي تلك السنّ التي يمكن معها أن أقول إنّني لم أعدها؛ فلا أظنّ المراهقة محكومة بسنّ، بقدر ما هي محكومة برغبة؛ أقول: لأوّل مرّة تشعرني امرأة بكلّ هذا القدر من الارتباك. كانت جريئة وشغوفة حدّ الشرود، فما كان من الحيرة إلّا أن أنشبت أظافرها فيّ وبقسوة. ألفيتُني عاجزًا عن فعل شيء، فآثرتُ الصمت، متّخذًا من نقطة ما على الأرض، كأنّها الفراغ، ملاذًا لعينيَّ؛ هو ذلك الفراغ الذي يلوذ به من كان في مثل ما أنا فيه.

تبدو أصغر من سنّها بكثير. وإذا كان لا بدّ من وصفها فإنّها: فارعة، رشيقة، لدنة، خمريّة، عنقاء جيدٍ، ناهضة كفل ونهدين، شامخة

عرنين، ساهية طرف، عذبة مبسم، مكتنزة شفتين، لؤلئيّة أسنان، ملتفّة رمشين، نونيّة حاجبين، خدّان تفّاحتان، جبين أصلت، وبطن مطوي. . . كلّ هذه الأوصاف (السمجة) التي تجدها كثيرًا في كتب العاشقين ومدوّناتهم أسردها هنا بوقاحة. لكنّني في الحقيقة مهما أطنبت فلن أقول عنها ذلك الذي قالته عيناي. وهل باستطاعة الكلمات، مهما كانت بلاغتها، مجاراة ما تقوله العيون؟! ها أنا بكلّ وصفي ذاك أتلذّذ، رغم فراقنا الطويل، ورغم إحساسي باحتجاج القارئ؛ إنّما ما شأني باحتجاجه أو بقبوله؟! إن هو إلّا عابر، وإن هي إلّا إحدى المتع القليلة المتبقّية لي في هذه الحياة: أن أصف.

يا إلٰهي! كيف لامرأة بهذه الدهشة البقاء في مكان مقفر كهذا؟! ليت أنَّ لي يدًا على الزمان!!

وكزني صاحبي، الجالس إلى جواري، أو حيث كان؛ فلم يكن من شيء يجاورني سواها. خرجتُ من استغراقي إلى استغراق آخر، هامًّا بالكلام، لتسكتني بنظرة، لها ذلك الأسلوب القاطع للجمال: «ليس قبل أن نتناول طعام العشاء». ثم إنّها نهضت مشيرة لزوجها بأن يتبعها، لأرى الفرح يبشّ به وقد أعارته اهتمامها أخيرًا.

استعدتُ ما اعتزمتُه من رباطة جأش. لا يمكن أن أقع بين براثن جمالها! حسبي ما كان من أمري مع امرأة شيخي. لن أخلَّ بالعهد الذي قطعتُه، وإن كنت لا أدري لمن، ربّما لتلك التي هي عوذي كلّما شقّ قلبي طريقًا إلى اليأس! سأرحل حالما أنهي مهمّتي! سأفرّ إليها!

كان العشاء موعدًا لانكسار جزء كبير من حالة الارتباك التي تملّكتني؛ فبفضل الحركة السائدة، وخصوصًا اليدين، وهما من أكثر أعضاء الجسد ثقلاً على المرء عند الارتباك، شعرت بشيء من حرّيّة وأنا أنقلهما هنا وهناك. هذا بالإضافة إلى جوّ مرح أضفاه صاحبي بتعليقاته

الطريفة، ما جعلنا نستغرق في الضحك، وإن كان ضحكًا مشوبًا ببعض من تحفظ، إلّا أنّها كانت المرّة الأولى التي أضحك فيها من الأعماق، منذ تلك العشيّة التي أخذت والدي.

قادتني إلى غرفة صغيرة، مشيرة لزوجها وصاحبي بالانتظار في غرفة الاستقبال ريثما ننهي حديثنا. أحسست بالخوف حين جال بخاطري أنّا سنكون وحدنا. سأركّز كلّ قدراتي وحواسّي على تجاهلها، على الأقلّ تحييد مشاعري، عازمًا على عدم الخضوع لسيطرة جمالها المدهش. كان شيء خفي يدفعني نحوها ويجذبني إليها، ولم يكن لي من خيار سوى أن أزيحها عن تفكيري ولو موقّتًا. سأعتبرها غير موجودة، رغم صعوبة ذلك. وحين تكون وطأتها شديدة عليَّ، سأغمض عينيَّ متذكّرًا زوجتي. عندها... لكن عندها قد لا أتمكّن من الإفلات. لا أدري لماذا أحسست بتقارب زوجتي وشيختي، لكأنّهما توأم «سيامي»، بالرّغم من كلّ ذلك الاختلاف في شكليهما. يبدو أنّه تشابه آخر أقرب من أيّ تشابه.

أحسست أنّها تقرأ كلّ ما يدور في ذهني؛ لأنّها ابتسمت، بزهو وبدت على وجهها علامات الخجل.

قد يستغرب البعض خوضًا كهذا وبكلّ هذه التفاصيل؛ ولكنّني أشعر بأنّ كلّ ما حدث أو أحسست به أو أتذكّره من أمر مخاوفي تلك، له علاقته بهذا الغموض الذي أخوض غماره؛ ولذا أوردها كيفما كان وكيفما اتّفق. أشعر الآن بأنّ كلّ ما حدث في ذلك اليوم لا علاقة له بالصدف؛ حتى مشاعري.

جلسنا متقابلين، كما كنّا قبيل العشاء في غرفة الاستقبال. صحيح أنّي كنت قد انتهيت من فكّ الشيفرة؛ إلّا أنّي لم أكن أدري إلى أيّ شيء انتهيت. شعورٌ ما يقول لي إنّ مرحلة حاسمة وأكثر صعوبة وأهمّيّة ستبدأ

الآن. ها أنا، وقد ناولتها كلّ ذاك مرتبكًا كتلميذ يناول معلّمه فرضًا ليس متأكّدًا من صحّته، أراها تشرق تارة وتخبو أخرى، منكبّة على ما بين يديها، فلا أستطيع إلّا أن أشرق كما تشرق وأخبو كما تخبو. يا لها من لحظة تلك التي تنتظر فيها من أحد أن يحدّد مصيرك أو جزءًا منه! كم من التوسّل والرجاء يعتري عينيك لهذا الـ «أمامك»، لا يلحظك! ولحظة أن يلتفت تحاولان أن تشعراه بعدم إيلاء الأمر أيّة أهمّيّة منهما. إنّما لم يكن ثمّة آخر ها هنا؛ فالأمر متعلّق بنا معًا، بل وبمجمل حياتينا. وإذن، لسنا واحدًا وآخر، بل نحن واحد لا سوانا.

ها هي تنتهي لتبدأ من جديد، ولتقرأ بصوت كأنّه الغناء. يا إلٰهي! كم لصوت المرأة من بوح وسخاء ووحي! كانت كلّ كلمة وهي تقرؤها تضيء في قلبي عتمة ما، حتى إذا ما انتهت كان ذلك القلب قد امتلأ بكلّ الكلمات/ الضوء.

أعادته لي بأن حان هذا الذي لا بدّ منه: استجلاء ذاك الغامض أو اللغز أو الأحجية، أو أيًّا ما شئتم تسميته، أمّا أنا فلي الحقّ في أن أسمّيه «المتن». «المتن»، ذلك الذي أنا وحدي من حالفه الحظّ في سبر غوره والامتلاء به. هو الدليل والموجّه لما يتوجّب عليَّ فعله من حلم.

إنّما هل ثمّة حاجة لأن أتوقّف عنده أكثر، معيدًا قراءته؟! إذن فليرمِ بي حيث شاء.

رأيت وجهها يزدهي بهاءً ونورًا. لكأن كلّ ما كان من خوفي ذاك قد امتزج في هذا الضوء ليتحوّل إلى يقين، بل إلى حالة من الوجد لا يرقى إليها حتى أولئك الذاهلون في التلاشي.

أحنّ إلى الصمت، فلا يعذرني إن مرّ بقربي هذا الصمت ولم أسمعه.

لم أكن أرجو شيئًا من ذلك الصمت ونحن مستغرقان فيه، سوى بعض من أنفاس تصغي!

أيّها الصمت! يا سيّد الكلام! ها أنت تقول ما لا تستطيع كلمات العالم بأكملها أن تعيَه.

بابتسامة ساحرة نهضتْ إلى جواري، كأنّما تودّ مكافأتي على ما التزمتُ من صمت. حرارة جسدها المتوقّد تلسعني. رغبة كاسحة تصاعدت حتى رأسي.

إنّه لمن المؤسف أن نقمع رغباتنا بادّعاء الفضيلة. أكلّما دهمتنا الرغبة التمسنا المنطق أعذارًا؟! أم أنّ كلّ خطيئة اقترفت كانت في ذهن صاحبها منطقًا؟!

سكنني الارتباك وقد أوشكتْ الرغبة أن تستحوذ عليَّ. لم تنفعني كلّ احترازاتي السابقة. كانت المرأة/ الرغبة، لم أدر أيّهما، وإن كنت أعرف الآن أنّها الرغبة لا سواها تتناول إحدى يديَّ جائسة بها بعض أجزاء منها مثيرة. أحسستُني مستسلمًا، بل منجذبًا. طويتها بين ذراعي. أدنيت فمي من فمها. وإذا بالباب يقرع فجأة. انتفضنا جسدين، قبل أن تهبّ واقفة بانزعاج لتفتح. كان زوجها القلق من طول بقائنا منفردين. أشَكَرْتُهُ حينها في سرّي لتدخّله في الوقت المناسب أم لعنتُه؟! كان العرق يغشانا، لكأنّنا انتهينا للتوّ من ذلك العاصف فينا.

أدرك أنّني أمام نصّ متشعّب واسع الدلالات، وإن كان ـ في جزء هامّ منه ـ لغزًا كان عليَّ اجتيازه وفكّ عقده خطوة خطوة، للوصول إلى مخبأين يرغب معلّمي ـ دام ظلّه ـ أن أعثر عليهما، وهو ما ينبغي التركيز عليه الآن تحديدًا.

أحسب أنّ العبارة الأولى: «في أوج الظلمة ينبثق النور ليومض من

أعماق الكهف»، تتعلّق ربّما بتنبّؤ سابق ومستقبلي في الآن نفسه، وهو ما لا يمكنني البوح به، الآن على الأقلّ، حتى أتأكّد من صحّته.

أمّا ما تلاه من كلام: «ها أنت الآن وقد أشعلت اللغز ستبدأ لحظتك الأولى (. . .) سترى الأسماء هنالك عالقة في حضن الغيب»، فمن المؤكّد أنّ له علاقة بما أنا فيه، وبما يتوجّب عليَّ فعله لاجتياز هذه المرحلة من مراحل مهمّتي الكثيرة. والعبارات في مجملها واضحة، تشير إلى ضرورة العثور على أوراق وكتب مخطوطة موضوعة في مكانين مجهولين، يتوجّب اكتشافهما بمساعدة «حفيدته الحسناء».

التغيّر السادس

كلّ كنز لا بدّ له من مخبأ

المخبآن مدفونان في مكانين مختلفين. إمّا أنّهما سبق أن تعرّضا للحرق، وإمّا اندفن فيهما أشخاص ماتوا حرقًا. الأوّل يقع حيث ينام الجدّ، إلى جوار اثنين آخرين توفّيا حرقًا؛ كانا أخاه وأخته. هي ستدلّني عليه مع انتصاف هذه الليلة. الثاني يتوجّب أن يعقب اكتشاف الأوّل في اللحظات الفارقة بين الليل وساعات الفجر الأولى إلى أن تشرق الشمس وتطلّ على المكان بكامل استدارتها، وهو ما أحسبه المقام المدفون فيه أبواه المحترقان وجدّه. الأمر المهمّ قد تمّ، وهو تحديد موقعي المخبأين. أمّا العثور على الأشياء المخبوءة فيهما فسيتكفّل به الاتّباع الصحيح والمحكم للتعليمات التي أوردها المتن.

مرقتْ دون أن تعير ذلك المتسمّر إلى الباب، مبيضّة شفتاه، أيّ اهتمام، كما هو حالي. نظرتُ ساعتي. كانت الثانية عشرة إلّا ربعًا. لا أدري كيف مرق بنا الوقت بتلك السرعة! رأيت صوتها يجيء من مكان ما، أن ألحق بها. أقول: رأيت؛ فكلّ شيء هنا محض رؤية، ولا شيء آخر. قادتني قدماي المرتجفتان إلى حيث جاء الصوت، مرورًا بذلك

المتسمّر على حاله، فكانت غرفة أخرى في آخر الرواق المتجهّم، ينبعث من بابها الموارب نور من زرقة.

عاشت مع زوجها فترة سعادة لا بأس بها. كان حبّ جارف قد سبق، أعقبه زواج، رغم اعتراض جدّها الشديد؛ نظرًا لسعة ثراء عائلة الزوج، وهو ما كان يعدّ من وجهة نظر معلّمي مثلبة كبيرة؛ فالمال ـ كما سينطق في كتاب ظلّه ـ أشقى وأسوأ وسائل وأدوات السيطرة. إنّه إلٰه نهم لا يشبع ولا من جعلوا من أنفسهم عبيدًا له. إنّه السبب اللعين في إفساد كلّ حبّ محض.

إنّما ها هو المعلّم قد خضع مرغمًا أمام سطوة حبّهما، وهو يعرف أن لا سطوة تفوق سطوة الحبّ. غير أنّ سعادتهما لم تفتأ تذوي بمرور السنوات وتوالي الضغوط والمنغّصات، من عدم إنجابهما كلّ ذلك الوقت؛ خصوصًا من أفراد عائلة الزوج الذين ألحّوا عليه أن يتزوّج بأخرى، وترك هذه «العاقر».

بيد أنّ هذه «العاقر» كانت بفضل العلوم والمعارف التي تلقّتها من جدّها تدرك أنّ الخلّة ليست فيها. وكدأب النساء هنا، لم يكن لها من بدّ ـ مراعاة لشعور زوجها ـ من التحلّي بالصبر، بل إنّها لم تحاول حتى إقناعه بالذهاب إلى طبيب مختصّ عسى أن يفصح له عن حالته، موقنة أنّه سيرفض محتجًّا بأعذار شتّى، وأنّها تحاول أن ترمي صميم رجولته؛ فصبرتْ واحتسبتْ بالرّغم من تلك الكلمة الأليمة التي كانت تنهشها روحًا وجسدًا وهي تتلقّفها من هنا وهناك بصمت. كان أن فوجئت ذات يوم، وهي في ذروة حزنها، باعتزامه الزواج من إحدى قريباته، ما جعلها تهجره وتفرّ بحزنها وألمها إلى «دار المقبرة»، كأنّما لتدفنهما هناك، ككلّ ما دُفن. ولعلّها الأيّام ستكشف أن ليس لها من تلك الخلّة شيء. وها هو ذا شكّه يزيد بعد تأخّر زوجته الجديدة عن الحمل،

ومسارعته في السفر لإجراء الفحوص الطبيّة اللازمة.

ليس من ألم يفوق ألم امرأة تطعن في أمومتها، خصوصًا ممّن تحبّ؛ فكيف بامرأة مثلها؟! لا شكّ أن سيكون طامّة كبرى. وبقدر ما يكون الحبّ يكون الجفاء. لذا أصبح، رغم أنّه لم يكن ليقبل بتركها، ذلك الشخص الغريب الذي يبدو ألّا صلة له بها على الإطلاق.

هي غرفة جدّها إذن. هكذا أوحتْ لي رهبة المكان. لا أدري إن كان شيخي قد حكى لي عنها أم لا، لكنّني شعرت كأنّني أعرفها تمامًا. كانت واسعة نوعًا ما؛ غير أنّ ذلك الاكتظاظ الذي تعيشه أبداها صغيرة ضيّقة. الكثير من الكتب وأشياء أخرى غريبة: أقماع وأنابيب زجاجيّة متعدّدة الأشكال والأحجام متّصلة بعضها ببعض وغير متّصلة، تشبه تلك المستخدمة في المعامل الكيميائيّة والفيزيائيّة. ستقول لي بتلك اللكنة التي كانت لها وهي تقرأ المتن، والتي ما زال صداها يرتجّ بداخلي إلى الآن، إنّه كان يستخدمها في إجراء بعض تجارب وممارسات غامضة في تحنيط الحيوانات، وتحضير الأعشاب، اشتهر وذاع صيته بها وبكثير من الأمور الأخرى الخاصّة به. كما ستشير مزهوّة إلى عدّة دوائر فلكيّة وخرائط جلديّة، يبدو عليها القدم، معلّقة على الجدران، وإلى عدد من رؤوس محنّطة لحيوانات مفترسة، وإلى بضع قطع خشبيّة ومعدنيّة عتيقة، كان على ما يبدو يهوى اقتناءها. ها هما عيناي تجولان كلّ ذاك لتستقرّا أخيرًا على صورة كبيرة تتصدّر الغرفة، تتوسّط إطارًا خشبيًّا زخرفه النحت، أسفل منها مكتبة خشبيّة تضمّ كمّيّة لا بأس بها من كتب متنوّعة، تتعلّق بعلوم وفنون شتّى، من فلك وحيل وتنجيم وسحر وشعوذة وعطارة وبصريّات وكيمياء وميكنة، بل وحتى علم نفس واجتماع وفلسفة وإيحاءات وإشارات وحروف وتصوّف وأديان... الغريب أنّ كان ثمّة أيضًا بعض كتب رياضيّة وهندسيّة بحتة، لا أدري أهمّيّتها لشخص مثل معلّمي.

بدا أنّ الغرفة مغلقة منذ فترة طويلة؛ فالأتربة تغطّيها وكلّ محتوياتها. بيوت العنكبوت تتناثر هنا وهناك. ولا شيء أوحى لي بالرهبة أكثر من تلك الصورة!

وقفتُ أتأمّلها بإمعان وذهول. صورة زيتيّة مرسومة بإتقان ودقّة عالية حتى لكأنّها فوتوغرافيّة. كان ثمّة فنّان مجهول بكلّ تلك المهارة والإتقان، كلّ ما عُرف عنه هو توقيعه عليها مكتفيًا بحرف التاء. ما أرهبني حقًّا هو ذلك الغموض اللامتناهي لملامح ذلك الوجه. وجه هزيل متغضّن إن نظرناه بشكل عامّ؛ لكن إن نحن أمعنا فيه سيشرق كلّ ملمح بجمال خاصّ. عينان سوداوان برّاقتان. وجنتان غائرتان. لحية وشارب يحيطان بفمه المستدقّ، بيضاوان كالثلج.

لا أدري لماذا أشعرتني رؤية صورته بالثقة، بالرّغم من أنّ عينيه كانتا تحاصرانني، بينما شفتاه مفترّتان بابتسامة غامضة موحية، كأنّهما توشكان على الحديث.

أخرجني صوتها من استغراقي وهي تناولني مصباحًا من تلك التي يضعها عمّال المناجم على نواصيهم، قائلة إنّه آن أوان تسلّمي أولى الأمانات. استدارت واقفة أمام طاولة خشبيّة تتوسّط الغرفة، موضوع عليها كلّ تلك الأشياء. استدرت بدوري وكأنّ ذلك كلّ ما كان يتوجّب عليَّ. وها هي تجثو على ركبتيها ويديها، وتحبو أسفل تلك الطاولة وتتمتم كلامًا مبهمًا، ما يشبه تلك التعويذات التي تعلّمتُ بعضها من شيخي. لعلّها كانت تدعو في سرّها أو تلهي نفسها عن خوف آت! فإذا بفجوة تتكشّف تحتها مفضية إلى ظلمة تبدّت سحيقة. وعلى ما سلّطناه من ضوء كان ثمّة سلّم حجري ضيّق يتعرّج في أعماق الظلمة. هبطناه. كان ثمّة قبو صغير ينتهي بدهليز ضيق طويل يفضي إلى غرفة واسعة خاوية على عروشها ترتفع مقدار قامتين كاملتين، خُيِّل إليَّ فيها أنّنا

نتوسّط المقبرة. بل إنّ اقشعرار بدني والهواء الثقيل هناك أشعراني أنّني في قبر.

راحت تسلّط ضوء مصباحها بتأنٍّ وبطء على الجدران، ممعنة في البحث عن شيء ما، وتخبرني، بحزن ردّدت الغرفة أساه، أنّ وراء هذه الجدران قبور جدّها وأخويه المحترقين وأمّها المتوفّاة. توقّفت عند نتوء مخفي في ركن ما على جدار صدر الغرفة. طلبت منّي دفعه بقوّة والارتداد سريعًا. انشقّ النتوء عن تجويف مربّع بمساحة متر مربّع تقريبًا. دنوت أنظر داخله دون أن أجد شيئًا. أزاحتني برفق، متّخذة تلك الملامح التي كانت والطاولة ترتفع. تعويذة أخرى هي إذن. لا شكّ أنّ معلّمي ـ دام ظلّه ـ قد حرز المكان بحيث لم يُطلع على تحريزاته أحدًا سوى حفيدته التي لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تفشيها إلّا لمن استطاع إدراك المتن.

كنتُ قد تلقّنتُ على يد شيخي دروسًا مكثّفة في التعاويذ، وأتقنتُ منها الكثير. فنّ مترع بالكثير من المعرفة، مثقل بالكثير من الصعوبة أو اللّاقدرة، خصوصًا عند أولئك الذين لا توق لهم إليها. هذا بالإضافة إلى أنّني أزعم امتلاكي من المهارات ما يجعلني قادرًا على أداء الكثير من الحيل. لكنّها المرّة الأولى التي أشهد إحداها واقعًا لا تنظيرًا ولا تمرينًا. وهو ما جعلني أشعر كما لو أنّني لم أتلقَّ شيئًا منها.

إذن لم تكن الصعوبة في فهم تعليمات المتن فقط، بل وفي تطبيقها أيضًا. وهو ما أوجب الحرص وتوخّي أكبر قدر من الحذر؛ فأدنى خطأ ـ حسب قولها ـ سيودي بالمخبأ تمامًا، بفعل تلك القوّة السحريّة الحامية له، ولن تجدي أيّة محاولة لإيجاده. ها هي الصعوبة تتبدّى، رغم أنّني ما زلت في البداية. فها أنا كأبله ليس لديه من شيء سوى ترك فمه فاغرًا، ليقوم غيره بما يتوجّب عليه هو القيام به.

ومض ذلك التجويف بنور فسفوري أزرق. دنوتُ، لأرى هذه المرّة صندوقًا خشبيًّا قديمًا، متوسّط الحجم، كأنّه انبعث من العدم. طلبتْ منّي إخراجه وبحذر. أخرجتُه وكأنّي أخرج وليدًا من رحم أمّه، وإذا بذلك الرحم ينسدّ كأن لم يكن.

الصندوق، الأثقل ممّا يبدو عليه، جعلني أراها عجوزًا شمطاء، غاية في القبح والبشاعة، تشبه ما ترسّخ في خيالي عن «الصيّاد» أو «أمّ الصبيان» أو «جارة البيت»، واللواتي تزخر بهنّ مخيّلة القصّ الشعبي، وهنّ موجودات بشكل أو بآخر، وبمسمّيات مختلفة، في شتّى البلدان والثقافات.

ربّما أنّ ضوء المصباح على جبيني قد تداخل مع ضوء مصباحها فرأيتها بهيئتها المفزعة تلك! ربّما... وربّما... وربّما... المهمّ أنّ مرآها ذاك ما زال مرتسمًا في ذاكرتي حتى الآن، وإن بدت لي بذلك الجمال الفائق الذي كانت عليه حين خرجنا من القبو.

أخبرتني أنّ جدّها قد أوصى بألّا يدفن إلّا قرب ذلك المخبأ؛ ليحميه بروحه وظلّه، وأن لو كنتُ شخصًا من غير المختارين، لخسفتْ بي الأرض على الفور، مثلما حدث لاثنين كانا من أنبغ من رأته عيناها، وقعا ضحيّة ذكائهما وأطماعهما وخضوعهما لسيطرة الظلال المتمرّدة، ليكشفهما ظلّه الحارس وقد أوشك كلّ منهما على بلوغ بغيته، فخسفت به أرضيّة القبو كأن لم يكن، وصار من بعد ذلك نسيًّا منسيًّا. لعلّهما كانا من أولئك الذين ترسلهم الظلال المتمرّدة لقطع الطريق على المختار الحقيقي.

الغبار يغمرنا والتعب ينال منّا ونحن نضع الصندوق أمامنا في الغرفة. جلسنا نستردّ أنفاسنا. ثم ها أنذا أحاول فتح الصندوق، الذي لم يستجب لكلّ محاولاتي. نظرتُ إليها نظرة مستغيث عاجز، فما كان

منها، وكما هي الحال في القبو، إلّا أن أزاحتني جانبًا وراحت تتمتم بتعويذة أخرى، فانفتح من تلقاء نفسه. أخرجتْ كتابين كبيرين مخطوطين معفّرين قِدمًا وغبارًا وناولتني إيّاهما.

وبيدين مرتجفتين رحتُ أنفض عنهما الغبار، واضعًا أحدهما على تلك الطاولة التي لم تعد إلى مكانها بعد، شارعًا في تصفّح الآخر، والذي بدا أكثر قِدمًا من صاحبه، وإن كان ناسخه بخطّه الجميل قد انتهى منه، بحسب الإشارة الواردة في آخر صفحة من متنه، في غرّة شعبان من العام ٦٦٦ للهجرة. أمّا الغلاف المتين المحبوك جيّدًا فمعنون بخطّ منحوت بارز: «الإشراقات». والغريب أنّ دفّته الأخرى منحوت عليها نجمة سداسيّة وأخرى خماسيّة وهلال، يعلوها جميعًا نسر ينظر بأنفة وشمم إلى المدى.

كان بي شوق جارف لتصفّح الكتابين؛ ولكن ما إن هممت بتصفّح الأوّل حتى أوقفني صوتها أنّ بإمكاني أخذهما معي وقراءتهما بتأنٍّ ورويّة. كان وكأنّها تقول: هما لك! ستخوض فيهما ما سيأتي من حياة!

* * *

ودّعتنا على أن نلتقي عند الفجر، أسفل العقبة المحاذية لمقام الريح، كما قالت لزوجها.

عدنا مع الزوج إلى منزله لأجد ذلك الصبي القنفذي وقد هيّأ لي مكانًا منفردًا، ليس سوى فراش رُتّب بعناية وسط تلك الغرفة المكتبة. هل كنت لأنام وبين يديّ هذان اللذان لم يبارحا ذراعيّ معانقًا إيّاهما، كما لو كنت طفلاً حصل على هديّة لم يكن يتوقّعها، وها هو يتشبّث بها خوف أن يسلبها أحد منه؟!

ظللت أتصفّح الكتابين ما بقي من ليل؛ بغية أن أتعرّف عليهما،

ولو بذلك القدر الذي يجعلني أنفض غبار الحيرة، وبما يساعدني ربّما في العثور على ما تبقّى لي هنا.

الكتاب الأوّل وهو لمجموعة مؤلّفين أشير إليهم بـ «الحكماء السبعة» دون ذكر اسم أيّ منهم. والواضح أنّه مجموعة كتب، وأنّ مؤلّفيه من عصور وأزمان مختلفة، أقدم بكثير من تاريخ النسخ، وإن لم يشر أيّ منهم إلى تاريخ كتابته أو انتهائه من كتابة الجزء الخاصّ به. يبدو أيضًا أنّهم من بلدان وأديان مختلفة، وإن جمعهم ووحّد اتّجاهاتهم هدفٌ غامض كان السبب في تأليف كتاب من المعرفة يُعْنى بتنمية القدرات المختلفة، بل والوصول بها إلى أقصاها، وهي حالة «الإشراق» كما يطلق عليها في هذا الكتاب النادر المسرف بذخًا.

يعرض كتاب «الإشراقات» تجارب حكمائه أو مؤلّفيه السبعة، وكيف استحوذ كلّ منهم وسيطر على إرادته وامتلك ما امتلك من قدرات، وكيف يمكن لكلّ من يريد السير على الدرب ذاته، الوصول إلى تلك الحكمة التي بلغوها. ثم هناك شرح لطرق مختلفة للاستحواذ والسيطرة على الإرادة وشروطها وأنواعها وغاياتها. هذا كلّه من تلك الأشياء التي لا يمكن فهمها قراءة، وإن كان ولا بدّ فأثناء خوضها. هو من أهمّ الكتب، لا يتداوله إلّا كبار أولئك الحكماء من السحرة، يعلّمونه تلاميذهم الخلّص، ملتزمين تمامًا بتعاليمه الـ «مقدّسة»، لا يجوز نشرها أو تداولها إلّا في أضيق نطاق وبين أولئك الذين يحوزون المواصفات الملائمة.

الكتاب الآخر، ولم يكن يحمل عنوانًا، كان بخطّ معلّمي «الفقير إلى الله (أ. ع)»، حسب ما ورد في نهايته. وأدركت أنّه كتاب ظلّه، وذلك ما سيؤكّده لي ما سيأتي من أحلام.

التغيّر السابع

المقام الممسوس

أفقت قبيل الفجر بحوالى نصف ساعة. حشرتُ الكتابين في جملة ما بحوزتي من كتب. اغتسلت بمياه الفجر الباردة أنفض ذلك التعب المهيمن. وها أنا أخرج من حقيبتي كلّ الملابس، لتهفو نفسي إلى الأبيض منها، والذي كان ثوبًا وشالاً ألبسنيهما أبي قبيل موته بأيّام، لتكون هذه هي المرّة الثانية التي أرتديهما. لا أدري لماذا خامرني شعور بأنّني أرتدي مجرّد كفن. إنّه ذلك الشعور بقرب الموت. إنّما أتراه موتي؟! أم أنّه الموت فحسب؟!

هرعت إلى صاحبي في «الديوان». كان مستيقظًا يحتسي قهوته مع سيّد البيت. تناولت شيئًا منها، ثم خرجنا لأداء الصلاة، ومنها إلى مكان اللقاء. كانت تنتظرنا ملتحفة رداء صوفيًّا أسود جعل بدني يلتفت أخيرًا إلى ما يسري من برودة في مثل ذلك الوقت.

أيّ شجاعة تسكن هذه المرأة حتى يكون بوسعها الانتظار وحيدة في مثل هكذا مكان موحش!؟

تقدّمتْ نحوي وتأبّطتْ ذراعي، دون أن تعير زوجها انتباهًا. كان

وكأنّ تلك الحواجز التي تفصل ما بين غريبين قد تلاشت. صعدنا الربوة، يتبعنا صاحبانا، حتى بلغنا المقام. كان مهملاً، تتسيّده قبّة بيضاء صغيرة تريد أن تنهار. حين وقفنا أمام الباب كانت دلالة التوتّر بادية على ذراعي، رغم ذلك الدفء الذي منحته ذراعها، فأحسست بقشعريرة انتصب لها كلّ جسدي. إنّه ذلك الإحساس الثقيل الوطء كلّما دهمتني الظلال. بدا أنّ هذا المكان مرتع من مراتعها. ظلّي أشعر به يتحفّز وكأنّه على وشك خوض معركة، ستكون إن نشبت ضارية. نظرتُ إلى وجهها. كان واجمًا يشخص إلى أعلى الباب، حيث تتكاثف تلك الظلال. إنّها لا شكّ تشعر بوجودها كما أشعر أنا.

تقدّمتُ أتحسّس ذلك الباب الخشبي للمقام. غريبًا بدا لي. كان قطعة واحدة دون رتاج، وكأنّه قُدّ كي لا يفتح. الظلام يلفظ أنفاسه. إنّها اللحظات التي تكون فيها الظلال خاملة في أضعف حالاتها؛ فالفجر يشلّها تمامًا وكأنّها ذوات دم بارد، ما من داع لخشيتها.

خوف غامض من غامض آخر يحتلّني. متلفتًا أرنو. البقيّة واجفون مثلي، وإن كانت أقلّنا. على ما يبدو فإنّ للباب تعويذته أيضًا، ومن ذا ليدركها سواها، من ائتمنها جدّها على فكّ ما صنعته قدرته؟! نظرْتُها، كانت تتمتم، ليهبط الباب غائرًا في الأرض، كاشفًا عن مدخل محفوف بالظلام. دخلتُ مرتجفًا، تتبعني رابطة الجأش، تتلو الفاتحة على الأرواح المدفونة هناك، بينما ظلّ الآخران خارجًا يسكنهما الخوف.

كثيرًا ما تنتابني في ظروف كهذه رغبة جنسيّة عارمة، لا ينبغي معها إلّا التجرّد من كلّ رغبة. أذكر أنّ صديقًا هاجمته رغبته تلك أثناء تأديته مناسك الحجّ، ما جعله العام التالي يعيده، ليتكرّر الأمر نفسه.

تذكّرتُ، ملهيًا هاجسي، إشاعة سيخبرنيها السيّد عند عودتنا إلى منزله الليلة، عن أنّ جنًّا وكائنات ظلّ تسكن هذا المقام مذ دفن فيه والدا

الجدّ المحترقان، وأنّ الناس يطلقون على هذا المكان «الأكمّة الممسوسة»، عازفين عن زيارته.

ثلاثة أضرحة «مقضّضة»، بالكاد تبيّنتُها، ترتفع بنحو شبرين اثنين، بعضه جوار بعض. أوسطها أكبرها وأوحدها مشهدًا. سلّمْتُ مسترجعًا ما ورد في المتن بشأن المكان: «والآخر ستراه حين يمدّ الظلّ أساه...».

وقفتْ خاشعة مرتجفة تستنشق عبق الأسلاف. دعوتهما للدخول؛ لكنّهما جثما مكانيهما خائفين. جلتُ متفحّصًا جدرانه المهترئة، علّي أجد ما يعين على اكتشاف المخبأ. عزفت مدركًا أنّه لم يكن ليترك أثرًا يدلّ على ذلك. ملتصقين وقوفًا أمام مشهد القبر الأوسط، أمعنّا في الصمت، ذاهلين، وكأنّها لحظة ذروة لجسدين يحترقان في اللمس. لا أدري كم من الوقت مضى ونحن على استغراقنا ذاك!

انتفضتْ مستديرة نحو الباب المستقبل للشمس. تقدّمتْ شامخة وسط المقام، يلثم جبينها أوّل طيف. كان ظلّها كثيفًا يحجب ما خلفه. لا أدري لماذا أشرتُ لها بالانخفاض، لتندفع هالة من ضياء تقرض الجدار، أعلى ذلك المشهد. هرعتُ نحو المشهد مزيلاً بطرف كمّي غباره المتراكم، ثم تراجعتُ جالسًا. نهضتْ هذه المرّة من تلقاء نفسها خالعة ذلك الرداء الكثيف، واستقبلتْ شمسها مرّة أخرى. لم يعكس ظلّها أيّ ظلّ. دفق ضياءين ينصبان على قلب المشهد الرخامي المصقول. كانتا شمسين تتماهيان. أفزعني المنظر حدّ أن نسيتُ الفزع. كانت بقعة ضوء وحيدة تتماوج حيث انعكس الضوء. أحسست وكأنّها تشير إلى شيء ما في ذلك المكان. اندفعتُ حبوًا نحوها. نظرتُ إلى الأعلى. كانت أسفل منتصف القبّة تمامًا. شيء ما يدفعني لأن أحفر، فرحتُ بلا حيلة أحفر بيديَّ. ولا أدري أكان مكان الحفرة هشًّا، أم أنّ

يديَّ كانتا من القوّة بحيث راحتا تحفران دون عناء وبسرعة بدت لي خارقة! اصطدمتا بعد مسافة بشيء ما. حفرتُ من حوله فإذا به وكأنّه مرآة رخاميّة شفّافة. لم أتمكّن من إزاحتها رغم تعميقي وتوسيعي دائرة الحفر. بدت ضاربة في اللانهاية. ابتعدتُ مندهشًا، لاصطدام ضيائهما المرتدّ من قلب المشهد بها، عاكسًا على منتصف الركن الأيمن لصدر المقام بقعة ضوء صفراء متراقصة. دنوت منها متحسّسًا أهمُّ بنقبها. فكرة ما فاجأتني، أنشفت ريق فمي وجمدت يدي في الهواء. أحسست وكأنّي موشكًا كنت على ارتكاب خطأ فادح سيجعلني أطوي ظلّي، فانسحبت يكللّني الفشل. أليس هذا ما أحرص على عدم الوقوع فيه؟! لعلّي كنت بحاجة إلى التفكير بإمعان أكبر أو إلى التفكير بأسلوب آخر.

كانت حينها في إثري دون أن أنتبه. استدرتُ. رأيتها واقفة في الجهة الأخرى قبالة بقعة الضوء تمامًا. التفتُّ أنظر بقعة الضوء فلم أجدها. وبلمحة سريعة أدركتُ أنّ المكان كان خلف شيختي بموازاة رأسها تمامًا. بدأتُ النقب. تأكّد لي أنّ يدي تتلبّسهما قوّة خارقة، بعدما أخرجتْ الشيخة من ثيابها إزميلاً كانت تدرك احتياجها له، وأخذت تساعدني غير مستغربة من كوني أحفر بمجرّد يدين. كتفانا تتلامسان باستمرار. انتابتني رغبة أخرى غير تلك التي عصفت بي منذ قريب بعيد. كانت حبًّا محضًا، مختلفًا عن حبّي لزوجتي أو أختي أو أمي، حبًا أشبه ما يكون بحبّ المرء لنفسه.

ظلّ أعمى يرقص رقصته من حولها. وحي دعاء يتصاعد من محراب النور حيث العارف أدلى بكلمته للظلّ ونام.

نظرتُ إليها. القناع الذي ارتدى وجهها البارحة كان يعود إليه وبشكل أكثر قبحًا وبشاعة؛ كأنّه كان يرتديها كلّما اعتراها التوتّر الشديد في أوج اللحظات التي تسبق وقوع الأحداث الحاسمة. في عينيها كانت

تتراقص بقعة الضوء الصفراء التي خبت عن الجدار.

عثرتْ يداي على رقٍّ مطوي بعناية، مكتوب بلغة لم أعهدها من قبل. أشكال متشابكة لو رأيتها في مكان غير هذا لظننتها مجرّد شخبطات. ارتسم اليأس على وجهي، باعتقاد أنّي أضعت الفكرة. وحين هممت بإلقاء الرقّ، اختطفتْه من يدي متراجعة نحو المنتصف، حيث المرآة. عرضتْه عليها، فارتسم كلام قرأته كتعويذة تجهلها. كان وجهها قد عاد إلى ملامحه. ومضت المرآة بذلك الضوء الفسفوري محتويًا لها. اندفعتْ نحوها. كانت المرآة تبتلعها. لم ألحق سوى يديها المبتهلتين نحوي، محاولاً انتزاعها، لأفاجأ بقوّة جذب هائلة تشدّني أنا الآخر، لنغرق معًا في هاوية مجهول.

***

أفقت. سكونٌ عميقٌ حسبته الموت. أدركتُ أنّي جاثم فوقها أتنفّس أنفاسًا معفّرة بالتراب. أزحت نفسي عنها واستويت جالسًا. كان الجوّ خانقًا، وظلامٌ كثيفٌ يلفّ كلّ شيء. حاولت إيقاظها دون فائدة، فتركتها أستكشف المكان. وقفت كأعمى أتحسّس أمامي. كان واسعًا أكثر ممّا توقّعت. حبوت متوخّيًا تجنّب ما لا أراه، متحسّسًا الأرض. كان وكأنّني أتحسّس جسدًا بضًا، لأعثر على ما بدا لي ثلاث كومات متقاربة. أجسام صغيرة مخروطيّة. لكأنّها عظام! لا بدّ أنّها بقايا أناس! يؤكّد ذلك ثلاث كتل أشبه ما تكون بجماجم، كلّ كتلة بجوار إحدى الكومات.

تأكّدتُ من وقوعنا أسفل المقام، في ما بدا أنّه «مجنة»[1]. سمعت سعالها متبوعًا بأنين؛ أنين أشعرني بكلّ الاطمئنان! فعدت أستأنس

(١) قبر واسع يُدفن فيه عدّة موتى، يوجد عادة في القرى والمناطق التي لا توجد بها مساحات كافية كمقابر.

قربها، تاركًا الجماجم وقد أعدتها ربّما إلى غير مواضعها. تلبّسها الفزع إذ ألفت نفسها وسط عتمة ماحقة. ضممتها إليّ، كانت ترتعد بكاءً وفرقًا. هدأت تدريجيًا حتى استكانت.

لا أدري ما الذي جعلني في تلك اللحظات أتذكّر نصيحة مررت بها بلا اكتراث في مقدّمة كتاب «الإشراقات»:

«أيّها الحاوي (المبتدئ)! يا من يرغب بالولوج إلى عالمنا! عليك أن تنظر إلى جوهر الشيء، لا إلى مظهره فحسب؛ فالحقيقة لا ما تراه، ولكن ما تدركه! عليك الغوص في ذاتك والسيطرة على تصوّراتك لتتمكّن من السيطرة على ذوات الأشياء وتصوّرات الآخرين! إدراك كنهك يجعلك تدركه لدى غيرك. إنّ النفس الإنسانيّة لأعظم قوّة في هذا الكون الفاني. وإنّ الإيحاء لأقوى أسلحتها. إنّما الإيحاء سلاح الساحر، أمّا أنت فسلاحك الإيهام. وبينهما ما بين الحقيقة والوهم. الإيهام أن تسيطر على حواسّ الآخرين ليروا الأشياء كما تريدها أنت أيّها الحاوي، والإيحاء السيطرة على الأشياء ذاتها والقدرة على تغييرها. وبما أنّ كلّ ما في الكون مجبول من عناصر مشتركة، وإن بصور متغايرة، فإنّ من يدرك مكامن التغيير يمكنه التغيير، بل وتحويل أشياء إلى أشياء. الكائنات الحيّة أشياء، هي أيضًا قابلة للتحوّل؛ وهو ما يفعله الإيحاء الفعّال. عندها يتحوّل الحاوي ـ موهم الحواسّ ـ إلى ساحر قادر على خسف الأشياء وتغييرها فعلاً. الحقيقة ثابتة عند الحاوي، بينما هي عند الساحر متحوّلة. الحاوي لاعب خفّة، والساحر لاعب قدرة. غير أنّك ما إن تحوز القدرة، تكون ـ إن استخدمتها ـ قد تجاوزت المحظور وتدخّلت في ما يخصّ من لا يجوز التدخّل في قدرته. وهو ما لا يمكن غفرانه إلّا إن كان تدخّلاً أرادته الإرادة المطلقة.

لا تستهن ـ مهما بلغتَ من القدرة ـ بالظلال. فالساحر يقف عاجزًا أمامها، بل أمام أيّ منها؛ لأنّ كلّ ظلّ ليس شيئًا، ومن ذا يستطيع فرض أيّ تأثير على اللاشيء؟!».

كان لا بدّ من الحصول على ضوء. بأيّة وسيلة لا بدّ من ذلك؛ حتى نتمكّن من العثور على المخبأ، والخروج من هذه «المجنة» المرعبة.

وأنا وإن كنت أعرف كثيرًا من تلك الحيل السحريّة؛ لكنّ القدرة على إشعال النار أو بعث الضوء لم تكن منها، وهو أمر طبيعي لشخص لا يزال في أوّل الدرب، فلم أصبح بعد حتى ذلك الحاوي الذي خاطبته مقدّمة «الإشراقات».

تذكّرت نصيحة معلّمي في المتن. هذه المرّة كنت أدري لماذا تذكّرتها؛ فما من أمل في العثور على شيء والخروج ممّا نحن فيه دون الاستعانة بنور بصيرتها. أخبرتني ـ بهدوء ظاهر وكأنّها تدرك ما يدور في خلدي ـ أنّها تعرف حيلة علّمها إيّاها جدّها، وهي أن تبعث نورًا يسطع من كفّها، وإن لمدّة لا تتجاوز نصف ساعة، فضلاً عن أنّها تشعر بوهن شديد، ربّما لا يمكنها معه الصمود كلّ تلك المدّة؛ لكنّها تأمل بقليل من التركيز والتأمّل أن تتمكّن من ذلك.

حللتُني عنها مفسحًا لها المجال، لنستغرق في صمتنا قرابة ربع الساعة. كان صمتًا مليئًا بالضجيج، أسكته صوتها وهي تتلو تعويذتها أخيرًا، لأرى بدء وميض ينسرب من بين أصابع يدها اليمنى المضمومة إلى أختها اليسرى، قبل أن تبسطها كفًّا من نور أزرق يكاد يحترق. إنّها خدعة سحريّة تستدعي شحذ طاقات الجسد وتكثيفها نورًا في الكفّ، نورًا لا نارًا. هكذا أدركتُ الأمر لاحقًا. نهضتْ وقد زال عنها الوهن، لتمشي بطيئًا وأنا أتبعها نتفحص ما نحن فيه من مكان. لم يكن لنا في

ذلك النور من ظلّ. كأنّا مجرّد ظلّين لا ظلّ لهما. التفتتْ إليَّ ملؤها الدهشة، وكأنّها لا تعرف شيئًا عن ها هنا، وكأنّني أسمعها تقول، وهو ما كان بطرف لساني: يا له من مخبأ لا يخطر على بال! وحتى إن خطر فمن ذا يجترئ!؟

كان غرفة جدرانها وأرضها التراب، خالية من كلّ شيء، إلّا من تلك الكومات من العظام مضطجعة على فرش من تراب وحصى، استدعت منها خشوعًا حسبتُه طويلاً، فرحتُ أتعجّله بصمت قلق يصرخ بها.

ها نحن! حائرين لا ندري ما الذي يتوجّب علينا فعله. شخصنا نتأمّل الموضع الذي نفذنا منه. لم يكن ثمّة من أثر، إلّا آثار فتحة مسقوفة بالحجارة أعلى كومة العظام الوسطى. إنّها على الأرجح الفتحة الوحيدة. لم يكن المكان بالسوء المتوقّع لـ «مجنة» مصمتة كهذه. الرائحة ليست رائحة موات. والهواء نكاد نلمسه. لا بدّ أنّ ثغرة، يتسرّب منها هذا الهواء، مختبئة هنا أو هناك، أو أنّها روح الولي المدفون تتولّى المكان بالرعاية والاهتمام! لكن فكرة الخروج لم تكن حتى الآن لتسيطر عليَّ، طامرة ما جاء بي. فقد جئنا لنرى قبل أن نخرج، لا أن نخرج قبل أن نرى. وإذن لا بدّ أن نعثر على المخبأ، وإلّا فإنّ من الخير أن ننضمّ إلى ركب الرفات هنا.

ولأنّ الوسط دائمًا هو محور الرؤيا فإنّه يكون المكان الذي يرغب فيه من يصل أوّلاً. لا بدّ ـ إذن ـ أنّ كومة العظام الوسطى ـ مقارنة كذلك بواجهات القبور في الأعلى ـ عظام الولي الكبير. لم أجد ما أفعله سوى أن جمعت الجماجم الثلاث ورحت أناقلها مقارنًا إيّاها بالعظام الأخرى حتى اكتشفت أيّها جمجمة الولي؛ ليس لأنّي خبير طبّ شرعي، بل لأنّها كانت أكثر ابيضاضًا وطراوة من الأخريين المحترقتين،

بل ومن بقيّة عظام كومتها، ما جعلني أطلب من شيختي أن تدني يدها/ النور لأتفحّص الجمجمة عن كثب، فإذا بضوء بنفسجي باهت يخفق من مكان بدا لي موغلاً في البعد: قعر محجريها الخاويين. كأنّها شمس القبور التي يدّعيها نبّاشو وحرّاس المقابر ولصوصها تومض في أعماق بعض القبور و«المجنات» مسبّبة العمى لمن يمعن نظره فيها.

أدنيت الجمجمة من يدها أكثر، فإذا بذلك الضوء يجتاح كفيضان غامرًا الجمجمة، ثم يندفق شعاعين بنفسجيين قويين اخترقا عينيَّ وقذفا بي مفلتًا الجمجمة تتدحرج على الأرض، مرتطمًا بالجدار فاقدًا الوعي.

أفقت لأجدها مُغْمًى عليها فوق صدري، شاحبة شحوب الموت، وقد خبت كفّها. أزحتها برفق، فوقعت عيناي على الجمجمة ومحجريها مصوّبين ضوءهما الواهن على بقعة أسفل الجدار المقابل لواجهة الضريح الأوسط، كاشفًا عن سرداب تتراقص فتحته كأنّها تؤذن بالانغلاق. لم أعد بحاجة إلى أيّ مخبأ؛ فالحقيقة قد أودعتها.

ها أنت الآن أيّها الجدّ! أيّها الولي الكبير! يا من خضت واجترحت كرامات شتّى! كفّنت بنور العشق، وسكنت بذاكرة الضوء، تعبر تلك الأزمان، تجتاز الموت. ها أنت مُسَجّى بين عظامك، وإن كنتَ البرهة تسكن أحلامي روحًا ودمًا! تختال بجُبّتك المنسوجة من شوق ودموع. كنتَ البرهة تُلبسنيها، تشعل سرّك في وهني. فلتَنَمْ الآن! فالمخبأ أنت، وأنت السرّ، سأحمله عنك، ومنذ الآن سأرحل.

رحت أتكشّف تلك الفتحة. كانت سردابًا يكفي لشخص مكتمل البنية يعبره انحناءً. رحت أسحب شيختي من ذراعيها وقد أوشكت الظلمة على السيطرة مجدّدًا. كنت قلقًا أتساءل إن كان السرداب سيفضي فعلاً لنجاة. ليس من خيار؛ فما من درب إلّاه. استغرقت في ذلك السرداب حوالى الساعتين، كانتا رهن عذابٍ حسبته أزليًا، وأنا أتخبّط

وسط جوّ خانق وظلام أختنق. ما كنت لأسمح لنفسي بتركها في مكان كهذا يدفنها الخوف. ليس من السهولة بمكان أن أتخطّى هذا الغموض بمفردي، فكيف وهي على تلك الحال، أجرّها وظهري يقودني لا أدري إلى أين!؟

هل يمكن لإنسان أن يترك إنسانًا حياتُه رهن يديه؟! ليس ثمّة عاطفة تقرّ ذلك. لكن ألا يحصل ذلك في أوقات تختلط فيها معاني الحياة والموت والوفاء والأنانيّة والهروب والبقاء؟! أليس بمقدور الإنسان أن يكون النقيضين في آن واحد؟ أليس هذا ما قد يقوم به الجنود، وهم يرون رفاقهم يصارعون الموت، فيتخلّون عنهم حالما تتساوى محاولة إنقاذ رفاقهم بموتهم هم؟ هذا لا يعني أن ليس هنالك من لا يقدّم حياة سواه على حياته، مخترقًا هذه القاعدة.

بلغنا نهاية مسدودة والآلام تنخرني.

يا إلٰهي! روحي ستزهق إن استمرّ ما أنا فيه ساعة أخرى. وإذن، لمَ مرّ بي كلّ هذا الحلم، الأمل، الألم، الخوف، إن كنت سأزهق في مكان كهذا؟! أليس الأحرى أن يأخذ ذاك الحلم مداه؟! أليس الأحرى أن أصبح أنا هو ذاك الحلم؟!

أسندتُ ظهري للجدار ألتقط أنفاسي، وأحاول تجاوز ما يحيق بي من يأس. أجدى من ذلك أن أفكّر في طريقة تخرجني من هكذا مأزق مستحكم. أيعقل بعد كلّ هذا العناء والجهد أن أصل إلى طريق مسدود!؟ أظنّ في الأمر أمرًا، ولعلّ معلّمي ربّما يريد أن يختبر قدرتي على التحمّل والجلد! بل أظنّه لا يصلح إلّا أن يكون سجّانًا، لا معلّمًا! سجّانًا يتلذّذ بعذاب الآخرين! بل أظنّه لا يريد إلّا أن يريني أيّ معنى هو لذلك العذاب الذي طالما أذقته سواي من بشر وكائنات!...

لكنّي سأنجو، رغمًا عن تلك العذابات، عن كلّ تلك الأحلام. سأنجو رغمًا عنك، حتى وإن كنتَ معلّمي. لن أخنع مثلما كان من عذّبتُهم! سأقاومك، ليس لنفسي، بل لروح يسكنها البرد، أعطتني ما لم تعطني أنت. انتظرتني ولم تنتظر أنت. سأقاوم خدر الموت وخدرك!

* * *

أشعر أني مجرد حلم في ذهن سواي. فلأيقظ ذهن سواي إذن، كي أعبر.

ترى ما الذي فعله صاحبانا بعدما طوتنا الأرض؟! ترى هل هذا هو ما يتساءله الموتى وهم يلتحفون التراب!؟

أظنّهما لن يقفا مكتوفي الأيدي. سيقومان بشيء ما.

أحيانًا نودّ ممّن حولنا اجتراح أمر ندرك مسبقًا أن لا طائل منه؛ فقط لأنّنا نريد منهم القيام بذلك. فما عساهما يفعلان وقد تلاشينا عنهما بتلك الطريقة؟! إنّه العجز، والعجز فقط هو كلّ ما لديهما.

أصخت إلى الحاجز الترابي للسرداب، علّي أسمع صوتًا أو أستشعر حركة وراءه. كانت أنفاسي الواجفة هي كلّ ما يُسمع من صوت. لكن عبق هواء طري أحسسته يفوح. لا بدّ أنّه عبق اللحظة الفاصلة بين الانهزام والانعتاق. عدت إليها أجسّ نبضها. لست أدري إلى متى ستقاوم. لم أكن أدرك مدى سُمْك ذلك الحاجز. كان لا بدّ من آلة حادّة تمكّنني من الحفر.

سكنت مغمض العينين، دون أن أدري لماذا أغمضتهما في ذلك الظلام الدامس. ومن أعماق أعماقي طلبت عون معلّمي. تذكّرت يديّ، هاتين اللتين أنسانيهما اعتياديهما عاديّتين، وحالما بدأت الحفر بدأتا تنهشان بتلك السرعة. لكن ما الذي كانتا تنهشانه؟! لا أظنّهما كانتا

تنهشان إلّا ظلالاً تتطاير حائلة بيني وبين شيختي. إنّها الظلال ولا ريب. بل أظنّ أنّ كلّ ذلك المكان كان مجرّد ظلال، ظلال ليست من لون. لست أراها بل أستشعرها. وإنّني بتلك السرعة الخارقة ليديَّ لم أكن أحفر على الإطلاق، بل ربّما كنت مجرّد ظلّ يحفر في ظلّ آخر!!

أسرعت أحاول حمايتها من سُحُب الظلال الكثيفة المهومة فوقها. رأيتها تتمازج فيها. حاولت انتشالها من بين براثنها، فغشيتني.

أفقتُ أتلفّتُ. كانت الشمس تملأ المقام وقد ارتفعت مقدار رمحين. كانت يكسوها الشحوب، ملقيّة على الأرض مشرّعة قدميها للباب في ذات المكان الذي استقبلت منه شمسها.

ترى ما عساه الفارق بين الحقيقة والوهم؟! أليس كثيرًا ما تعبرنا أوهام نحسبها حقائق، وحقائق نحسبها أوهامًا؟! أترانا حقيقة في هذا المكان؟! ألا يمكن للوهم أن يكون أقرب إلى الحقيقة من الحقيقة نفسها؟!

ألم نكن معًا في تلك الغياهب؟! ولكن، هل يمكن لوهم أن يكون بكلّ هذا الجلاء، وأن يتقاسمه شخصان بكلّ تفاصيله مثلما يتقاسمان الحقيقة؟! أحسب أنّ هذا هو ما خضناه للتوّ. وإن أحسبنا إلّا وهمًا إن لم نكن كلّ ذاك.

اندفعت أُسَجِّيها بذلك الرداء الملقى هو الآخر، حاملاً إيّاها بين ذراعيَّ، خارجًا بها. كانت المرّة الأولى التي أرى فيها ضياء شمس بكلّ ذلك البهاء والجمال.

لا أدري لمَ لا نشعر بجمال الأشياء من حولنا وقيمتها وتأثيرها علينا واستغراقها فينا إلّا بعد أن نفقدها! إنّنا بطبيعتنا لا نعطي الاهتمام الكافي ولا التقدير لكلّ ما هو سهل المنال، متاح. نتركه أو نهمله،

لنبحث عنه في سواه، وأنّى لنا إيجاده إلّا فيه!؟

فركتُ عينيَّ، أزيل عنهما ما تبقّى من غشاوة، تختزلان كلّ هذا الكون المفعم بالحياة، لأفتحهما مجدّدًا بصرخة ردّدتها الآفاق، احتوت كلّ ما مُزجته آنذاك من مشاعر وأحاسيس ورغبات وهواجس وتناقضات. صرخة انتفض لها صاحبانا فهبّا مبهوتين من الفزع. أخذاها عنّي مسرعين بها. علمتُ بعد ذلك أنّها نقلتْ بسيّارة صاحبي إلى المدينة.

التفتُّ إلى الوراء، متمتمًا، ـ دون أن أدري ـ بتعويذة ارتدّ على إثرها الباب كما كان. جثوت مكاني لا أبارحني قيد فكرة. لا أسمع إلّا صدى كلمات الولي الكبير مدوّية في أعماقي.

عادا ليخبراني أنّه المغيب، وأنّها قد أفاقت. قرأتُ من وجهيهما أنهّما قد بحثا عنّي طويلاً، مستغربين بقائي في ذلك المكان كلّ ذلك الوقت، وهو ما استغربته أنا أيضًا. ربّما كان ظنّهما أنّني إن لم أكن قد نلتُ مرادي ورحلت، فلا شكّ أنّ الجنون هو ما ألمّ بي من تلك الربوة، أو بالأحرى من مسّها، تدعم ظنّهما تلك الصرخة التي أطلقتها لحظة أن خرجت من داخل المقام. كنتُ كأنّني مستغرق في اللاشيء، أو أنَّ كلّ ذلك الوقت كان شيئًا فائضًا.

ها أنا أدخل عليها. وجدتها قد عادت على عهدي بها وهي بين ذراعي، مغشيًّا عليها، مغمورة بالشحوب.

غرفة نومها توحي بانقطاع اللذّة عنها منذ أمد طويل؛ كلّ شيء يسكنه الشحوب، سريرها المختار بعناية، وهي مسجّاة عليه، يبدو مغشيًّا عليه مثلها، بل وشاحبًا أيضًا. حتى الجدران كانت كذلك.

ها أنذا أسمح لنفسي باقتراف أفكار من التفاهة بحيث إنّي لو علمتها من شخص آخر وفي موقف كهذا لكان لي الحقّ بازدرائه

واحتقاره. تقلّصات جسدها وارتعاشاته تزيد من وطأة تلك الهواجس، التي لم يخرجني منها سوى هذيانها بكلمات ظلّت طويلاً تتردّد في ذهني:

«الوعود مجرّد كلمات تبدّدها الريح. نكثها قد يورث الندم، لكنّه لا يورد الهلاك. فلأندم، أو لا! ليس أسوأ من الندم إلّا التراجع. وليس من لذّة للانتصار سوى الصمت. إنّ الاقتراب من الحقيقة لا يعني حتمًا بلوغ الحقيقة. كما أنّ الأمان قد يعني في أحايين كثيرة ذروة الخطر. آه كم هي قاسية ومؤلمة لحظات العجز! لكنّها ليست شيئًا مقارنة بالندم!».

لم يكن هذيانًا. كان كلامًا مقصودًا لا أحسبه إلّا موجّهًا إليّ.

لكن ما الذي يعنيه كلّ ذاك؟! أتراها نادمة على كلّ ما قدّمته لي؟! أم أنّها تظنّني تخلّيت عنها مكبّلاً بالحقيقة التي حزتها، أو بالندم لكلّ ما مرّ بي؟! أتراها تراني الوحيد القادر على انتشالها ممّا هي فيه؟!

بُهتُّ للفكرة التي انبثقت كسهم يطعن كلّ أمل. أيعقل أن تكون هذه نهايتها؟! أيعقل أنّها فقدت ظلّها؟! أيعقل أنّي لم أدرك لحظة خرجنا أنّها فقدته؟! أيعقل أنّ هذه الكلمات التي ردّدتْها بما يشبه الهذيان لا تعني إلّا نقيضها: الجنون؟!

أكان يجدر بي إخراجها من المقام بدون ظلّها؟ إنّما كيف كان لي أن أعرف؟! وكيف لي أن أُعيد ظلًّا غاب عن جسده؟! وإن كان أفسيقبله الجسد؟! ولِمَ أصلاً كان لكلّ هذا أن يكون؟!

انتفضتُ خارجًا، غير آبه لاصطدامي بزوجها، حاثًّا خطاي إلى داره. أخرجت الكتابين من مخبئهما وشرعت بعينين زائغتين أنقّب فيهما عن تفسير لحالتها وإكسير لما يمكن أن يكون.

باغتتني فكرة أنّي مجرّد حاوٍ غير قادر بعد على مقاومة الظلال،

وأنّني، لكي أهب لها النجاة، لا بدّ من الاستعانة بمن هم أجدر منّي؛ ومن غير جَدِّها وجَدِّه؟!

خرجتُ أهيم على غير هدى حتى بلغتُ المقبرة. كانت ليلة ليلاء، تجهّمت سماؤها بسحب كثيفة، انسفحت منها الأمطار غزيرة بحزن وقسوة، كتلك التي انسفحت يوم أن وقعتُ في ذلك «الكهف المنجوث».

وقفتُ أمام ما أحسسته ضريح معلّمي. ناشدتُه أن يدلّني على طريقة تعيد لحفيدته ظلّها. أحجمتُ حين تحوّل كلّ ما حولي إلى مجرّد صمت، حتى صوتي نفسه، حتى وقع المطر المنهمر وكأنّه مسلّط عليَّ.

قادتني خطاي إلى المقام. فإذا بي على مقربة منه زائغ الحواسّ، أشاهد انهياره، متطاير الظلال. أليس عقابًا لي أن أرى مقام ظلّها يتهاوى وأن أكون الشاهد الوحيد على ذلك؟!

رفعت يديَّ إلى السماء متضرّعًا بدموع أكثر حزنًا وألمًا من دموعها. ربّاه! ليس من عقاب تحلّه بي إلّا ما أحللتَ بها. فهل لي بهذا الرجاء عندك!؟

لم يعد لي من شيء أفعله سوى البقاء قربها مشرفًا عليها، مؤليًا ألّا أنصرف إلّا وقد تجرّعتُ من الآلام ما أستحقّ.

ألم تكن تلك الصرخة التي أطلقتُها، وهي بين ذراعيّ عقب خروجي من المقام، صرخة غرور جوفاء؟! أليس شعورًا زائفًا بالانتصار أن تعلن أنّك انتصرت؟! ألم تقل هي إنّ لذّة الانتصار في الصمت؟! إذن هي انتصرت، لا أنا.

أفقت غاية في الإنهاك على صوت ذلك الصبي القنفذ، يخبر سيّده أنّ مقام الولي الكبير قد تهدّم جرّاء الأمطار. هكذا خُيّل لهم، أمّا أنا

فقد أدركت أنّ الأوان قد آن ليكون مجرّد ضريح لا غير.

كانت الشمس تملأ المكان. انتفضتُ أؤدّي صلاتي متأخّرًا، محتجًّا على عدم إيقاظهم لي، وإن بدا لهم أنّني غير آبه، وأنّني فقط أحاول تحميلهم ذنبًا لم يجترحوه.

عرجتُ عليها، عسى أنّ كلّ ما كاد يودي بي في هاوية اليأس مجرّد فكرة ليس لها من أساس. كانت على أَمْسها، بل إنّ صاحبتها بدت منكفئة، كما كانت إلى جوارها، لم يبارحها البكاء. أخبرتني بصوت مختنق أنّ صاحبتها ظلّت تهذي هذيانًا متقطّعًا لم تفقه شيئًا منه سوى اسمي.

كان زوجها قد ذهب مع صاحبي للتسوّق ولم يعودا إلّا في وقت متأخّر من النهار. جلست طوال ذلك الوقت أناجيها بصمت، أودعها كلّ ذاكرتي، عساها تمنحني بعضًا من ذكراها. أتلو عليها بعض ما غمض عليَّ من كتابَيْ جدّها، فأستجليه منها. أحسستها مصغية بكلّ جوارحها، حتى إذا انتهيت وهممت بالخروج، كأنّي أسمعها تناديني من أعماق غيبوبتها سائلةً: «هل زال النور بكفّي، أم أنّ الظلمة أقرب منك إليَّ!؟ احملْ ما في قلبي من نور واعبرْ بي ظلمة دربك!».

رحت أقاطعها معتذرًا عن وعد أوردها الندم. لكن يبدو أنّني اقترفت خطأً آخر بمقاطعتي إيّاها، فطواها الصمت.

في المساء حاولتُ إقناع زوجها بالعزوف عن الذهاب بها مرّة أخرى إلى المدينة؛ لكن إصراره كان أكبر من قدرتي على الإقناع. أحسست وكأنّه يحمّلني مسؤوليّة ما حدث، طالبًا بجفاء أن أنصرف إلى بيته، لاحقًا بصاحبي ومخبرًا إيّاه أن يذهبا بها في الصباح.

عزمتُ على الذهاب معهم، والانصراف إلى حال سبيلي؛ علّي

أجد في ذلك عزاء، ليس لبقائي معها أن يهبني إيّاه، بل ربّما سيمنحنيه التيه والسير بلا هدى. كنت نهب حزن وهاجس وتعب أولجتني غيبوبة نوم.

رأيتني وقد عاد إليها ظلّها تشير إليَّ مودِّعة بكفّها النور متلاشية فيه. استيقظتُ فزعًا على طَرَقات قلقة أربكت الخيط الفاصل بين الظلمة والضوء، بين الوهم والحقيقة، بين النوم واليقظة. كان زوجها شاحبًا ينشج وهو يخبرنا أنّها قد ماتت.

ها أنا أقول ماتت، وبكلّ برود أردّدها! وكأنَّ الموت لا يستدعي منّي حتى بعضًا من دهشة. بل هل أقول إنّي لم أعطها حتى ذلك الهامش من الحزن الذي تستحقّ، رغم أنّها قد أعطتني الكثير؟! لا أظنّني مَنَّيْتُها حتى بذلك. أذكر أنّني سمعت أبي ذات يوم يحدّث أمّي، بعد أن فقد أخاه، قائلاً: «ليس من ألم يفوق ألم فقد الأحبّة». نعم، ليس من ألم يفوقه! إنّما لماذا تراني أنا على هذه الحال؟! أظنّها من أعطتني هذه القدرة على عدم إيلاء رحيلها ما يستحقّ من حزن.

أرسلتْ صاحبتُها في طلبي بعد انتهائنا من الدفن. أعطتني صرَّة مملوءة بكلّ كتب الجدّ، مخبرة إيّاي بأنّها وصيّة شيختي ليلة أن ذهبنا للمقام. هل كانت تتوقّع ما سيحلّ بها؟!

أيّ إقدام وأيّة تضحية اجترحتهما هذه المرأة في سبيل ذلك الحلم الذي آمنتْ به!

* * *

يتبادر إلى ذهني أحيانًا أنّ كثيرًا من الأوبئة والكوارث التي تظهر بغتة بين آونة وأخرى، ودون سابق إنذار، هي من صنع الظلال؛ وإلّا فما الذي يبرّر ظهور أوبئة جديدة لم تعرف من قبل، في وقت يزداد فيه

التقدّم العلمي في كافّة المناحي، وبالخصوص في علوم الأحياء والهندسة الوراثيّة؟! بل إنّ تلك الظلال كثيرًا ما تستخدم ذلك التقدّم لتنفيذ مخطّطاتها.

كثيرًا ما نسمع عن أمراض تفشّت في الآونة الأخيرة، أقلّ ما يمكن وصفها به أنّها انعكاس للحالة المتردّية التي بلغها العقل والنفس الإنسانيين. لكأنّ هذه الظلال لا تريد إلّا الاستخفاف بالجنس البشري لتثبت حقّها بأن تكون هي المسيطرة؛ وإلّا فمن أين وكيف يا ترى جاء مرض مثل الإيدز، يجعل الإنسان هشًّا ضعيفًا غير قادر على مقاومة هي من صميم تكوينه، وبالتالي البقاء؟! وكيف يمكن لها أن تجعل من البشر مجرّد متلقّين يصدّقون كلّ ما تقوله هي وأعوانها من جنون: عن مرض سلب البقر عقولها، مثلاً!! وعن آخر أصاب الطيور بزكام رشحت منه أنوفها، وراحت تستخدم المناديل المعقّمة لمنع انتشار العدوى...!! وآخر تلك التقليعات الظلّيّة فهي أنّ الخنازير أصابها الزكام هي الأخرى وأبت إلّا أن تذيقه البشر! الغريب أنّ كلّ تلك الأمراض مرتبطة ـ بشكل أو بآخر ـ بالإنسان، أو أنّه استحقّها؛ وبالتالي فإنّ تلك الحيوانات البريئة ـ إن صحّ أنّها أصيبت بأمراض كتلك ـ قد انتقلت إليها من الإنسان نفسه، بالعدوى أو بالتحضير المعملي. الغريب أيضًا أنّ مصدر تلك الأمراض هو بلد استولت عليه تلك الظلال عنوة، فجعلته البلد الأوّل على هذه الأرض. والأغرب أن لا مستفيد من تلك الأوبئة سواه؛ فهو يصنع المرض ويروّج له، ويصنع اللقاح المضادّ ويروّج لبيعه، وما على الآخرين سوى القبول بهذا وذاك!

إنّها حرب ضروس ضارية بين عوالم ظلال متمرّدة لها بشرها الخانعون، وعوالم ظلال مقاومة لها بشرها المقاومون. حرب لا تلوح في الأفق أيّة بوادر لنهايتها.

التغيّر الثامن

النهج

تمرُّ أيّام وأيّام وأنا معتكف في معتزلي ذاك لا أخرج منه، مصاب بلعنة الظلال، داء الكتابة، خشية أن أنقل عدواه للآخرين. إنّه أحد أقسى أمراضها، لا تصيب به إلّا مقاوميها، ولا شفاء منه، ولا تخفيف لعذاباته، إلّا به. إنّه يسلب الحياة ببطء لا يكاد ينتهي، وبه تنبض الحياة. ولذا ليس لي من ملاذ وسلوى سواه.

أحاول الانتهاء من مدوّني هذا، المزيج من وقائع وتهيّؤات وهواجس وحقائق وأوهام وأمنيات وأحلام وخيالات ومعارف و. . . كلّ ما في ذاكرتي المجهدة. إنّه الذكريات متداخلة ممتزجة مشوّشة، لشخص أنهكته خطاه ومرغته أقداره. ها هي كلماتٌ تعبر، أدوّنها كيفما اتّفق، قبل أن يطويها الصمت.

ترى أين أنتِ أيّتها الفكرة، أيّتها القدرة؟! لأقوى على بثّك في ذاكرة الأوراق، تلك التي لا يلحقها النسيان.

ها هي كلمات الجدّ في «المجنة» تتردّد فيَّ، وكأنّني مستقرّها:

«ها أنت تجتاز الهامش، توغل في الأنفاس. استفتِ الحلم كي تشرّع قدرتك الظلّ إلى ظلّ أجلى. ستراك، وأنت سليب الظلّ، تحدّق نحو سليب يحفر هيكله في الصمت. امكثْ ما شئت هناك إلى أن تجتاز غياهبه. غبْ في «الإشراقات»، و«كتاب الظلّ» الشرح، تتعلّم كيف تموّه نفسك عن ظلّك.

احملْ قلبك وارحلْ حيث أراد لك السفر المكنونْ حيث يمور الظلّ السافر بين حفيف الكتب المخطوطة في أرض التاج/ القبر. هنالك في جبل ذاوٍ يكسوه الثلج استجدِ الصبر/ الظلّ يدلّك من تعزوه أبًا على أولى الآيات. ابحثْ عن سرٍّ فيه لتدرك سرّك فيه، وغذّ خطاك إلى أرض النار، وقمْ في حوزتها. سوف يقلّك شاطئ ماء نحو الصحن الأشرف، حيث ينام من اختطت منياك يداه. عمِّدْ روحك في أطهر ماء. اسمُ في سدرة أرض الطُهْر، تصاعدْ في جلجلة الله، ثم اجتزه سريعًا، ليس سوى أن ترحل إلى بلد حاوره الله. ستدرك أنّ الأرض هنا كُتبت وهنا سيكون لها أن تمحى. يمِّمْ وجهك صوب الطور، واجْتز درب الآلام هناك. ستلوح لقلبك أمُّ الأرض، اسألها عن ابنٍ يشبه كلّ نبيّ. اجتزْ حُمرة ذاك البحر وعجِّلْ نحو البيت/ الروح. من حيث خرجت فعدْ تحدوك ذرى غمدان. ستراه هناك، خطاك خطاه فلا تسرقك الظلّة منه. اسدرْ نحو طبيعتك الأولى حيث تجسّد فيك الخوف. تمرّغْ بجنون محض. استنشقْ رائحة العشب المبتلّ. عفِّرْ وجهك بتراب بكر. تتحرّرْ منك.

اغربْ عن كلمات نثرتها الريح ولاكتها الأفواه. لا تنظر في بهرجة اللون. انظر في الذات. أن تنظر في الأشكال، عبثًا سترى، وهوامًا ستكون.

ادنُ من ظلّك حيث الروح تجسّد هيكلها كي تهوي فيك. سيقول الذات/ الظلّ: ألست أرى في قلبك قلبًا أودع فيه؟! فلا ترحل. ويقول

الظلّ/ الذات: أنا ما شئت من الأشياء فلا ترحل.

ستظنّك لحظتها أرهقت إلى ضدّين: الغامض أجلى، والصمت كلام. اتّبع أيّهما، سترى الكلمات أمامك قد حجبتك عن الوهج الفضّي. فحواه السطوة. فتجرّدْ من أحد ضدّيك، فيذوي بين يديك.

من حلمك تبدأ، في الحلم تغور».

ذلك ما أدركني في المقام. كلام فيه من العذوبة والسلاسة والرقّة الشيء الكثير. معانيه تنأى وتقترب، تلوح وتغيب، تلين وتستعصي؛ ما جعلني أسرح فيها مستغرقًا كلّ الاستغراق. أسلوب موغل في التصوّف كأنّما يهجس به ابن علوان أو السودي أو النفّري أو ابن عربي أو السهروردي... لذا أنهكتُ معه وأنهكته؛ لكنّه كان ينسيني من حين لآخر وجه شيختي الذي أراه في كلّ صفحة من كتب جدّها.

ولمّا كان لذلك الإيحاء مدلولات على ما سيأتي، فسأسمّيه «النهج».

* * *

تركتْ الأيّام الثلاثة التي قضيتها في «المحجوبة» حضورًا طاغيًا في كياني، لم تتمكّن الأيّام من محوه. وها أنا لا أزال أجد في جمال تلك المرأة إحدى المتع القليلة التي يلذّ لي الوقوف عندها إلى الآن.

٢ ـ كتـــاب الظـــلّ

أ) الإشـــــراق

غاية الخلاص التجرّد من التجرّد

الإشـــــراق الأوّل

الخلــوة

أفكار مشوّشة كثيرة تعصف بي منذ أن خرجت من «المحجوبة»، حتى أحسست كأنّما أنا معلق رأسًا على عقب، أو عالق في متاهة لا أجد لها من نهاية. لذا لم يكن بدٌّ من أن أترك هذا البحر اللجّي من الطلاسم يقودني أنّى شاء.

كنت متحرّقًا لمن علقت أقدارهم بي: زوجتي وطفليَّ. انقضى ما يزيد عن السنة وأنا غائب عنهم، ليس بيننا سوى بضع مكالمات هاتفيّة متباعدة لا تسمن ولا تغني من جوع. وإذن لا بدّ من زيارتهم، ولو بشكل خاطف، خصوصًا ولم تصلني إشارة تحدّد وجهتي القادمة.

كان المساء قد خيّم حين بلغنا إحدى المدن الصغيرة. ما كان بحوزتي من المال أودعته صاحبة شيختي لتتصدّق به، فكان لا بدّ من المبيت حتى يفتح البنك أبوابه، فأنقد صاحبي أجرة سيّارته، وأدفع تكاليف المبيت، وآخذ مبلغًا على سبيل الاحتياط لتغطية ما يطرأ من احتياجات.

أردت توديعه في الصباح راجيًا ألّا أكون قد أثقلت عليه، وأنّنا

سنلتقي حتمًا ذات يوم، عازمًا على أن يذهب كلّ منّا في حال سبيله. أصرّ على أنّ وجهتنا واحدة، وأنّه سيقلّني ولو بدون مقابل.

بعد نصف ساعة من تحرّكنا اجتزنا سهبًا واسعًا جعلني أستغرق في مخاطر ما أعتزم القيام به. غلبني النعاس ونحن نرتقي طريقًا جبليًّا متعرجًا شديد الانحدار. رأيتني أرتدي قميصًا أبيض مهلهلاً، راجلاً أجتاز أرضًا منبسطة يكسوها القتاد، صوب مبنى أبيض تعلوه قبّة بيضاء كبيرة، يشبه إلى حدٍّ كبير مقام الولي الكبير في «المحجوبة»، وإن كان أكبر منه كثيرًا. درت حوله أبحث عن الباب، دون جدوى. رحت أتحسّس أحد الجدران متعجّبًا، فإذا بكفّي تخترقه. مددت ذراعي الأخرى فاخترقته. اجتزت ليغشاني إعصار من نور، مهومًا بي بشكل لولبي في الهواء، تحوّلتُ معه فيضَ نور متوهّج يغشى المكان. أتلفتُ وأطياف ظلال رماديّة تحفّ بي وتحطّني برفق واقفًا أصلّي بين يدَيْ محراب فضّي. راحت تصطفّ، كأنّما تأتمُّ بي، حتى إذا ما سلّمتُ منتهيًا من صلاتي لم أر شيئًا.

أفقتُ مذعورًا. كانت السيّارة تجتاز منحنى يطلّ على سهل صغير ينتهي مداه بمبنى كأنّه ذلك المقام في الحلم. أشرت لصاحبي بالتوقّف. ترجّلت أمضي نحو ذلك المبنى، لا أشعر بالأرض، وكأنّما كنت تحت تأثير سحر ما أو منوّم مغناطيسي. لا بدّ أنّها الإشارة التي كنت بانتظارها. كان طريقًا طويلاً قطعته في أكثر من ساعة. كان ذاته كما في الحلم، إلّا بابه الخشبي المتين. من الواضح أنّه مقام وليٍّ لا يزال الناس يختلفون إليه، إلى وقت قريب. حاولت فتحه إلّا أنّه كان مغلقًا بقفل حديدي صدئ ليس صعبًا كسره. عدت أدراجي، معتزمًا المكوث فيه بعد أن نذهب إلى أقرب سوق للتزوّد بمتطلّبات الإقامة في مكان مقفر كهذا، مرجئًا زيارتي لأسرتي حتى الانتهاء من هذه

الإشارة. لعلّ أوان رؤيتهم لم يحن بعد.

* * *

يا لسرعة توالي الأحداث! إنّه أوان الاختلاء والاعتزال وتعلُّم ما يمكن تعلُّمه هنا.

عند أوّل حانوت استفسرنا عن ذلك المقام. أجابنا العجوز الطاعن، وقد اشترينا منه بعض الحاجيات، بأنّه ضريح وليٍّ قديم توفي منذ ما يزيد عن مائتي عام، يقال له «مسلوب الظلّ»، وأنّه قد عُزف عن زيارته بسبب ما أشيع عن رؤية أناس يخرجون من هناك بدون ظلّ. كما أنّ عددًا ممّن سألناهم لم يكونوا يعرفون عنه سوى ما دوّن على مشهد ضريحه بنحت عفا عليه الزمن، وإن لم يمحه تمامًا، مقتصرًا على تاريخ وفاته ولقبه الغريب ذاك.

شيء غريب أن تندثر ذكرى شخص له مقام كهذا! لكن كيف تظلّ ذكرى من لا ظلّ له!؟ عرفت لاحقًا أنّه من المقاومين، وأنّ ما حلّ به جزء من عقاب تطهيري على ما أسلف من حياة. وأيًّا كان الأمر فقد اختير مقامه مقرًّا لخلوتي؛ فأنا أحتاج أوّلاً وقبل كلّ شيء إلى تطهير.

قبيل المغيب تمكّنا من فتح الباب. نقلنا الحاجيات والكتب بعد أن عثرنا على طريق مختصر وصل بالسيّارة إلى أقرب ما يمكن. استغرقنا ننظّف المكان. فراشان ولحافان للنوم، سجّادتان للصلاة، وأشياء أخرى: شمعدان وبضع دزّينات شمع وبضعة أقلام ودفاتر ومستلزمات شخصيّة... أمّا الزاد فلم يزد عن تمر وماء.

قد يتساءل البعض عمّا إذا كنت أحمل أو أستخدم أيًّا من وسائل الاتّصالات الحديثة، كالهاتف النقّال مثلاً. والحقيقة أنّها من الوسائل التي تستخدمها الظلال والظلاليّون، لفرض سيطرتهم وإحكام رقابتهم

على الآخرين. يجعلني هذا على يقين من أنّ أجهزة المخابرات وشركات الاتّصالات إنّما تعمل لدى الظلال المتمرّدة وأعوانها. فضلاً عن ذلك فإنّي أتنقّل في مناطق نائية ليس من السهل فيها حمل ولا استخدام أدوات كهذه. هذا لا يعني أنّني لم ولن أستخدمها؛ ولكنّ المؤكّد أن ليس أوانها الآن.

بتُّ تلك الليلة رفقة صاحبي بعدما أصرّ على أن يتأكّد من صلاحيّة المكان للإقامة. اتّفقنا على أن يأتيني مرّة كلّ أسبوعين يزوّدني بما أحتاجه.

ليس من الصائب ولا اللائق الشكّ في كلّ شيء؛ لكنّه طبعي، وفي ما مرّ بي ما يجعلني كذلك، حتى أصبحت موقنًا ـ مع إيماني بالقدر ـ من أنّه (الشكّ) صاحب الفضل في بقائي على قيد الحياة حتى كتابة هذه السطور.

قد يتبادر للبعض أنّني واقع في إسار أفكار عدميّة فوضويّة؛ ولكن، أليست هذه الأفكار ما يشعرنا بالتمايز، بالتحرّر من روح القطيع المسيطرة على غالبيّتنا؟! أليست روح القطيع ما يجعلنا، نحن الأشخاص المستقلّين، ننقاد بلا وعي وراء أيّ سلوك جماعي، حتى لو كان وهمًا؛ كأنْ نفرُّ إن رأينا على حين غرّة أناسًا يفرّون، دون حتى أن ندرك السبب؟! ننجرف وراء تلك الروح، ونستهجن أنفسنا لاحقًا، دون أن يكون هناك من داع لانجرافنا ولا لاستهجاننا. إنّ معظم من يصمهم الخاضعون بـ «غرباء الأطوار» هم من يجترحون معظم التغيّرات الحياتيّة، إيجابيّة كانت أم سلبيّة. وإن صادف واجترح بعضها من يدّعون أنّهم «أسوياء»، فذلك هو الاستثناء الذي يؤكّد القاعدة. ليس من شيء أسوأ من التقليد. إنّه الطريق الأيسر المفضي على الدوام إلى الجمود. إنّ المقلّدين أشبه ما يكونون بهوام لا كيان لها، رغم كثرتها، ولا نفع.

الإشـــــراق الـثــانــي

يحملني هذا الظلّ أنّى شاء... يحملني... أحمله... لا فرق!

كان أوّل أسبوع أسوأ أيّامي هناك. استبدّ بي قلق غامض مضجر، لكأنّما ضاقت عليَّ الأرض بما رحّبت، ما جعلني أهمّ كثيرًا بمغادرة المكان، بل والانسحاب من المهمّة برمّتها، لولا خوفي على عائلتي من انتقام الظلال، أزيد إليه إصابتي بنزلة برد شديدة طرحتني الفراش حتى تأقلمت.

إنّ هدف الظلال المتمرّدة هو بسط سيطرتها على عالم البشر، وجعله مجرّد صدى لعالمها. تريد أن تسحب منه قدرته على التخيّل والإدراك والحلم، ليصبح عالمًا بهيميًّا خانعًا، لا روح فيه ولا إدراك، فاقدًا القدرة على الإحساس أو التمايز أو التنظيم أو التخيّل. لا أقول إنّ هذه هي أهداف كلّ عوالم الظلال؛ وإلّا لكانتْ قد نجحتْ في تحقيقها منذ أمد بعيد؛ ولكنّها أهداف الظلال البيضاء فحسب ومن خضع لها وحذا حذوها من الظلال الرماديّة.

إنّ عالم الظلال عمومًا ناتج عن نوعين من الظلال البشريّة المنفصلة عن أجسادها عند وفاة أصحابها. نوع انفصل بموت فجائي،

كمن أزهقوا بفعل فاعل أو أطفالاً أو عرضًا، كحوادث السيّارات والغرق مثلاً؛ وباختصار: من أزهقوا دون أوانهم ودون أن تقتنع ظلالهم بأنّهم حقًّا قد عاشوا، فَتَشْرُدُ متمرّدة رغبة في مواصلة حياتها المسلوبة والانتقام من كلّ ظلّ حيّ. تلك هي الظلال البيضاء.

أمّا النوع الثاني فالظلال التي انفصلت عن أصحابها إثر وفاة طبيعيّة، سواء تقدّمًا في السنّ أم من عافوا حياة انتهبتها الأمراض والعلل. هذا النوع يسلّم بالأمر ويرغب في مواصلة حياته دون أيّ اعتراض. وهذه هي الظلال الرماديّة.

وبكثير من التآلفات أصبح كلٌّ منهما عالَمًا مستقلًّا خاصًّا بمعزل عن عالم البشر، بل بعدما كانا قد شكّلا مجلسًا أعلى كانت الغلبة فيه للظلال الرماديّة، الأكثر عددًا، على الرّغم من شعور الظلال البيضاء بأنّها المتسيّدة، باعتبار أنّ أوّل ظلّ منفصل ينتمي إليها. وأخذ يتنامى عندها ذلك الشعور حتى شكّل شرخًا يتّسع باطّراد.

مرّ الوقت وتكاثر ذلك العالم وتفشّت المصالح والأطماع وتكوّنت التحالفات، فكان من المحتوم انسلاخه إلى كيانين متباينين: كيان يدعو إلى السيطرة على الأرض وعلى مقدرات البشر وطمس هويّتهم، وتحويلهم إلى مجرّد حاضنات أو فقّاسات وظيفتها الوحيدة رفد هذا العالم بمزيد من الظلال. وكيان يدعو إلى الاقتناع بكونه مجرّد ظلال، ولا يحقّ له التدخّل في ناموس وجودها.

حاول مجلس الظلال الأعلى طويلاً رأب الصدع والمواءمة بين الكيانين، فلم يفلح، ما جعله ضعيفًا، وسول للظلال البيضاء تكوين مجلس خاصّ بها، معلنة الانسحاب من ذلك المجلس العاجز عن تلبية عالم الظلال، أو هو الرافض له.

وجدتْ دعوتها صدى لدى معظم جنسها، بل ولدى قلّة من الظلال الرماديّة، فنشبَ الكثير من المعارك بين الكيانين، لم تسفر عن غلبة أيّ منهما. كان لا بدّ لكلّ كيان من البحث عن تحالفات مع عالم البشر. ولأنّ المبدأ عند الظلال الرماديّة هو انتهاج أساليب غير ملتوية، فلم تحظَ إلّا بقلّة قليلة من البشر، سمّوا أنفسهم «المقاومين». أمّا الظلال البيضاء فقد جعلتها رغبتها في الانتقام تسلك طرقًا ملتوية، لتضمّ إلى صفّها الكثير من البشر أعوانًا. هكذا صارت الغلبة في معظمها للظلال البيضاء، فسيطر أسيادها على الكثير من مفاصل وتكوينات عالم الظلال، متّبعين الأساليب ذاتها التي علّمهم إيّاها حلفاؤهم من أسياد الجنس الأبيض المسيطرين على معظم عالم البشر.

لم يجد مجلس الظلال الأعلى، الذي لم يعد يمثّل سوى قلة قليلة من الظلال الرماديّة تجتمع في الخفاء، إلّا أن ينبّه حلفاءه المقاومين إلى خطورة الأمر، ويدلي إليهم بما يمكنهم على الأقلّ من التصالح مع ظلالهم الحيّة وكسبها إلى صفّهم في مقاومة ذلك المشروع، وهو ما ضنت به الظلال البيضاء على أعوانها، ربّما لئلّا يكونوا حجر عثرة أمام أطماعها التي لن تنتهي إلّا بالسيطرة التامّة على كلّ عالم البشر.

كانت المقاومة في البداية فرديّة هنا وهناك، تعتمد على تكثيف المعارف الماورائيّة ونقلها من المقاوم إلى تلميذه، عبر مدوّن اصطلح المقاومون فيما بعد على تسميته «السِّفْر». يمضي التلميذ في تشرُّب كتاب أستاذه، حتى يصل إلى مستوى عال من المعرفة. عندها يقوم بتأليف مدوّن يحوي خلاصة ما تشرّبه من ذلك الكتاب، إضافة إلى معارفه الخاصّة التي اكتسبها، ثم يورثه أنجب تلامذته، مع التخلّص من كتاب معلّمه، حرقًا في طقس مهيب. هكذا تراكمت معارف مكثّفة راح يتوارثها المقاومون، المشتّتون في الأصقاع، ليزدادوا كثرة جيلاً إثر

آخر. ولمّا أن كان ما كان من صراع بين عالم الظلال، ومن أمر تلك التحالفات التي أبرمها كياناها مع البشر، بدأ الصراع على الأرض يأخذ طابعًا آخر. ولأنّ المقاومين هم دائمًا قلّة قياسًا بخصومهم؛ فقد زادهم ذلك الصراع قلّة على قلّة ورهقًا على رهق. استغلّ أعوان الظلال البيضاء (الظلاليين) ذلك وبدأوا يكيلون لهم الضربات تلو الضربات، منتهزين تشرذمهم وتفرّقهم في كلّ واد. شعر المقاومون بالخطر المحدق بهم، بعد تساقط الكثير منهم دون أن يتمكّنوا من انتقاء أو تهيئة تلامذتهم. فتداعوا إلى اجتماع سرّي في بلد أكبرهم سنًّا يتدارسون الأمر. دعا المجتمعون إلى ضرورة تشكيل كيان جامع يوحّد قواهم ويلُمُّ شعثهم. كان أن خلصوا ـ بعد شدّ وجذب ـ إلى تكوين رابطة سرِّيّة، عرفت بـ «رابطة تحالف المقاومين»، تضم المقاومين من شتّى الأصقاع. شكّلت الرابطة مجلسًا أعلى، يضمّ ثلاثة عشر ممثّلاً يجتمعون دوريًّا، ويتداولون رئاسته. كما عملت على تشكيل فروع إقليميّة في المناطق والبلدان الأكثر كثافة وصراعًا.

وفي اجتماع لمجلسها الأعلى مع من تبقّى من مجلس الظلال الرماديّة، المتناقص أعضاؤه باستمرار، تمّ الوقوف أمام ما استجدّ، وتبنّي نهج المقاومة المقدّم من قبل مجلس الظلال الرماديّة، وتشكيل مجلس موحّد ضمّ المجلسين، سُمِّي «مجلس تحالف المقاومين».

خاض «مجلس تحالف المقاومين» مواجهات ضارية مع مجلس الظلال البيضاء وأعوانها، وضعت حدًّا ما لأطماع ذاك المجلس وأعوانه. غير أنّ ما فَتَّ في عضده هو تقوّض مجلس الظلال الرماديّة وانسحاب من تبقّى من أعضائه، مؤثرين الحياد؛ إلّا رئيسه.

كان لا بدّ لرابطة المقاومين من دعوة كافّة أبنائها إلى اجتماع طارئ، استعرضت فيه تضاعف المهمّة الملقاة على عاتقهم، وتدارس

الآليّات المستقبليّة التي تمكّنهم على الأقلّ من حماية نهج المقاومة من أيّ اختراق أو اندثار.

إحدى تلك الآليّات كانت أن يقدّم كلّ عضو خلاصة مدوّنه إلى المجلس الأعلى، على أن يقوم المجلس بدراستها والخروج إلى كافّة لغات الأرض بمدوّن عامّ مرمّز، نسختين لكلّ لغة، تحفظ إحداهما في المجلس. بعد ذلك يقوم رئيس مجلس الظلال الرماديّة بإضافة خلاصة معارفه ونسخ المدوّن إلى لغة الظلّ، وإخضاع الأعضاء الثلاثة عشر ـ تحرّزًا ـ لامتحانات معرفيّة مكثّفة، تؤهّلهم لأن يكونوا معلّمي ظلّ. هؤلاء وحدهم من البشر هم من يفهمون لغة الظلال، على أن يورثوها إلى من سيليهم من الأعضاء، كلٌّ بحسب درجته واجتيازه تلك الامتحانات التي دوّنها سبعة منهم في كتاب سمّوه «الإشراقات».

أمّا مدوّن الظلّ ذاك فلسبب ما ـ لعلّ له علاقة بمدوِّنه! ـ سمّاه المجلس «الجفر»؛ وإن كان للنسخة المدوّنة بالعربيّة مبرّرات للتسمية سترد في كتب بعض الأقطاب من أهل الولاية، الدائمي الظلّ والمقدّسي السرّ، سنذكرها في أوانها.

الإشـــــراق الـثـالـــث

الخلود إلى النفس أقصر طرق المعرفة

كم من التهيّؤات يمكن أن يخلقها بقاؤك وحيدًا في مكان مقفر، مصابًا بالحمّى، ومنكبًّا على كتب تملؤك بالحيرة والتيه والتشتّت لمجرّد تحسّسها؟! لكأنّ كلّ شيء هنا كان بانتظار رحيل صاحبي وانصرافه إلى حال سبيله، حتى انقضّ عليَّ بكلّ ما للصمت من شراسة وضجيج. تراءى لي أنّني وجسدي جسدان، وأنّني أرى نفسي كلّ ما أراه: فضاءً، محرابًا، ضريحًا، صلاة، جدرانًا، كتبًا، أطيافًا، ظلالاً، ظلمة، نورًا... بل وحتى خيالاً. كنت نفسي وشيئًا آخر. كنت كلّ شيء ولا شيء. كنت نومي في الصحو، وصحوي في النوم.

كيف لمجرّد حمّى أن تصنع بك كلّ ذاك؟! لكن أهي الحمّى؟! أم هو المكان؟! أم هي الظلال التي أؤمّها دونما صلاة؟! أم هي الكتب التي رأيتني فيها ظلالها؟!... أم أنّه كلّ ذاك؟!

ها أنا أبل من مرضي، أو ممّا لعلّه الثمن الذي لا بدّ أن يدفعه كلّ من تسوّل له نفسه خوض خضمٍّ كهذا! لا أدري أهي الأشياء التي كنتها عادت إليها كينونتها المستقلّة، وعادت مجرّد أشياء ليست إلّا ذاتها

فحسب! أم هي الحمّى أشفقت أخيرًا وذهبت!

ما أعيه أنّني أفقت على وجه صاحبي، من خلفه انفتح الباب على أفق يتهيّأ لشيء ما، هو وقت احتقان الليل والنهار؛ إمّا لشروق وإمّا لغروب. استغربت كثيرًا عودة صاحبي؛ فحين تواعدنا خامرني شعور بأنّي لن أراه مرّة أخرى. إنّما ها هو ذا، بعد فترة ـ سأعرف منه أنّها ثمانية أيّام ـ يعود كما لو كنت له قريبًا أو عزيزًا.

ابتسم مازحًا أنّه لم يجئ قاصدًا زيارتي لولا سيّارته التي تعطّلت على مقربة من هنا. ابتسمتُ بدوري، وهاجس ما يخبرني بأنّ تعطل سيّارته لم يكن محض صدفة، بل هو إيذان بخلاصي من تلك الحمّى. لو كنت مكانه لما فعلت ما فعل، وأجزم أنّني كنت لأنساه عند أوّل منعطف، بل وربّما سخرت منه إن تذكّرته يومًا ما. ها هو يغادر بصمت كما أتى؛ وإن اتّفقنا على أن يعاودني كلّ أسبوعين ليوافيني بما أحتاج.

أشرعت وجهي أتنسّم ضوع الفجر، أسيح في أرجاء المدى المحيط بالمقام، حتى اتّحدت به.

أوحى لي الجوّ المشرق بأن أستفتحه بكتاب «الإشراقات». ليس الجوّ فحسب، بل وشيء داخلي يهجس أنّ معلّمي يقول هكذا. ولأنّ الكتاب بدا لي نهجًا عامًّا لما يتوجّب أن أقوم به في هذا المكان، فقد أحسست بحاجتي إلى الكثير من التفاصيل الموضحة. ولأنّ معلّمي أردفه بكتاب ظلّه فقد رأيت أن أستنجد به وأستشرقه، موقنًا أنّ به ما يزيل اللبس. نعم، كان فيه من التفاصيل ما جعلني قادرًا ليس فقط على فهم «الإشراقات» بل وعلى تطبيق متطلّبات منهجيّته. فكتاب «الإشراقات» حين يتحدّث عن بلوغ القدرة يشرطها مثلاً بطقوس يوميّة متداخلة متفارقة أقرب إلى التمارين، تبتدئ بالتأمّل والتركيز، فالتجرّد، فالتطهّر، فالتحرّر، فالاقتدار، دون أن يكشف عن كيفيّة أداء تلك التمارين، وهو

ما وجدته في «كتاب الظلّ». غير أنّ كلا الكتابين كثيرًا ما يحيل إلى كتب أخرى، كان معظمها لديَّ، وعدد منها طلبته من صاحبي.

اتّبعت نظامًا غذائيًا صارمًا، يعتمد التقشّف والتقنين التدريجيين، فقد كان ذلك متطلّبًا آخر من كتاب «الإشراقات»؛ كونه أحد التمارين الأساسيّة لبلوغ حالة الصفاء الذهني والروحي والجسدي، اللازمة لأداء طقس التركيز المتأمّل، أوّل تمارين القدرة. هي تمارين متدرّجة، البغية منها تكثيف كلّ حضور روحي وذهني وجسدي، استعدادًا لبلوغ الحضور الكلّي؛ ذلك الحضور الذي تصبح فيه كلّ الأشياء شيئًا واحدًا، وكلّ الأحلام حلمًا واحدًا، بل وحتى أنا أصبح ذات أنا.

كان اختلاف صاحبي إليَّ يُدخل السكينة في نفسي ويمدّني بعزم إضافي للاستمرار. هذا بالإضافة إلى أنّه يزوّدني كلّ ما أحتاجه في هذا المدى المقفر. كنت أشعر أنّ سكوته طويلاً يثقل عليه، وهو الشخص الذي قلّما يتوقّف لسانه؛ ولكنّه كان حريصًا على ألّا يجترح ما قد ينغّص خلوتي، أو يشوّش عليَّ ذلك الذي يظنّه غيابًا، مبديًا تحمّلاً طالما شكرته عليه في سرّي.

إنّ حضورًا كلّيًا للنفس والجسد والوجدان والأحلام، بل وحتى الأوهام، هو الغياب التامّ، وهو الهدف المنشود من تلك التمارين. هو ما لا غنى عنه لمن ينشد التوازن؛ التوازن بصيغته الكلّيّة أو بروحه المطلقة. التوازن هو السبيل الأنسب والأقرب لإدراك الأشياء على حقيقتها؛ به يتماهى الظاهر والباطن. به يصبح المرء مؤهّلاً لخوض تمارين التحرّر اللازمة لبلوغ القدرة. والقصد من تمارين التحرّر ـ كما هو عند معلّمي ـ تنقية النفس منها، تجريدها من الرغبات، وأوجها في التلاشي. لكن، أيّ نفس تلك التي بإمكانها التحلّل من الرغبات، أو بصورة أخرى وأدقّ: من نفسها؟ بالنسبة لي أظنّها نفسًا أخرى، ليست

للإنسان؛ فالنفس، لكونها نفسًا، ما هي إلّا محض رغبات، إن نزعناها نزعناها. لا بأس من التحرّر ممّا نستشعرها رغبات أنانيّة، استئثاريّة حتى بما لا تستحقّ، نفعيّة حتى مع من تحبّ. لكنّ المقصود هنا أن نتجرّد ممّا نستحقّ وما لا نستحقّ، مع من نحبّ ومن لا نحبّ. هو التحرّر ممّا يسمّى «الأهواء»، ومنه ـ وهو الأهمّ ـ التحرّر من الإحساس بدونيّة الآخر، سواء كان لذلك الإحساس ما يبرّره أم لا؛ لأنّه ليس إلّا غرورًا يقود إلى الكِبْر المودي بالنفس.

إنّه النظرة المزدرية لكلّ ما حولها؛ الحقد هو، والضغينة والتزلّف والتنطّع... يا لهذا المتكبّر! كم هو لا شيء!

التطهّر لا يعني التنصّل من تلك الرغبات المتأجّجة في الجسد؛ إنّها رغبات لا تجوع إلّا لكي لا تشبع، عكس تلك التي لا تشبع إلّا لتجوع، وهي ما لا بدّ لنا من التطهّر منه.

معظم الكتب التي طلبت من صاحبي إحضارها صوفيّة متعلّقة بمناهج وأساليب الزهد والتقشّف ومغالبة الأهواء، بالإضافة إلى الكتب المقدّسة للديانات السماويّة الثلاث وبعض الديانات الأخرى، «البوذيّة» و«الطاويّة» و«الزنيّة» و«الهندوسيّة» و«الكنفوشيوسيّة» و«السيخيّة» و«الزرادشتيّة»، التي قد تعينني على بلوغ القدرة أسرع، بالإضافة إلى بعض من كتب «اليوغا» وكتب روحيّة أخرى تعنى بالسيطرة والتحكّم بالجسد. كنت معنيًّا بالتآلف بين قوى الروح اللانهائيّة وقوى الجسد المحدودة، لبلوغ الإطلاق؛ وإن كان ذلك ليس بالميسور إلّا لمن هو مهيّأ أو متوائم مع إرادته.

قلّلت أيضًا من فترة نومي نومًا فنومًا، حتى لم تعد تتجاوز الأربع ساعات، مفسحًا لي متّسعًا ضئيلاً لم يكن يسمح به برنامجي المكثّف، أقضيه مع الكتابين بلذّة القارئ، لا الطالب. كانت المرّة الأولى التي

أشعر فيها بازدحام الوقت، حتى تمنّيت لو أنّ لليوم ساعات أكثر، أو أنّ ذاك المسمّى نومًا لم يكن.

ألجأ حين يهدّني التعب للسكون وتهدئة الحواسّ المستنفرة، مستغرقًا فيها، فينزاح عن جسدي كلّ ذاك. أنهض في الثالثة والنصف صباحًا. أتوضّأ مقيمًا صلاة الليل في ربع ساعة، ثم أبدأ بتلاوة بضع آيات من القرآن أو من كتابَيْ السماء الآخرين، حتى الفجر. أؤدّي صلاته، وأتبعها بدعاء.

كثير من الأدعية المكتوبة أو المحفوظة التي تتلقّفها الأنفس وتلهجها الألسن، أصبحت هذيانًا لا يقصد به خشوع وتضرّع، بقدر ما تحوّل إلى طقس متكلّف لا تلهج به عاطفة ولا تتشرّبه روح. الدعاء إن لم يكن نابعًا من الأعماق، دون أيّ تنميق، وكيفما ترجمته الحاجة، ليس إلّا سأمًا تتجرّعه النفس، دون أن يتجاوزها، بل هو أشبه ما يكون بالنفاق الذي تأباه الروح فتتكلّفه الحواسّ.

عند أوّل إشراقات الصبح أخرج متفيّئًا ظلال «طولقة» تبدو في عمر هذا المقام أو هي أكبر. لا أدري، فلستُ خبيرًا بأعمار الكائنات، وإن كنت أستشعر أنّ تلك «الطولقة» قادرة على البوح بكلّ ذلك الذي شهده عمرها المديد، بل وراغبة.

أفتتح أولى جلسات التأمّل والتركيز، بدءًا بتمرين التنفّس ثم الاسترخاء ثم الجمود والاستغراق التأمّلي. أنتهي عادة في السابعة والنصف. أتناول إفطارًا خفيفًا: بضع تمرات وكوبًا من الماء. أبدأ بعدها ثانية الجلسات مع كتاب «الإشراقات» و«كتاب الظلّ» الخاصّ بمعلّمي، وهي جلسة تجرّد تنتهي عادة في التاسعة، أو التاسعة ونيّف. أترجّل بعدها إلى نبع ماء يقع على مسافة ثلث ساعة، أنعش جسدي بمياهه العذبة الباردة، وأبدأ معها جلسة تطهّر، ولا تأتي العاشرة إلّا وأنا

في المقام. أقرأ في كتاب أو كتابين من الكتب الأخرى؛ وخصوصًا تلك التي نجت من الحريق، ولا أنتهي إلّا أوان صلاة الظهر. أشرع بعدها في تناول وجبة غداء خفيفة، تليها قيلولة لا تتجاوز نصف ساعة. بعدها أبدأ جلسة خلاص تنتهي عادة في الثالثة، موعد صلاة العصر. أقرأ وأخوض ضروبًا من فنون السحر والحيل. في الرابعة أبدأ جلسة تحرّر تستمرّ حتى غروب الشمس. وما بين صلاتَيْ المغرب والعشاء أخلد إلى حواسّي. أدخل بعدها آخر الجلسات وأشملها: جلسة الاقتدار، والتي تشمل كلّ ما سبق وتمكّنني من امتلاك قدراتي والسيطرة عليها تدريجيًّا. أنتهي منها في العاشرة والنصف. بعدها أتناول وجبة العشاء، وأشرع في قراءة كتابي «الظلّ» و«الإشراقات». في الحادية عشرة والنصف أكون قد استغرقت تمامًا في النوم لأستيقظ عند الثالثة والنصف... وهكذا دواليك.

ها أنا، بما بذلته من جهد خلال فترة وجيزة لم تتعدّ أشهرًا ستّة، أجتاز مفازات ثلاثًا شاسعةً، من أصل أربع هنّ مفازات الزهد والورع والتقوى والتوكّل، غايتها السيطرة على النفس. لم يتبقّ أمامي سوى مفازة التوكّل، الأكثر بونًا ومنعةً في درب الحكمة، والتي إن تمكّنت من قطعها فسأمتلك القدرة على ألّا أظلّ أنا، وعلى أن أضلّل عنّي حتى الظلّ. وبتلك المفازات الثلاث أكون قد انتهيت من تمارين الإرادة، منتقلاً إلى تمارين القدرة التي ستمكّنني منها المفازة الرابعة، وسأكون حينها قد بلغت مرتبة الاقتدار، ما يوازي مرتبة الحجّة والآية والقدّيس.

قد لا يعني العزوف عن الشيء عدم الرغبة فيه، بل كثيرًا ما قد يعني اللهفة إليه. وكثيرًا ما يكون التمنّع دفعًا بالنفس عن أن تقع في إسار ذلك الشيء، حفاظًا على مكانته لديها؛ وبصيغة أخرى: إيثار الابتعاد عمّن وعمّا نحبّ، حفاظًا على الحبّ ذاته. إنّها الخشية عليه منه ليبقى مشرقًا فينا. كما أنّه (العزوف) قد يكون من قبيل التلذّذ بترك شيء قريب

المنال منّا، رغبة في تعذيب الذات والمنّ عليها.

ليس من السهل على من لم يمرّ بما مررت به، ويوهب من ناصية الحلم ما وُهبته، أن يدرك مكنون «الإشراقات»، خلاصة حكمة المقاومين. إنّها الرؤى ألهمتني، ساقتني إلى القدرة.

قد نكون اكتسبنا - نحن البشر - بعض القدرة على تطويع المادّيات. قد نكون سطونا على خصائصها، وسخّرناها لمصالحنا ومطامعنا! لكنّ الأكيد أنّنا افتقدنا مقابلها جزءًا من أرواحنا، من كانت تخترق حدود الإدراك، تخترق الوعي إلى اللاوعي. إنّها القدرة على النفاذ إلى الماورائيّات، حيث الروح تتجسّد بكلّ حقيقتها.

هذا ما اجتذبني الحلم إليه، فاجتزت كياني ممتزجًا فيه ظاهرًا وباطنًا. الحواسّ والمشاعر والأحاسيس والأحلام والتهيّؤات والأوهام والأفكار والخيالات غدت كلًّا واحدًا لا انفصام له.

تداخلت فيَّ الحجب.

تلاشت عنّي البرازخ.

أشرقت فيّ الحقيقة.

أنا الاشتياق للتحرّر، والتوق للخلاص. أنا الفراق والاستغراق في العشق في آن واحد. أنا الفناء في الحبّ، الرحيل في الذات، التمرّغ في الشوق، الغياب في الذكرى... أنا رحلة الانعتاق النهائي من ربقة الأغلال المكبّلة لروحي.

* * *

أمارات الأسى تزداد ارتسامًا على وجه صاحبي. كنت أراني في عينيه أكثر تضاؤلاً عقب كلّ زيارة، حتى لأكاد أمّحي فيهما. كلّ تلك الفترة وأنا منشغل عنّي بي. نحول على نحول، حتى كأن لم يعد من

شيء يدلّ عليَّ سوى وميض يزداد تألّقًا في عينيَّ فتعرفني به عيناه. لكن ذلك كان أقصى ما يمكن لعينيه أن ترياه. من أين لهما رؤية ما لا قدرة للحواسّ عليه؟! وكيف لهما يا ترى أن تتمكّنا من إدراك ما كنت أبلغه من إشراق؟!

للمنازل كما للكائنات الحيّة أرواح تشعر وتتأثّر وتتفاعل مع قاطنيها. تحزن إن حزنوا، وتفرح إن فرحوا. تتهالك إن هُجرتْ وتتنكّر لهم إن تنكّروا لها. لذا نصف منزلاً ما بالحزين وآخر بالسعيد وثالثًا بالمخيف ورابعًا بالحنون وهكذا... وكثيرًا ما قد توحي المنازل لزائريها بانطباعات أوّليّة لا تتبدّل إلّا باعتيادها، كأن يشعر أحد بالودّ والارتياح تجاه منزل ما، وبالنقيض تجاه آخر، أو كأن يشعر بمشاعر متناقضة نحو المنزل نفسه، فيحنّ إليه في وقت ولا يطيقه في وقت آخر. ذلك ما تخلقه الألفة؛ لذا يتطلّب التأقلم مع منازلنا الجديدة وقتًا طويلاً، وهو ما لم يحدث لي مع هذا المكان، الذي بالرّغم من التغيّرات الهائلة التي اعترتني فيه، فقد اعتدته دون أن آلفه. وشتّان ما بين الاعتياد والألفة.

مرّ ما يقارب العام كطرفة رمش. عام زاخر بالحضور، متوهّج بالتحرّر، متدفق بالقدرات. عام كألف عام، ليس في طوله، بل في تأثيراته وتراكم معارفه. عام تحرّرتُ فيه من أكثري، وامتلكت فيه زمام قدراتي. عام كنت فيه أنا وكنت سواي، ثباتي وتغيّراتي، قوّتي وضعفي... عام قلب كياني وبدّل أحوالي، حتى لكأنّني شخص آخر لا أعرفه.

هناك ذقت الألم واجترعت اللذّة، تماهيت حدّ التلاشي، مستشفًّا ذلك الإحساس المتعارف على تسميته بـ «السعادة»، ذاك الذي يقضي الناس معظم حياتهم في ملاحقته دون أن يبلغوه؛ ذلك أنّهم يبحثون عنه في الامتلاء، غير مدركين أنّهم بهذا يمضون في عكس الاتّجاه.

يقضي الكثيرون ردحًا طويلاً من حياتهم معتبرين أنفسهم محور كلّ

شيء، إلى أن يأتي يوم يفاجأون فيه بمقدار تفاهتهم وضآلتهم، وبأنّهم مجرّد نكرات لن يفتقدها أحد، وكأنّهم حين تطويهم الأرض لا شيء. أتدرون لماذا؟! لأنّهم أنانيّون بطبعهم، لم يجرّبوا ولو لمرّة نكران الذات؛ لأنّها ذواتهم من تنكرهم؛ لأنّهم لم يجرّبوا التنازل عن طيب خاطر عمّا هو لهم، لا يترفّعون عن التفاهات، لم يجرّبوا النظر لأعدائهم كما ينظرون لمن يحبّون.

هناك أحسبني اجتزت عذابات شتّى، طهّرتني من كلّ دنس، حرّرتني من كلّ زيف، وجرّدتني من كلّ وهم. أحسبني أدركت كنه الخلود؛ خلود الفكرة، في انعتاق الجسد. وعذاباتي تلك ليس لها شأن بما نالت هيئتي من تغيّرات. كما أنّها لم تكن على شاكلة التعذيب الطقوسي للجسد بغية تطهيره، الذي يمارسه بعض الجماعات الدينيّة، والذي أحسبه لا يفضي إلّا إلى تحقير الجسد وامتهانه، وصولاً إلى الإحساس بالدونيّة وانتقاص الذات؛ وإنّما أقصد بها آلامًا تُحرّر الذات منها ومن سطوة الجسد. عذابات عذبة تسكنها اللذّة. إنّه الألم التطهيري من أدران النفس اللوّامة، إلى فضاءات النفس المطمئنة، أولى مراتب الكمال، ما يبلغ بنا سدرة الحلم، منتهى الآمال. إنّها المعرفة المطلقة، البوّابة التي تحملنا حقيقتها إلى الحبّ المطلق، إلى النور السارح في النشوة، إلى غياهب العماء.

الكون كما يصوّره علماء الفلك في اتّساع وتمدّد دائمين، وأظنّه، وهو مجرّد حدس يؤكّده الشكل شبه الكروي لأفلاك الكون وأجرامه المدحاة، سيؤول ختامه بدءه. عندها يتمازج الوجود والعدم، يتلاشى أحدهم في الآخر، فيحلّ الفناء وتقوم القيامة.

أليست الحياة والموت الخيارين الوحيدين الحقيقيّين المتاحين أمامنا، وما دونهما مجرّد افتراضات ليس من شيء يدلّ عليها دلالة قطعيّة؟

الإشــــراق الــرابـــع

سليـب الظـــلّ

لا أدري لماذا شُغِلْتُ أوّل أيّام الأسبوع الأخير من ذلك العام بصاحب هذا المقام. حتى إذا ما آواني النوم فيه، رأيت شخصًا حدّ التلاشي نحولاً، كأوقات الخوف طولاً، وحيدًا يقف وسط سهل مقفر مترامٍ ليس له من حدّ. كان القمر يملأ السماء. أحسستني ظلًّا بلا جسدٍ، أدنو منه رغبة في معرفة من عساه يكون. كان جسدًا بلا ظلّ. كأنّي عرفته من قبل، لا أدري أين ومتى! هو أيضًا نظر نحوي كمن يعرفني حقّ المعرفة.

كان «سليب الظلّ» هذا، ذات يوم من أيّام بداية مراهقته، يحتفي بختمه حفظ القرآن مع عدد من أقرانه، كعادة من يختمون القرآن، لدى فقيه يقطن إحدى القرى القريبة، عندما أغارت عصابة من قطّاع الطرق على بلدته الصغيرة، مودية بحياة والده التاجر وجُلَّ أمواله وبقيّة أفراد عائلته، والكثير من أهل البلدة. كان في أوج احتفاله ذاك، وإذا بالخبر يجيء به شخص لم يبدُ عليه إلّا أمارات الهلع. هرع ومن معه، ليجد أنّه لم يعد لديه أحد هناك، فولّى موليًا على نفسه ألّا يعود إلّا وقد أخذ

بثأرهم، وإن لم يكن يدري ممّن، أو يلحق بفقدائه. كانت الرغبة في الانتقام وحدها تقوده دربًا فآخر، قبل أن يجبره الجوع وسوء الحال على الالتحاق بعصابة كان هذا المكان وكرًا لها، قبل أن يصبح محرابًا. أمضى فيها مدّة طويلة أهّلته لأن يصبح نائب زعيم العصابة، ولينجح بمساعدة حقده المتأجّج ودراسته البسيطة في التخلّص من زعيمها، وتزعّمها. أصبحت على يده إحدى أقوى العصابات وأشدّها بطشًا. كان قد عرف أنّها العصابة ذاتها التي أغارت على البلدة ذلك اليوم؛ لكنّه آثر الزعامة على الثأر، مكتفيًا بقتل رئيسها. عوضًا عن ذلك تمادى به الغيّ وتطاول، وكأنّه ينتقم من نفسه بدل أن ينتقم لها، ومن كلّ من لم يحترق بآلامه. حتى إذا بلغ الأربعين، وقعت له حادثة غريبة، قلبت حياته رأسًا على عقب.

كان بضعة أفراد من عصابته ـ بقيادة نائبه، الذي اختاره لما اعتقده فيه من ضعف وقلّة حيلة ـ في طريق عودتهم من مهمّة استكشاف، حين وجدوا قافلة أناخت لتقضي ليلتها في مكان مقفر من منتصف الوادي أسفل هذا المقام. استغرب «سليب الظلّ» إناختها في مكان مقفر غير آمن، يعلم الجميع أنّه من مناطق نفوذ عصابته. داخلته الريبة، متوجّسًا من أن يكون في الأمر مكيدة؛ إذ لا يعقل أن تغامر قافلة على ذلك النحو. أطلع عصابته على ما يختلج في نفسه، لكنّهم أصرّوا على مهاجمتها، محاولين إقناعه بأنّها لا تعدو كونها قافلة أدركها الإنهاك فأناخت، ما يجعلها فريسة سهلة المنال. كان يدرك أنّ العصابة تنتظر فرصة كهذه لتعويض فترة العوز التي عانت منها في الآونة الأخيرة، وقد شدّدت سلطة البلد إجراءات حراسة الطرق التجاريّة وطرق المسافرين، كعادة السلطات في بداية عهودها. كان الطمع قد أعمى صواب أفراد العصابة، فتمادوا في غيّهم، مقلّلين من قدر مخاوفه وقدره. حاول الضغط عليهم فازدادوا شططًا. اضطرّ، كي لا ينفرط أمرهم من يديه،

إلى الإذعان، ثم يكون لكلّ حدث حديث.

اقتربوا حذرين من مضارب القافلة، متوقّفين على مرمى حجرين. سكون مخيف يلفّ المكان، إلّا من همهمات أو حمحمات يأتي بها الليل. أمر أربعة منهم يقودهم نائبه بالاستطلاع. كان قد اقتنع بأنّ مصيره من مصير رجاله، وأن ليس بإمكانه التخلّي عنهم مهما كانت العواقب. فاجأه رفض نائبه الأمر، تؤيّده البقيّة، بل وردَّ نائبه له بلهجة آمرة متهكّمة أن يكون هو على رأس المستطلعين. أذعن مرّة أخرى متذكّرًا حادثة مشابهة وقعت منذ زمن طويل كان فيها محلّ هذا النائب.

وجدوا ثمّة ما يقارب المائة من الجمال محمّلة ببضائع يلفّها السواد، تربض على التراب والحصى، دونما حُداة ودون أن يجدوا نافخ نار. ازدادت الوساوس اشتعالاً. كلّ شيء يوحي بالغرابة. كأنّما هي بانتظار الناهبين! أتراها شردت من قافلة؟! فلمَ إذن لم تشتّتها الطريق؟! كيف تجمّعت مستكينة على هذا النحو؟! وكيف لم يلحق بها حداتها كلّ هذا الوقت؟! دنا اثنان يستوضحان الأمر أكثر، في حين بقي معه الآخران، حارسين لا مرافقين. وما إن عاد المستطلعان بإخفاق حُنين حتى كان الغامض قد انجلى أمامه. كان لا بدّ لقائد يستشفّ مصير من انقلبوا عليه، ومصيره إن هم نجوا، من التزام الصمت وتركهم وما هم فيه؛ لكنّه ولسبب لا يعلمه نصحهم بالنفاد بجلودهم قبل فوات الأوان. باءت محاولته بالفشل مجدّدًا، بل إنّها زادتهم عتوًّا ونفورًا، وجعلت أربعة كانوا أخلص رجاله، بإيماءة من نائبه، ينقضّون عليه شاهري السيوف. أذعن مستسلمًا لما بدا آخر فصول ذلك الانقلاب المبيَّت. حينما أوثقوه بالحبال كان ذهنه يلهج بمقولة كان يسمعها دائمًا من أمّه تردّدها كالنبوءة وكأنّها تريد إنباءه بحاله الآن: «إذا غشا القدر زاغ البصر».

تركته العصابة رفقة حارسين، مقتحمة ظلمة مصيرها. كان يدرك إن خاب حدسه وعادوا غانمين اعتزامهم محاكمته وإدانته بالخيانة وإعدامه صلبًا، تمامًا كما فعل هو مع سابقه. لم يخب حدسه، فها هي صرخاتهم تدوّي فجاءة وما فتئت تقضّ مضاجع الليل. تطلّع السماءَ، فغشيه نور مبهر ظنّه القمر، تلته ظلمة محيقة. أفاق على رؤى أطياف ظلال، وشهوة آلام تحرقهنّ فتحتويه الظلمة مرّة أخرى. استفاق عاريًا مكبّلاً ينزّ دماءً لا يرى أحدًا. تلفّت محاولاً تحريك جسده عساه يرخي القيود. بالكاد تمكّن من الاستواء جالسًا. ألم يعد أحد؟! أفارقه حارساه؟! والجمال، التي ظنّها تخبّئ فوقها الرجال، ما الذي حلّ بها؟! والرجال هل أفنى بعضهم بعضًا، أم أنّ صرخة طوتهم؟!

انشقّ ضوء الشمس عن فتى وأخته يقتادان قطيع ضأن. وبعد تردّد اقتربا منه وحلّا وثاقه، وكانا قد أسدلا على عورته لحفة قماش يخبّئان فيها لقيماتهما. غسلا جراحه، وأطعماه بعض زاد. منحه ذلك بعض أمان وقوّة بل ونسيان ما كان من أمره، لينهض يحدوه النظر إلى ظلّه، وهي عادة تغري الكثيرين في مثل هذه الساعة التي يكون فيها الظلّ أطول ما يكون. نظر إلى السماء علَّ مبرّرًا يأتي يحرمه من تلك المتعة، فولّى هروبًا اندهش له الراعيان، دهشة مَنْ كان يفترض به الفرار. كانا يريانه يعدو نحو الشرق متلفتًا حوله، ومع كلّ التفاتة يطلق صرخة، ومع كلّ صرخة يزداد عدْوًا. أيعقل أنّه أضحى بلا ظلّ؟!

ربّما ركض إلى ما لا نهاية، لولا أن صدمه مرأى رجال عصابته مجندلين في العراء وسيوفهم تطعن الأرض، كلّ منها بجوار صاحبه وكأنّها تتمرّغ في التراب. لم يكن من أثر لقتلى سواهم، رجاله فقط، من كانوا يتدفّقون حياة وقوّة في المساء.

وكما يحدث حين يرى الإنسان كارثة أشدّ وطأة من سابقتها، فقد

نسي أمر ظلّه تمامًا. خرَّ تلجمه الفجيعة، مستعيدًا تفاصيل كلّ ما مرّ به في شهقة يأس خالطتها دموع الندم، أكثر الدموع براءة. فكيف إن كانت دموع من يعرفون يقينًا أنّهم آثمون؟! لكم ستكون رحيمة وهي تغسل حياة وتخلق أخرى!

آب نحو الوكر. كان الوكر قد غدا محرابًا. هو أيضًا كان شخصًا آخر.

مُذَّاك والقروح تتناهشه كلّما تعرّض للشمس، ما اضطره إلى الانزواء في مكانه، لا يغادره إلّا للضرورة. لعلّ بشرته صارت تمتصّ أيّ ضوء يسلّط عليها، دون أن تستطيع لفظ ما يفيض عن حاجتها، ليختلّ بذلك توازن خلاياها، ولتصاب بالتهابات تنتهي إلى دمامل متقيّحة، تصاحبها حكّة شديدة تزداد اشتعالاً كلّما حاول تخفيفها بالهرش، ولا تزول إلّا بالاحتجاب عن الضوء، مدّة أسبوع على الأقلّ. كانت الشمس عدوّته الحبيبة، المحروم إلّا من هنيهات شروقها. كان كلّما زالت القروح استغرب عدم تركها أيًا من آثارها، وإن كانت بشرته ترقّ وتشفّ أكثر فأكثر.

رغب عن كلّ شيء خارج وكره، مكتفيًا بما كان فيه من مؤونة بضعة أشهر، حتى إذا ما أتى على كلّ شيء، قرّر - بعد جوع أيّام - الخروج قبيل الفجر، بحثًا عمّا يقتاته، مؤثرًا ما سيعود به من آلام الضوء على الموت جوعًا. وما هو إلّا أن طلع الضوء، وبعد مسافة في الأرجاء، حتى أرغمه الجوع والوهن على السقوط مغشيًا عليه، في ذلك المكان الذي أغمي عليه سابقًا.

أفاق على لذعة باردة تسقط على وجهه، كان يمكن لها من قبل أن تجعله ينتفض واقفًا، إلّا أنّها الآن لم تفعل فيه سوى أن فتح عينيه، لتريا أمامهما خيالين. أغمضهما وفتحهما مرّات... انجلت الصورة أخيرًا.

كان الراعي ذاته وأخته يحملقان فيه بإشفاق أشعره بمقدار ما بلغه من ضعف ووهن. ولمّا أن كانا قد أسنداه ليعودا به من حيث دلّهما، كانا يدركان سبب فزعه في المرّة الأولى التي التقياه فيها؛ فكان أن انتشر خبره بين الناس.

كان اختلاف ذينك الراعيين إليه من حين لآخر يبعث فيه من الطمأنينة والإيمان بالحياة ما لا يبعثه شيء آخر. وخلاف انتظارهما لم يكن هناك من شيء يفعله. وألا يكفي هذا ليعترف الإنسان بقدرة أخرى تجعله يرغب في الحياة رغمًا عنه؟! كان شعور يتملّكه تجاه تلك القدرة، بالامتنان والسخط معًا.

أمّا كيف تحوّل وليًّا، فهذا دأب الناس كلّما رأوا أو سمعوا عن إنسان رغب عنهم وعنه حدّ الاعتزال؛ فكيف الحال بمن كان بلا ظلّ؟! ولعمري إن هذا بحدّ ذاته كرامة لا تضاهيها كرامة! لكن هل كان يراها كرامة؟! أم رآها مجرّد لعنة؟! أظنّ الأمر سيّان.

ذاع ما رآه الناس هناك ورعه وتقواه، فتوافدوا عليه، محمّلين بهبات لم يكن يقبل منها إلّا ما كان طعامًا يفي بحاجته، وأمّا ما عداه فيطلب منهم التصدّق به. ومع هذا راحت تتوالى وتزداد يومًا عن يوم.

كان إحساس طاغ يخبره أنّ ظلّه ليس بالبعيد، وأنّه حتمًا في مكان ما من هذه المنطقة، لم يتجاوزها. ذلك عزّزه الراعيان إذ أخبراه عن إشاعاتٍ يتداولها الناس عن رؤية بعضهم طيفًا شبحيًّا يحوم في المساءات المقمرة حول ما أقفر من طريق في قراهم، مسبّبًا لهم الذعر، وناشرًا إيّاه بين الآخرين، حتى باتت الأمّهات يتوعّدن به أطفالهنّ المشاكسين أو من يأبى النوم منهم.

بمرور الأيّام أصبح لسليب الظلّ مريدون راحوا ينسبون إليه الكثير

من الكرامات. بل إنّ ذلك الراعي وأخته أصبح لهما كراماتهما هما أيضًا وصارا محلّ تقدير وتبجيل، لما كان من قربهما منه.

حين مات دفن في وكره/ المحراب، وطلي المبنى بالأبيض ليتحوّل مقامًا تنشد زيارته. وكما تلقّفته شائعات وليًّا وضريحه مقامًا، فقد نبذته شائعات أخرى باعتباره جنّيًّا ومقامه خلاءً تعشعش فيه الأرواح، أكّدتها شائعات إضافيّة عن أجساد بلا ظلّ وظلال بلا أجساد تهيم ها هناك.

الإشـــــراق الـخـــامـــــس

القدرة: إرادة الإرادة

ها أنا أكاد أنتهي من تدوين ما هام من هاجس سليب الظلّ الذي طاف بي من حيث لا أدري. وها هو مساء اليوم الخامس من أسبوعي الأخير في المعتزل يدهمني دون أن أشعر. كنت في غاية الإنهاك والوهن، حتى لكأنّي لم أكن معتادًا ما قمت به. فانتهبني النوم من يقظتي على حين غرّة.

زارني السليب ومعلّمي. كان باب المحراب مفتوحًا على مصراعيه وهما أمامه يومئان أن تعالى. ولحظة أن هممت، كان الضريح يحول بيني وبينهما، دون أن أدري كيف حدث ذلك. كنت كلّما هممت باجتيازه، كأنَّ خدرًا يشلّني، وحاجزًا لا مرئيًّا يفقدني القدرة على ذلك.

ها أنا كأنّي أفيق منكبًّا أقلّب كتاب «الإشراقات» لأجدني قد قمت بما يجب، فلم يعد ينقصني لبلوغ مرتبة الإشراق، المرتبة التي تتماهى فيها الإرادة والقدرة وتصيران كُلًّا واحدًا، ليتمكّن من ينالها من تضليل الظلال، ويصبح على عتبات التحوّل إلى معلّم ظلّ، سوى اجتياز امتحانات القدرة.

كان وكأنّهما يبشّرانني بخلاصي، ورحيلي من ها هنا عمّا قريب.

في الموعد المعتاد بدأت برنامجي في قراءة شذرات من كتب السماء الثلاثة. أدّيت صلاة الفجر مطيلاً الدعاء بعدها. تقرفصت متوسّطًا المحراب أمام الضريح، مستقيم الظهر، واضعًا رِجلاً على أخرى. وبدأ الامتحان الحقيقي.

كان عليَّ التأكّد من قدرتي على أداء كلّ ما اكتسبته من معارف وقدرات، بالتأمّل والتركيز، فالتجرّد، فالتطهّر، فالتحرّر... بدأت تمارين التنفّس والاسترخاء، مركّزًا، روحًا وجسدًا وذاتًا وظلًّا، حتى انتابني ما يشبه التوهان، تداخلت فيه المبهمات بالمدركات حدًّا أفقدني القدرة على التمييز. أغمضت حواسّي كلّها وسكنت دونما شيء. وفي النقطة الفاصلة التي صرتها، كانت مكامن طاقتي تتحرّر استعدادًا لخوض اختبارات القدرة، والتي ستتوارد في ذهني تباعًا بإشارات أظنّها من معلّمي دام ظلّه والولي السليب عاد ظلّه.

ها هو جسدي يتأرجح مرفوعًا، يرتفع مؤرجحًا دونما شيء، يسبح بي أنّى شئت وعلى أيّ وضع. كان ذلك اختبار الحركة، وهو أوّلها. أمّا الثاني فكان أكثر صعوبة، حتى إنّي استغربت الإتيان به مباشرة بعد الاختبار الأوّل؛ إذ حسبت أن لا بدّ من اختبارات فاصلة بينهما، هذا إن كانت الصعوبة هي المعيار المعمول به في توالي تلك الاختبارات. كانت السيطرة الكاملة على كلّ خلايا الجسد والتحكّم في ظهورها وخفائها عن العوالم هما هدف اختبار التضليل والاختفاء، ومظهره هو الاختفاء في مكان والظهور في اللحظة نفسها في مكان آخر، بعيد كلّ البعد.

كان اختبار التخلّل والاختراق قريبًا من سابقه، وإن كان أكثر منه استغراقًا. هو يتمثّل في القدرة على تخلّل واختراق الحواجز والعوازل الصلبة كالجدران والأسوار، والحواجز الخفيّة كالأطياف والذبذبات

والموجات، أو الحواجز الماورائيّة كمصدّات الظلال والعوالم الغيبيّة الأخرى، بل واختراق الحاجز الفاصل بين ضدّ وضدّ، وحتى بين حلم وحلم. ذلك يكون بإطلاق النفس وتحرير الروح وتشظّي الجسد، وتمازج كلّ منها بهوام تلك الحواجز والعوازل والمصدّات، والنفاذ منها كلّ على حدة إلى عوالمها، ثم تمازج بعضها ببعض والتشكّل ثانية كما كانت، وهو ما لم أتمكّن من اجتيازه إلّا بصعوبة بالغة.

أمّا رابعها فكان السيطرة على الحواس والمشاعر والأفكار، خلقها ومحوها، إطلاقها وكبحها، بعثها وإزالتها، تغييرها، ليس فيّ فحسب، وإنّما ـ وهو الأهمّ ـ في الآخرين.

آخر تلك الاختبارات، والذي دلّ على أنّ معيار الصعوبة لا يحكم تواليها، كان أقلّ صعوبة، وهو التحكّم بالملامح والانفعالات والسيطرة عليها، بل وتقمّص ملامح وانفعالات الآخرين.

اختبارات مكثّفة مستعصية استمرّت لا أدري كم! فقد فقدت حينها الإحساس بكلّ زمن!!

أفقت، حين أفقت، على يدين ترعشان جسدي، وكأنّهما ترغبان في إدراك شيء يوشك على الفرار.

سكون هو ما يحتويني. كان هو الفاصل بين الحياة والموت.

كان وجه صاحبي يتفصّد ذهولاً، وصوته القادم من أعماق الغيب يخبرني أنّها الظهيرة. انتفضت أتلفت غير مصدّق أنّ النوم في ذلك المساء استغرقني كلّ ذلك الوقت، مفوّتًا ولأوّل مرّة كلّ ما كان ينبغي أن أنهض به.

أترى ما خاضني كان حلمًا! أكاد أجزم أنّه الحقيقة؛ حقيقة بحجم حلم.

أيعقل أنّي غفلت عن الباب مفتوحًا، وأنّ الإجهاد قد بلغ بي هذا الحدّ، لمجرّد أنّي غرقت بأكثر ممّا اعتدته من نوم؟! أتراني أنا أتشبّث به، أم هو (النوم) يشدّني إليه!؟ غير أنّي ما كنت لأستسلم، بل سأحرص على أن أكون حاضرًا، أتشبّث بآخر خيط لي في هذا الصحو.

أهو وجه صاحبي، هذا الذي ملؤه الرثاء والإشفاق، بل والفزع أيضًا؟! أهي الحمّى ذاتها، التي أنشبت أظافرها أوّل أيّامي ها هنا، قد عادت الآن، إنّما أكثر وطأة؟!

أهو وليي السليب أم ظلّه، ذلك الواقف قبالة المقام على حافّة المنحدر المطلّ يرنو في الأفق، حيث دارت رحى معركته الأخيرة؟! ها هو الآن قد أصبح وجه معلّمي ـ دام ظلّه ـ وهو يتصفّح كتاب ظلّه؟! لا، لا . . أظنّه الحكيم يرفع صخرته العملاقة، ويلقي بها في مكان ما! بل هي الشيخة مسجّاة ترنو إليّ متوسّلة في مقام الريح! إنّه شيخي ينظر إليّ غاضبًا وزوجته بين يديه! إنّهما أبواي في حفل زفافهما يجلسان وسط حشد من الأطياف! لا، بل في لحظتيْ موتهما. إنّه وجه الراعي المحترق جسده في «الكهف المنجوث». بل هو وجه تلك الراعية يحدّق نحوي. إنّه وجهي شاخصًا نحو تلك الفوهة! ها هم أولاء جميعًا ينفصلون عن ذلك الواحد، ذلك الأنا، ليكونوا أنفسهم، ثم يعودون إليه، إليّ، في ذلك التمازج الغريب، مقتربين منّي رويدًا رويدًا، حتى إذا ما كنت معهم وجهًا لوجه، كنتُ معي وجهًا لوجه.

بكلّ الشوق رحتُ أعانقني حتى غبتُ فيّ. كلّ ما في ذلك الشوق كان يشي بالقلق، بل هو بالجفاء.

الإشـــــراق الـــــسادس

الـمـتـفـانـي

الخوف يمحو الخوف كما يفلّ الحديد الحديد. هذا ما خطر في بالي وأنا أستفيق على سرير تحيط به الوجوه.

استبدّت بي رغبة عارمة بالرحيل. حاولت النهوض. كان جسدي مشدودًا إليه، فكنت كمن يحاول إنهاض شخص آخر.

الوجوه تمحو الوجوه. وأنابيب منغرزة في أنحاء جسدي المستسلم لها، كما عيناي مستسلمتين لتلك الوجوه.

ليس لقلبي من مستقرّ أيّها الصاحب، فاذهب به بعيدًا، مثلما كنت تفعل من قبل! كيف جئت به إلى هنا، ومستقرّه هناك حيث أنت؟! أتظنّك قادرًا بصمتك على إخفائك عنّي؟! ألستَ بكلّ ما قدّمته لي كنت تؤدّي مهمّتك التي كلّفت بها؟! لا بدّ من أن أميط عنك اللثام ليعرف قارئي من أنت؟ لن تستطيع التخفّي أكثر أيّها المقاوم، حتى وإن أوشكت مهمّتك على الانتهاء! أردت أن تكون مجرّد هامش أو مجرّد ظلّ عابر؛ لأنّك تدري أنّ أعتى المقاومين هم أولئك اللائذون بالصمت، من يؤدّون ما يتوجّب عليهم أو ما يؤمنون به وكفى.

أراك صبيًّا تتوسّط أخوين، حين طال القتل الغامض روح أبيك. لم يعرف أحد من كان القاتل، أو لعلّ أحدًا لم يجرؤ. حملت أمّك عبء تربيتكم. لكنّك وبرغم أنّك لست الأكبر، نهضت لمساعدتها. ومن فورك توجّهت لصديق أبيك وجار منزلكم الصغير في القرية الشحيحة زراعتها، بعد أن توجّه إليه بعض رفاقك، يملك ورشة إصلاح سيّارات على الطريق العامّ في إحدى المدن. كان أن قبلك لديه صبيًّا يعلّمك هندسة السيّارات. وبما كان يجود به العمل المرهق على صبي أهزله العوز والتعب، جعلت أخويك يكمّلان تعليمهما.

كان للميكانيكي العجوز، ولذكائك، الفضل فيما بلغته من مستوى عال ومهارة في عملك، حتى تمكّنت ـ بتشجيع ودعم من معلّمك ـ من فتح ورشتك الخاصّة، ولم تتجاوز الثامنة عشرة. كنت مقاومًا بالفطرة، فاستقطبتك رابطة المقاومين عضوًا فيها، عبر معلّمك المتوسّم فيك الكثير؛ فقد كان عضوًا بارزًا أيضًا. آثرت على نفسك كثيرًا وبصمت. وحتى بعد أن أدّيت واجبك مع كلّ منهم حولك، وأصبح لك تلاميذ كما كان لمعلّمك، لم تتوقّف عن المقاومة، وبصمت. وبعد أن تقدّمت بك السنّ ولم تعد قادرًا على العمل فيما قضيت فيه عمرك، عملت في مجال قريب من عملك السابق: سائقًا. وها أنتذا تعمل ما يقرب من عشر سنوات في انتظار ما أوكله إليك معلّمك وهو على فراش الموت. لقد اختارك من بين كلّ هؤلاء الذين تخرّجوا على يديه في مهنته، ولكن ليسوا كمقاومين. ها أنت كلّ حين تتعهّده في ضريحه لتبلّ دمعك، ولتجدّد عهدك له والامتنان لكلّ ما أسداه لك. ها أنت تناديه أباك؛ لأنّ هذا ما كان منه. ما زلت تذكر أوّل أيّامك لديه، وكلّ ما وقع عليك من أحداث، أقلّ ما يمكن أن يُقال إنّها مفزعة. كلّ تلك الكوابيس التي كانت تنتابك، وتقضّ عليك منامك. تهبّ صارخًا فيهبّ إليك. وكم كان

يتصبّب ألمًا، إذ يرى دموعك الفزعة المنكفئة! منذها جعلك تنام معه لا تفارقه. ومثلما كان، أدّيتَ مهمّته ومهمّتك بصمت وإخلاص. كنتُ أنا تلك المهمّة، وكنتَ الصاحب والرفيق. كنت طوال ذلك الوقت أحسب أنّ الصدف قادتك إليَّ، متناسيًا ـ كما أسلفت ـ أن لا مكان للصدف في ما أنا فيه. ها أنت، وقد انتشلتني من براثن تلك الحمّى، وجئت بي إلى هذا المشفى، تقول لي بصمت إنّ مهمّتك قد انتهت. أعرف أنّها انتهت، ولكنْ ثمّة شيء خارج مهمّتك، أريده منك، قبل أن أتركك لصمتك، ولهذا البذل الذي نذرت حياتك له.

أنت يا صاحبي من يعود بي إلى منزلي، حيث تلك الفائقة العشق، الفائق شوقي إليها: زوجتي، وحيث طفليَّ اللذين أكاد لا أعرفهما. يا لتبلّد مشاعر الأب فيَّ! هناك فقط سأتركك أيّها الصاحب، وعسى أن تجود الأيّام بلقاء آخر بيننا أو أن يجمعنا الله في العاقبة.

حين غادرت المستشفى بدا كلّ شيء مختلفًا؛ كلّ شيء: الجبال والسهول والطرقات والأشجار والحشائش والسماء والبشر وكلّ ما تعرّضت له عيناي. كلّ شيء كان مغايرًا! ترى هل يغيّر معتزلٌ مداركنا على ذلك النحو؟! لا أدري! لكنّني لست قادرًا على التعبير عمّا يختلج في نفسي. أظنّ كلّ الكلمات لا تفي بذلك. وحده الصمت يستطيع.

ب) التنصيب

إنّ شدّة تجاهل الرؤية هي الرؤية بعينها

التنصيب الأوّل

النشوة

أحسست الطريق طويلاً أكثر منه، أو أنّ الزمن يمعن بالبطء كلّما التفتُّ إليه. كانت أنفاسي تتضرم شوقًا كلّما اقتربنا. كان يلتفت إليَّ بين الفينة والأخرى، وكأنّه يقرأ ما أنا فيه. أَلْتَفِتُ إليه فيدرك أنّني أدركه أيضًا. وفي اللحظة التي ترجّلت فيها من السيّارة، أحمل ذلك الكوم من الأغراض والكتب، كانت ابتسامة عريضة تملأ محيّاه، وكأنّه يقول لي: كلانا عائد إلى أهله. رآني أضع ما عليَّ من حمل لأحمله على البقاء، فانطلقَ من فوره بأقصى سرعة. شيّعته بنظرة مترعة بالدمع. لا شكّ أنّه أيضًا شيّعني بمثلها.

قد تكون اللذّة التي تمنحنا إيّاها آلام الشوق أكبر وأجمل من تلك التي تمنحها نشوة اللقاء. هذا ربّما ما حصل لي، لتمرّ تلك اللحظات كالبرق الخاطف، أو كأن لم تكن.

لحظات الشوق تمرّ علينا بطيئة، ومثلها أوقات التعاسة. إنّها لحظات خالدة، بقدر ما هي لحظات اللقاء وكلّ لحظات السعادة عابرة. دائمًا ما نصف تلك اللحظات بالخاطفة، فنقول عن لقاء من نحبّ، حتى

لو كان طويلاً، إنّه لقاء خاطف. كما أنّ أقصى ما يمكن لنا وصفه (أيّ اللقاء) بالحارّ أو المشبوب أو المحموم، دون دلالة على الألم، والتي كثيرًا ما تكون مترادفة للشوق، كاللهيب والنار والحريق واللظى، وذلك رغم أنّ بعض لحظات السعادة قد تكون أكثر إيلامًا من كثير من تلك التي نظنّها لحظات تعيسة.

ها أنا آتي منزلي كأنّي أدخله لأوّل مرّة. كلّ ما فيه يوحي بأنّي غريب، حتى زوجتي وطفلاي. لسوف أحتاج إلى الوقت والجهد حتى يألفني المكان، وآلفه أيضًا. ثانية أقول إنّ الألفة وحدها قادرة على إذكاء مشاعر حقيقيّة.

رغبة غريبة بالموت تعتريني الآن؛ ربّما بسبب ما طال طفليّ من تغيّرات! وربّما لنظرات الذهول الممتلئة لومًا من زوجتي! وربّما لخشيتي ممّا هو آت! وربّما لأنّ جلّ ما أخشاه هو الموت بعيدًا، في مكان لا يعرفني فيه أحد! وربّما كان ذلك كلّه!!

تراودني فكرة المقارنة بين الكلمات والأرقام. لا أدري لماذا تطرأ هذه الفكرة دائمًا في المواقف العصيبة الحرجة التي أشعر فيها بالذنب وتأنيب الضمير وبالرغبة في الموت، كما هي حالي هنا.

الكلمة مزيج حروف هجائيّة، لا معنى لها مبعثرة أو في حالة مفردة. قولبتها المجتمعات في صيغ تناسب احتياجاتها، وتدلّ على مدركات ومفاهيم ترابط بعضها ببعض في جمل وعبارات، لتفضي بمجملها إلى ما يسمّى «اللغة». وكثيرًا ما قد تحوي الكلمة الواحدة أكثر من معنى، يختلف بحسب سياقها في الجملة، مثلها كمثل العواطف والمشاعر، التي قد تتشابه في مظهرها وتختلف في أبعادها وتوصيفاتها، حسب باعثها ومصدرها، ومتلقّيها أيضًا. هكذا يُميّز الشعراء والكتّاب عن غيرهم أنّهم الوحيدون القادرون على الإمساك بزمام الكلمة وتطويعها

للتعبير عن تلك المشاعر والأحاسيس، فيقول قائل إنّ هذا بالضبط هو ما يعتمل في نفسه. وهكذا أيضًا يأتي الفرق بين بعض الشعراء وبعضهم، ولهذا أيضًا كانوا شعراء، وكان كلامهم شعرًا. وما الإنسان يا ترى إذا لم يكن ذلك الكائن اللغوي؟ اللغات هي ولا بدّ أعظم اختراع في تاريخ البشريّة؛ لأنّها مكّنت البشر من التواصل ومن الوصول إلى ما وصلوا وما سيصلون إليه. بها تميّزوا وتمايزوا. وبتدوينها حفظوا للبشريّة إرثها المعرفي وتراكماته حتى بلغ ما بلغ.

أمّا الأرقام فقد اختُرِعت خارج اللغة، وإن اضطرت إلى مزاولتها الكلمات. هي جاءت لتكون رموزًا مُخْتَزلة، والرموز لا تصدر بأيّ حال من الأحوال عن اللغة. هي إذن رموز لمفاهيم مجرّدة يحتاج التعبير عنها ما لا حدّ له من كلمات، وهي توفّر على الكلمة صعوبة وكثافة تلك المفاهيم وعلاقاتها المتشعّبة. إنّ هوس الإنسان بالعدّ وبالتملّك جعله يخترع لنفسه ما يمكنه من احتساب وحصر ما يمتلكه، بل وما يرغب بامتلاكه؛ فالكلمة كانت ستكلّفه مجهودًا جبّارًا، أو أنّها لن تستطيع إشباع هوسه ذاك. وأكاد أجزم أنّ الأرقام لم تكن موجودة عند الإنسان البدائي؛ لأنّ كلّ ممتلكاته واحتياجاته كانت من البساطة بحيث يمكن التعبير عنها بالكلمات. الأرقام أقرب إلى الإشارات منها إلى الكلام؛ فإشارة واحدة تختصر الكثير من الكلمات، تمامًا كما يفعل الرقم. الأعداد لا نهائيّة كالكون، وهي الوحيدة القادرة على صياغته، وبالتالي فإنها ليست من صنيعة الإنسان. لهذا تجد البشر يستخدمونها بالطريقة ذاتها، على عكس اللغة، التي تختلف منذ القدم باختلاف وتنوّع المجتمعات الإنسانيّة.

أمّا الإشارة فهي تتوسّط الكلمة والرقم؛ فبالرّغم من اشتراك البشريّة في الإشارات، فإنّ كثيرًا من مدلولاتها تختلف باختلاف المجتمعات.

أحلم بي بعيدًا؛ لكنّه حلم، وللحلم أن يأخذ مداه.

* * *

لزمني ما يزيد على خمسة أشهر، حتى تسنّى لي تجاوز نمط الحياة الذي كنت قد اعتدته في مقام السليب. استردّ جسدي عافيته، واستعاد بعض رونقه. عندها بدأ ولهٌ طاغ يستولي عليَّ تجاه طفليّ وتجاهها، تلك النور المتألّم، التي بليت بي.

كانت تلك الفترة، التي حسبتها فترة نقاهة، أحلك فترات حياتي. كنت في معظمها كمن هو في كابوس مفزع. كلّ شيء أراه تحوّل إلى مجرّد ظلّ. حتى زوجتي وطفلاي، بل وأنا. لم أعد قادرًا على شيء. كلّ ما حولي خيالات زائفة. لم يكن من شيء سوى الحزن والخوف والوله الطاغي العقيم. يا إلٰهي! حتى الأحلام فارقتني!

عزفت عن الخروج، منكفئًا على نفسي لا أرى سواها. كنت كمذعور من شيء لا يراه، فقط يحسّه قادمًا من أعماق المجهول، ولا يدري إن كان هو ذاته من ينتظر ذلك القادم، أم أنّه سواه. عذاب مقيم لم يخرجني منه سوى تركها وطفليّ المنزل بعد أن طفح بها الكيل، وهي تراني لا مباليًا، غارقًا في نفسي حدّ الذهول، أو أنّ هذا ما كانت تحسبه. لم أكن قادرًا على تمييز تصرّفاتي؛ وكيف لمن يرى نفسه وما حوله مجرّد ظلال أن يتبيّن ذلك؟!

غرقت في ظلّي ثلاثة أيّام لا أرى فيها سواه. كنت وحيدًا. يا لهذه الكلمة من أسى إن نجمت عن ضجر محبّيك وهجرهم إيّاك منك! إنّها المرّة الأولى، رغم كلّ ما مرّ بي من وحدة، أشعر فيها بكلّ تلك الغربة والإحساس بالضياع. ولأوّل مرّة أشعر بالتوق أيضًا، بذلك الحبّ الجارف نحو من لا نشعر بهم وهم أمامنا. فكان أن خرجت أنشدهم، وكان أن حرّرني ذلك التوق منّي، فعدت أرى الأحلام مجدّدًا. كان في

ذلك ما يشي برحيل آخر لم أكن أودّه آنذاك. غير أنّ أوان الوله قد أومض في قلبي، وكان لا بدّ أن أستعدّ.

هي رحلة أخرى إذن، تعنُّ لي كلّما أسرفت في الوله. رحلة هذه المرّة نحو بلاد التوابل والتاج: الهند، امتثالاً لذلك النهج في مقام الريح. لكنّ الحنين الجارف نحو أسرتي ما فتئ يدفعني إلى أخذهم معي، حتى لو كلّفت عناءً فوق عناء. كنت أشعر بأنّهم، لما أصبحت أمتلكه الآن من قدرات، سيكونون بأمان معي.

إضافة إلى ذلك كان لا بدّ لي من القيام ببعض استقصاءات شملت دار المخطوطات في صنعاء وبعض هواة اقتناء المخطوطات، والاختلاف إليهم من حين لآخر، حتى استطعت جمع ما توفّر من معلومات عن ذلك المسمّى بـ «الجفر»، المتكرّر ذكره أنّى همتُ، وكأنّه المقصد فيما يأتي من حلم.

كان ما حصلت عليه مجرّد نتف غامضة لم تروِ أيًّا من ظمئي، بل لعلّها زادتني عطشًا على عطش، وجعلتني أتقلّب في لظى الحيرة. فكان لا بدّ لي من البحث عن ذلك الكتاب.

لا أدري إن كان الكتاب يستدعي حقًّا كلّ هذا الجهد! ولماذا أنا من تناط به مثل هذه المهمّة من قبل من هم أكثر معرفة وقدرة؟! ولماذا...؟! ولماذا...؟! تساؤلات كثيرة لم أجد لها من جواب؛ إلّا أنّني مؤمن بما أقوم به ومنجذب إليه حتى النهاية.

وقد يسأل سائل: لماذا، وأنت الذي حاز ما حاز من قدرات ومعارف، ما تزال متشكّكًا مستريبًا لا تثق في شيء، ولا حتى في قدراتك ومعارفك؟! إنّما هل الشكّ والريبة إلّا من تجلّيات النفس الباحثة عن الحقيقة؟!

بعد شهر آخر ذهبت إلى زوجتي في بيت أبيها، وبالكاد تمكّنت من إقناعها بالسفر معي، وإن رفضت العودة إلى المنزل. استكملتُ إجراءات السفر، وراح كلّ شيء يسير على ما يرام. حتى إذا ما تقرّر موعد الرحيل، ذهبت لآخذها والطفلين؛ لكنّني رأيت في عينيها رفضًا قاطعًا، وكأنّها تخشى أيّ رحيل لهم معي. كان ذلك ما أحسسته من بقيّة أهلها. ولأنّني كنت مسكونًا بذلك الوله الذي بدأ ينضح بي، فقد قرّرت إرجاء السفر شهرًا وشهرين، عساها تقتنع بسفرنا معًا. قبلت المبيت في بيت أبيها عدّة أيّام، علّها تقتنع أقلّه بالعودة إلى منزلنا، وبعدها سيتسنّى لي أن أقنعها بعيدًا عن تأثيرات أهلها. كان أنّ غبنا في لذّة لا تقاوم، وارتياح لم أشعر بمثله من قبل. شعور صادق بالمحبّة والامتزاج والاندماج والانسجام والتناغم والتآلف، لم يغشنا من قبل ولا من بعد.

كانت أيّامًا من متعة طاغية تعدّت إحساسنا بالزمن، وكأنّنا نعوّض من خلالها بعض ما فات. عاد الإشراق والبهاء يكسوان وجهها، وانزاحت عن عينيها غشاوة الأحزان والآلام، وارتسمت البسمة مجدّدًا على شفتيها، وبدأ ذلك المرح الذي افتقدته فيها يزورها مجدّدًا بين وقت وآخر. ولأوّل مرّة أشعر بلذّة الجنس وبروحيّته وقداسته، بل وأشعر عقبه بالصفاء والارتياح. لم يعد ينتابني ذلك الضيق والضجر كلّما مارسته. كان معنى آخر تمتزج فيه الرغبة واللهفة والرهبة والانشداه، حتى لكأنّنا مجرّد شهقات.

لم نكن نكتفي. فقط ننهك كعاشقين يمارسان الجنس للمرّة الأولى. ارتشفنا من دنان العشق أنخابًا لذيذة، وتمتّعنا زمانًا مرّ كالطيف، أو لعلّه كالوهم. ولأوّل مرّة لم أكن لألتفت إلى ظلّي كلّ ذلك الوقت، أو إلى أيّ ظلّ. فقط إليها. شغفتها حبًّا عن رغبة ووله، لا عن مجرّد كوننا نؤدّي مهمّتنا كزوجين؛ وشتّان بين الاثنين. المحزن أنّنا كلّما

ازددنا شغفًا، ازدادت إصرارًا على التشبّث بي وبفكرتها عن عدم الرحيل.

اقتربتُ أيضًا من طفليّ كثيرًا. عرفتهما عن كثب لأوّل مرّة. ولأوّل مرّة تذوّقت معاني الأبوّة.

لا بدّ أنّي كنت حينها قد أشبعت بعضًا من شغفي كزوج عاشق، وكأب. لم يدم ذلك طويلاً؛ إذ دخلت في حلم أعادني إلى مسار تلك الرحلة التي ستغيّبني عنهم طويلاً. كان هاجس أبي قد أيقظني فجأة من غياب النشوة، لأكتشف أنّ ستّة أشهر انقضت لم أشعر بها. فكان أن حرزتهم بها من الظلال ثم غادرت.

التنصيب الثاني

ملاك الناي

بدت لي الهند مكانًا خُلق ليمارس فيه الإنسان طقوسه. بلد يتكثّف فيه كلّ شيء، يعجّ بالظلال والكائنات. الإنسان هناك كأنّما مسكون بالتضاؤل، فما هو إلّا نضو يهيم في ازدحام ظلال يحملها أينما ولّى. إنّ الهندي هو الإنسان الوحيد الذي تشعر أنّه يحمل ظلّه على كاهله؛ ليس ظلّه فحسب بل وظلال كائنات غيره. ربّما كان إيمانه المتأصّل بتناسخ الأرواح وتقمّصها، وشعوره أنّ روحه قد لا تكون إلّا أرواحًا لكائنات عدّة وإن تجلّت واحدةً فيه. إنّه يرى في كلّ كائن مشروع إلٰه، ولذا تراه جماعات مختلفة، يمحض كلًّا منها (كائناته) قداسة قد تصل حدّ العبادة.

وها هي مدينة «أحمد أباد»، حيث واحدة من أكبر مكتبات المخطوطات والتي قد تضاهي مكتبة الفاتيكان وداري المخطوطات في كلّ من مصر وتركيا. يقال إنّ مكتبة جامع «أحمد أباد» العملاقة هي من موروثات سلالة أمراء عرب، من أصول يمنيّة تحديدًا، ومن أتباع المذهب الإسماعيلي. ولعلّ فترة ازدهار الدويلات الإسماعيليّة في اليمن

(الصليحيّة، الزريعيّة، الحاتميّة)، التي نشطت تجاريًّا، مع الهند خصوصًا، كانت سببًا في انتشار المذهب الإسماعيلي هناك؛ إذ عندما انهارت تلك الدويلات هاجر كثير من أمرائها وأتباعها إلى الهند، ليجدوا المناخ مهيّأ لتأسيس دولة لهم هناك. حكموا بعض الإمارات والدولايات الهنديّة، واستمرّت سلالات بعضهم حتى سقطت الهند في أيدي الظلال التي استخدمت في ذلك شركة الهند الشرقيّة، لتُشرّع بعدها لإحدى ممالك الظلال «العظمى» المجيء والبقاء هناك إلى ما شاء الدهر.

بعض الشائعات، وأحسبها مبالغًا فيها، تقول إنّ عددًا لا بأس به من الكتب يعود إلى مكتبة بغداد التي استباحها المغول ضمن ما استباحوا أثناء غزوهم للعراق وإنهائهم دولة العبّاسيّين، وأنّ الكثير منها هو ما توالت عليه العصور من مشتريات أولئك الأمراء والتجّار الهنود وآخرين جاؤوا بعدهم، ما أهّل الهند، بمدينتها «أحمد أباد»، كبرى حواضرها آنذاك، لتكون من أهمّ مراكز الإشعاع الإسلامي، بعد أن خبت أو اندثرت مراكز إسلاميّة كثيرة في مشارق الشرق ومغاربه، كـ «بغداد» و«دمشق» و«فاس» و«القاهرة» و«غرناطة» و«صنعاء» و«القيروان» و«قرطبة» و«زبيد» و«تريم» و«سمرقند» و«طشقند» و«همذان» وغيرها. غير أنّي ـ والحقّ يُقال ـ وجدت أنّ معظم المخطوطات الموجودة فيها لم تكن قديمة إلى ذلك الحدّ.

كانت المكتبة، ككلّ المكتبات الملحقة بالجوامع الكبيرة في حواضر الإسلام، تحتلّ جزءًا كبيرًا من مبنى الجامع من جهته الشرقيّة، ينشدها الناس من داخل الجامع ومن خارجه. ولأنّه مبنى إسلامي عريق، فلا شكّ أنّ العقود الحجريّة هي أهمّ ما يميّزه ويبعث فيه ذلك العبق الذي تستشعر فيه كأنّك في بلدك لم تغادره.

استأجرت غرفة مناسبة في نزل قريب من الجامع. بدأت سريعًا آلف الحياة؛ فكلّ ما هناك كان يوحي بالألفة، ناهيك عن أنّ القواسم ما بيننا كثيرة، أقلّها أن ليس هنالك ما يفصل بيننا سوى بحر صغير، هو ذلك المسمّى «بحر العرب». غير أنّ عائق اللغة كان يذكّرني بغربتي. سحنتنا واحدة، كما أنّ الهنود طيّبون بطبعهم، ودودون، بسيطون، معتادون الغرباء، قادرون على الانسجام معهم.

مذهلة هي الحياة في بلد تلاقح فيه الكثير من الثقافات واللغات والأديان والرؤى والأفكار، حتى تلك التي اندثرت في بقيّة الأصقاع. مئات اللغات والقوميّات والأجناس، الكثير من الأفراح والأتراح في هذه الهند المكتظّة بالظلال. الإله هنا حاضر بكلّ صوره؛ يرنو للجميع بودّ، فيتجلّى ذلك الودّ مساجد وكنائس وبيعًا ومعابد وبشرًا وحجرًا وكائنات... الهندوسي والبوذي والسيخي والوثني واليهودي والمسيحي والمسلم، بل وحتى ذلك الذي ينكر كلّ شيء ولا يؤمن بشيء. إنّها الأرض والسماء بأبهى وأشنع صورهما وأكثرها كثافة. إنّها الشرق والغرب، الجنوب والشمال. خليط متجانس متناقض، يخلق تنوّعًا ساحرًا، تمتزج فيه روائح التوابل بعبق الزهور وأدخنة البخور والعود. بلد مآله الوئام وإن أرهقته نيوب مغالين ودماء أبرياء. هذا ما أحسسته وأنا أطوف بكلّ تلك العوالم من البشر والديانات، محتشدة في تلك المدينة. كان لهذا التنوّع جراحه التي حاول البعض منذ عدّة قرون بلسمتها محاولاً التوفيق بين الإسلام والهندوسيّة، أكبر ديانتين هناك، وإرساء تعاليم مشتركة توحّد بينهما؛ لكن سرعان ما أصبحت تلك التعاليم دينًا جديدًا، هو السيخيّة، ناحتًا اسمه من كلتا الديانتين، فكان عنوانًا لنكء وخلق المزيد من الجراح.

بدأت أواظب على المكتبة بحثًا عن كلّ ما يتعلّق بذلك «الجفر»

وعلومه الغامضة. أقضي طوال نهاري هناك، بين دهاليزها، أتشرّب المعرفة، متنفّسًا عبق أغبرة منبثّة بمخطوطاتها. في المساء أتسكّع بين أطياف الظلال والبشر. أمّا في يومَيْ الإجازة الأسبوعيّة فألوذ بنفسي بعيدًا في رحاب البراري وقراءة بعض كتب أحرص على استعارتها.

عرفت أنّ للعربي هنا مكانة تصل حدّ التبجيل. فكنت أقرب ما أكون إلى إله. أدركت حينها لماذا كانوا ينصّبونهم أمراء. وكم شعرت بالأسى من أناس أتوا إلى هنا ورأوا ما رأوا من تلك الحفاوة والتبجيل، فانتهزوها وراحوا يستبدّون ويهيمنون، أحيانًا باسم الدين، وأحيانًا بلا شيء إلّا كونهم من بلاد النبيّ، أو منتسبين إليه.

لا أدري لماذا كنت، حتى في ضوضاء المدينة، أشعر بحالة من السكون والدعة والاستقرار وهدوء البال!

قامت صداقة قويّة بيني وبين قَيِّم المكتبة. أحسست وجهه مألوفًا، وكأنّني كنت أعرفه أو سبق لي رؤيته. أليس هذا شعورًا مألوفًا يتكرّر كلّما التقينا وجوهًا أرواحها شبيهة بنا؟! كان يبدو عليه الاهتمام بشغفي ونهمي الشديدين بالقراءة؛ خصوصًا بمجالاتها الماورائيّة. فبدأ يتقرّب منّي متظاهرًا برغبته في تحسين عربيّته، التي كان يجيدها كثيرًا، يتجاذب معي أطراف الحديث كلّما سنحت فرصة، وهو ما كان يقوم به مع زوّار آخرين من لغات أخرى، أظنّه كان يجيدها أيضًا. يومًا بعد يوم زاد إعجابي به، اتّضح لي سعة أفقه وغزارة معارفه، بل وشدّة إلمامه ودقّته في أداء مهمّات وظيفته، حتى أحسست وكأنّه يحفظ عن ظهر قلب عناوين كلّ الكتب والمخطوطات، وأسماء مؤلّفيها ومجالاتها، وأرقام أرشفتها وأماكنها، بل ومضمون الكثير منها. سيساعدني ذلك في العثور على كثير ممّا أبحث عنه.

الغريب أنّه اكتفى بما قلته له عن سبب مجيئي، وسبب اهتمامي

بهذه النوعيّة من الكتب، وإن رأيت في عينيه أنّه لا يصدّق حرفًا ممّا قلته عن أنّني باحث يروم نيل شهادته العليا في مجال الماورائيّات. لم يطلب منّي ما كان يطلب من الآخرين من وثائق إثبات، وإن كنت قد احتطت للأمر.

استغرقت ثلاثة أشهر في البحث المتواصل، متحاشيًا أيّ ذكر لكتاب «الجفر». ذات يوم، وبعد أن شعرت أنّ العلاقة الحميمة بيننا تسمح، سألته عن أمر ذلك الكتاب. ويا للأسى! كم تغيّرت معاملته لي تغيّرًا أفقدني الأمل تمامًا في الحصول على شيء منه. كان القنوط يستولي عليَّ وأنا أتردّد عليه. منعني من مواصلة البحث، طالبًا منّي وثائق ثبوتيّتي كباحث موفد. ولم يتغيّر موقفه حتى وأنا أبرز له تلك الوثائق، بل ازداد تعنّتًا وتصلّبًا.

استحال كلّ ذلك مرضًا أقعدني الفراش، زادت وطأته باطّراد. نُقلتُ إلى المستشفى، بعدما لم تُجْدِ مهاراتي في طبّ الأعشاب نفعًا. كنت لا أكاد أدرك شيئًا، بين الحياة والموت كما يقولون، حين زارني قيّم المكتبة. ألجمتني الدهشة وهو يتفحّصني بعينين باردتين كأن لم أكن أعني لهما شيئًا، أو كأنّهما عينا طبيب اعتادتا المرض والمرضى. إذن ما الذي أتى به، ما دام أنّه يصليني بهذا البرود؟! وما الذي تفعله عينان باردتان بمريض كانتا جزءًا من مرضه؟!

تأمّلتهما من وراء غشاوة. ولحظة أن انتهيت، لاح وميض مباغت سريع لم يكن غيري ليلحظه. ثم ها هما تعودان إلى حالهما. خرج صامتًا كما جاء. وبعد أقلّ من ساعة، وبطريقة ما، ربّما بما أظنّه لديه من نفوذ كبير، أخرجني من المستشفى، ليس إلى النزل، بل إلى بيته.

جرحتْ صدري العليل أوّل نسمة هواء وأنا أتخطّى مسنودًا باب المستشفى. وها هو السعال يعاودني مرّة أخرى بعد ساعتين من توقّفه.

كان ما أصابني منه طوال تلك الأيّام قد جعلني في مرّات كثيرة أبصق دمًا. ها أنا مصدور إذن! ولا بدّ لي من تحاشي أيّة نسمة هواء باردة لا أستعدّ لها! يا إلٰهي! أيمكن حتى لنسمة هواء أن تجرح! لا بدّ أن أتجنّب كذلك أيّة رائحة فوّاحة، كالعطر مثلاً. كنت أعرف أنّ من ابتلي بهذا المرض يلازمه طويلاً، وحالات قليلة هي التي تعافت منه.

كنت كمن هو في حالة سكر شديد وأنا ألج منزله، لتستقبلني ما خيّل إليَّ أنّهما هالتان، اشتممت فيهما رائحة الأنثى. يبدو أنّها المرّة الأولى التي أشتمّ فيها رائحة لا تثير صدري، بل إنّها خفّفت كثيرًا ممّا بي. حتى إذا ما حنت نحوي كلتا الرائحتين، كانت إحداهما فوّاحة أكثر من الأخرى، حتى لم أعد أشتمّ سواها، فتوقّفت عن السعال تمامًا.

أفقت على صوت ناي رخيم ينبعث من مكان ما قريب، كأنّما كان يتصاعد من أعماقي. أغمضت عينيَّ. لا أدري كم من الوقت مرّ وأنا ساهم فيه. كان الصوت مشبعًا بتلك الرائحة الفوّاحة. وفجأة ذهب به قرع خفيف على الباب. فتحت عينيَّ على وجه خمري نضر يتأهّب للنهوض من على كرسي متأرجح إلى جوار سريري. كانت ملتفّة بوشاح هندي. شعرها الفاحم المتماوج ينسدل إلى ما لا نهاية. دخل القيِّم بوجه ينضح بالبشر، تعقبه امرأة في الستّين تنضح طيبة، لا شكّ أنّها زوجته. تأكّد لي ذلك منه وهو يعرّفني بها أوّلاً. ذكّرني وجهها الأسمر المتغضّن بأمّي. أمّا عازفة الناي التي أطرقت خجلاً بعينيْها الواسعتين وهو يعرّفني بها، فكانت صغيرته. بدت لم تتعدَّ الخامسة والعشرين، وعرفت لاحقًا أنّها قد تجاوزت الثلاثين بعام واحد، وأنّها أنهت منذ بضعة أشهر رسالة دكتوراه في مجال اللاهوتيّات، وهي على وشك أن تزفّ إلى زميل لها. سأحضر العرس لا ريب.

ها أنا أتجرّع محلولاً بلون الدم ومرارته، أربع مرّات في اليوم. لم

أكن لأطيقه لولا أن كانت عازفة الناي تجعله أقلّ مرارة، بل ومستساغًا، إذ تسقينيه. لا أحسب هذا الدواء هو ما عافاني. لا بدّ أنّه عبق جسدها وموسيقى نايها الآسرة.

كانت عشرة أيّام كافية لكي أشفى وأعود إلى النزل. لكنّهم أصرّوا على أن أبقى لديهم حتى أتجاوز كلّ إرهاصات المرض الذي كان سببه ـ حسب القَيّم ـ نوع من ميكروب ضارّ تفرزه الأتربة المستدقّة المتعفّنة على ورق المخطوطات القديمة متأثّرة بالرطوبة العالية، تتسرّب عبر استنشاقها مدّة طويلة. تبدأ تلك الميكروبات بالتكاثر بعد استيطان الرئتين، البيئة الملائمة لها، لتصيبهما بالتهاب حادّ، يتطوّر بالإهمال إلى سلّ فتّاك.

وبرغم ما كنت أكنّه لذلك المرض من بغض، فقد كنت مدينًا له بتلك الجلسات المسائيّة الممتعة التي قضيتها في منزل القَيِّم.

إنّ للمرأة في رحلتي، بل وفي كلّ حياتي، أثرًا بالغًا، أكثر ممّا هو لدى الآخرين. هي ليست بالنسبة لي ذلك الكائن الهشّ الناعم، أو الوسيلة التي تلهينا نحن معشر الرجال. إنّها تعني الوجود ذاته. إنّها لا تمثّل لي النصف الآخر المكمل، بل الأنا الممتزجة بنفسها. أظنّ ذلك ما يمثّله الرجل بالنسبة لها أيضًا. إنّ الرجل والمرأة جنس واحد ذو كينونة واحدة ووجدان واحد. وإن اختلفا في بعض الجوانب الفسيولوجيّة، فهو اختلاف يسعى لخلق هذا الإنسان الكامل. إنّه ذلك التكامل الذي يتجلّى بأبهى صوره في الجنس. إنّه الذكورة والأنوثة، يتلاقحان يتمازجان، ويبدآن أوّل الأطوار المنتهية بنا.

يا إلٰهي! أشعر بأنّ المرأة هي الوحيدة القادرة على بعثي. هي الوحيدة التي جعلت للحياة معنى. إنّها المعنى المتجسّد للخلود.

ها هي الخواطر تتوالى وأنا أكتب. والحياة بمجملها مجموعة خواطر تتصل وتنفصل. لكأنّني مجرّد خاطرة تعبر شخصًا آخر.

كان للقَيِّم ستّة أبناء: ثلاث إناث، ومثلهنّ من الذكور. تلاشى خمسة منهم في خضمّ الحياة، وبقيت الصغرى تنير حياة أبويها. لكن ها هي على وشك التلاشي هي الأخرى. حتى أنا ـ من أحبّاني أبويها كأولادهما ـ سأتلاشى. أظنّهما كانا أيضًا على وشك التلاشي قريبًا.

كانت تتحدّث العربيّة كأبيها، وإن لم تكن بطلاقته. غير أنّ عربيّتها الركيكة تلك كانت أطلقَ ما يكون بقلبي، وهي تلهجها بصوت عذب. كانت تقرأ لي أو نقرأ معًا ما يوافيني به الأب من كتب. قارئة نهمة كانت، وفي أعماقها نهم آخر لا تجرؤ على إظهاره. إنّه رغبة الأنثى في أن ينظر إليها كأنثى، أو كجسد يتلظّى بالرغبات. كنّا نقضى الأماسي معًا، نبدأ بصحبة الأب، ثم حين يواريه النوم نبقى معًا. ما زلت أتذكّر وهي تقرأ لي ما يشبه السحر، من بين دفّتي كتاب ملحمة الهند الشهيرة الـ «مهابهارتا». ما زلت أتذكّرها تتغنّى بأشعار طاغور بلغته، فأشعر حينها كيف كانت قد جعلتني لا نهائيًّا، وكيف أنّ تلك كانت هي لذّتها. ثم نسبح على صوت نايها في سموات من الوجد، أكون حينها ذلك الـ «راما»، ولا أدري بعدها ما أكون ولا متى يكون قد سرقني النوم.

متعة مذهلة كانت تلك الأماسي. وحتى حينما غادرتها، بأمر من القَيِّم نفسه، نحو حيدر أباد ومومباي ومدراس ودلهي، للبحث في مكتباتها، ظلّ عبق تلك الأمسيات وصداها يتردّدان في صدري. كنت كمن يحلّق بأجنحة من متعة.

حينما عدت إلى المدينة، بعد انصرام ما يزيد على الشهر، قرّرت البقاء في النزل؛ فرارًا من ذلك الضعف الذي يغشاني أمام كلّ أنثى، وحنقًا منه أن جعلني أهدر كلّ ذلك الوقت وتلك المسافات دون شيء.

ولكن هيهات! فما هو إلّا يوم، وبدون أن أدرك كيف علم بعودتي ولا محلّ سكني، حتى كان «القَيّم» يطرق عليَّ الباب. وما هي إلّا أن كدت أفقد قدرتي على الاحتمال وهو يخبرني بأنّه كان يعرف مسبقًا أنّني لن أحصل على شيء. كان وجهه من الشحوب بحيث شعرت أنّ أمرًا جللاً قد حدث أو أنّه سيحدث في القريب العاجل. وها هو لا يفوه بشيء سوى تلك النظرة الحازمة أن أعود معه، والتي لم يكن لي قدرة على الوقوف أمامها أو ردّها. سرتُ أمامه مذعنًا كطفل مذنب يسير أمام أبيه المؤنّب له. ثقيلة خطاي أجرجرها نحو البيت. كنت أشعر أنّي إن عدت لا بدّ أنّ قدرتي على مقاومة كلّ تلك الفتنة ستتلاشى. وها أنا لا أستطيع أن أقول له إنّ ما منعني من عودتي إليهم، وهو ما كنت قد وعدتهم به، هو خشيتي من أن أضعف أمام ابنته أو أن تضعف هي أمامي.

لا أريد أن أذهب في متعة قد تكون وبالاً على هؤلاء الذين أحببتهم من كلّ قلبي. كانت اللهفة فوق قدرتي وأنا أتخيّلها تستقبلني بأماسي نايها الجميلة. وعندها لا يكون أمامي سوى التلاشي أمام لهفتها الطاغية ودهشتها المتفجّرة، وكيف أنّها ستولي فزعًا إلى أبيها، تخبره بتلاشيّ ذاك، وبما كانت تحسبه حتى ذلك الوقت محض خرافات، وكيف سيكون خوفها ـ وهي المتخصّصة باللاهوتيّات ـ كبيرًا، وكيف أنّا سنذهب للسباحة ـ مثلما وعدتها بعد إصرار شديد منها ـ حال عودتي... إنّما هل سأحتمل رؤيتها تسبح دون أن تثور بي كلّ رغبة؟! يا إلٰهي! لو أنّني أتلاشى أمام هذا القَيِّم فيسلّمني من خوف يتزايد مع كلّ خطوة أخطوها. إنّما كيف لي أن أتلاشى أمامه؟! هل أجرّب؟ وماذا ستفيدني التجربة سوى أن تجعل نظرته أكثر سخطًا وحزمًا؟!

كنت قد تعلّمت السباحة صبيًّا، عقب حادثة «الكهف المنجوث»

تمامًا، في «سائلة» القرية، في تلك البرك التي عادة ما كان يطمرها ويجرف ترابها أحد السيول الكبيرة ليأتي سيل آخر ويطمرها. كنت أتخوّف دائمًا من السباحة وأتلهّف عليها في الآن نفسه. كنت أنظر إلى الصبية السبّاحين المتضاحكين فأحسدهم أيّما حسد! أشعر أن متعتهم لا تضاهيها متعة وكأنّما كنت أراهم يعتنقون السيطرة؛ السيطرة على الماء وعلى أنفسهم. كانت الرغبة تتصاعد داخلي. كنت كمن يرغب في مضاجعة الماء والتلوّي بين أحضانه. في أحد الأيّام المكفهرّة الملبّدة بالغيوم قرّرت أن ألقي بنفسي في إحدى تلك البرك التي كان لها أسماء كما هي للبشر. كان اسمها «المسكونة». أمّا لماذا سُمّيت هكذا فلأنّ أهل قريتنا يدّعون أنّها البركة المفضّلة للجنّ، بل وإنّها قلب مأواهم. كنت وحيدًا، لا من أحد ينتشلني إن نهشني الخوف ودهمني العجز. نزلتها بملابسي، حتى إذا ما أدركني الغرق، شعرت بشيء ما يدفعني للأعلى والطفو. أرعبني ذلك الشيء أكثر ممّا كان سيرعبني الغرق نفسه، فاندفعت مجدفًا بكلّ ما أوتيت من خوف، موليًا الأدبار. ومنذها لم أكن لأسبح وحدي مطلقًا. وها أنا بمرور الوقت، كنت أتمكّن من السيطرة على جسدي في الماء، لأصبح واحدًا من أولئك الذين كنت أحسدهم. ولأنّه كان عشقًا فقد رحت أمهر فيه، حتى بززت كلّ من سبقوني، أو أنّ هذا ما أحسبني صرته.

أتذكّر أنها قالت، عشيّة رحلتي التعيسة تلك، إنّها ستأخذني، حال عودتي، على متن درّاجتها الناريّة ذات فجرٍ، تطوف بي أرجاء الطبيعة. كيف إذن سأحتمل التصاقي بجسدها وتطويقي له؟! ألن يكون للطبيعة دور في إيقاظ تلك الرغبة التي أتحاشاها؟! ألا يدرك هذا الشيخ ما أنا فيه، وهو الذي أعرفه خبيرًا بخبايا النفوس؟! آه! لو أنّه يعفيني ممّا هو مصرّ عليه! ثم وإن كانت هي التي بعثته لدعوتي إلى حفل زفافها، فإنّني

ما استعجلت رحلتي تلك إلّا لحضوره. وهل يمكن لي ألّا أحضر؟! بل ذلك ما أكّدته لها ذات مساء بلغة أقرب ما تكون إلى القسم، إنّما ما زال أمامنا أسبوع بأكمله.

ثم لماذا يتراءى لي بكلّ هذا الوجوم والشحوب؟! أكاد أجزم أنّه لم يعد هو ذلك القيِّم الذي أعرفه. أتراها الظلال. . .؟! يا لهول الفكرة التي باغتتني! التفتّ إليه شاحبًا، فلا أحار سوى صمت مطرق نحو الأرض.

بلغنا المنزل. كان كلّ شيء يشي بالخوف والحزن. ما الذي جرى ليتحوّل كلّ ما كان يتراقص جذلاً إلى سكون واجم؟!

لم تستقبلني ملاك الناي كما كنت أتمنّى وأخشى في الآن نفسه. كانت الأمّ هي من استقبلتنا. ولقد كانت شيئًا آخر تمامًا، لكأنّها تمثال مجسّد للحزن والكمد.

يقولون إنّ الحزن شعور لا يمكن رؤيته، مثله مثل أيّ شعور. يا لهم من واهمين! إذ لم يكن ما يلوح سوى هذا المسمّى حزنًا. هفّت مرتدّة عنّي تشهق ببكاء مرير. انقبض صدري، مدركًا ذلك الذي حصل. التفتّ صوبه. كانت عيناه مستغرقتين في بكاء صامت. آه! يا إلٰهي! إنّها هي! أجل، إنّها الظلال!

كيف لم أنتبه كلّ ذلك الوقت؟! بل كيف نسيت أمرها تمامًا هنا؟! كيف اطمأننت إليها، وهي التي كان لي من أمرها ما كان مع شيختي؟! ها هي على حين غِرّة منها وغفلة منّي تفجعني بمن محضتني كلّ ذلك الدفء والانعتاق. كأنّي صار لزامًا عليَّ أن أكره وألّا أبالي بأحد، حتى لا تفجعني برحيله.

ما أوقح جبنك أيّتها الظلال! أتدركين ذلك؟! أليس كلّ ما تقومين

به جبنًا؟! ها أنا أتحدّاك بكلّ ما حملته روحي من مقت. أتحدّاك! إن كان ثمّة مذنب فأنا المذنب الوحيد بحقّك. إن كنتُ ما تعتقدينه فها أنا مستعدّ. لمَ تقتصّين ممّن لا شأن لهم؟ تقتصين؟! بل تمارسين إجرامك بجبن وضعة.

ها هم أعوانك مثلك يمارسون إرهابهم ضدّ عُزّل أبرياء، وبالخسّة نفسها التي تمارسينها أنت. يقتلونهم بالآلاف. يحصدونهم حصدًا؛ لا لشيء إلّا لأنّهم يأبون الخضوع لك أو لأولئك الذين امتصّوا دماءهم وخيرات أوطانهم. وسيهزمونهم! نعم، سيهزمونهم! تمامًا كما سأهزمك أنا وكلّ المقاومين في الأرض! سنهزمك مهما بلغ بغيك وجبروتك. سنهزمك أيًّا كان ظنّك في ضعفنا وقوّتك. سنمتلك تلك القوّة القادرة على ردعك، مثلما امتلكها يومًا هؤلاء البسطاء العزّل وهم يواجهون بصدورهم نيران أعوانك. كلّما سقط فوج منهم قام آخر، حتى إذا كلّت زنود المحتلّ من إسرافها في التقتيل لم تكلّ صدور أولئك من البذل.

كم قتل أعوانك في هذا البلد! كم من الناس! كم من الشجر! كم من الكائنات! كم نهبوا من خيرات! إنّما هل تمكّنوا من القضاء عليه؟! هل ماتت الهند؟! كلّا؛ لقد اندحر الغزاة، وعادوا يجرجرون عار التأريخ.

وها هي الهند واقفة، رغم ما تعانيه من انقسامات وتشظٍّ! إنّها الهند. إنّها الأرض. إنّها الحرّيّة. إنّه الحقّ... ومن ذا قادر على الوقوف في وجه الحقّ؟!

* **

ها هو نايك أيّتها الملاك ذكرى لا تمَّحي. أحمله معي أنّى أكون. لا يزال يهمس في أعماقي بوحًا لا تستطيع ترجمته الكلمات. لا يزال يبعث فيّ تلك الحياة التي عشتها قربك، وكلّ شيء فيها يؤكّد أنّ ما كان

بيننا لم يكن اشتهاءً. لقد كان شيئًا من ذلك الحبّ المطلق المنزّه عن كلّ رغبة، الأسمى من كلّ حبّ. يا لك! كم هذّبتني! فلم أعد أرى في الأنثى مجرّد جسد، بل شيئًا أعمق بكثير. إنّها محض حياة. بل إنّها في كثير من صورها أقرب ما تكون إلى إله.

وها أنا جئت كي أحضر عرسك، إيفاءً بوعد قطعته لك. كلّ التفاصيل الصغيرة التي ظللت تصنعينها لاستقبال ذلك الحدث حاضرة في كلّ الأرجاء، حاضرة بحزن وألم، يؤكّدان حقيقة أنّك رحلت عنها إلى الأبد. هل كان لك أن تذهبي في تلك الرحلة من دوني؟! هل تأخّرتُ عن موعدي؟! أم أنّ صديقاتك استعجلنك في الذهاب رفقتهنّ، كما يعنَّ للرفقة دائمًا؟!

صويحباتك يقلن إنّك كنت في ذروة فرح، تتقافزين وتتجارين متضاحكة هنا وهناك، مداعبة كلّ شيء. تقبّلينهنّ واحدة واحدة، محتضنة شيئًا لم يستطعن إدراكه. كان لتصرّفاتك نكهة غريبة، كطفل خرج في رحلة ممتعة لأوّل مرّة، ليرى كلّ شيء بتلك النظرة المنبهرة المتلاشية فرحًا وذهولاً. تحتضنينهنّ وتتشمّمين عبقًا كأنّه الوداع. وحين انطلقتِ لمواجهة الموج كنت وكأنّك ذاهبة لاستقبال معشوق ومعانقته وضمّه بين ذراعيك، ضمّه إلى حضن وإلى أعماق. جسدك عارٍ إلّا من زرقة فجر بدأت تتماهى رويدًا رويدًا أمام ما سيأتي من ضياء. هل كان اختيارك لذلك الشاطئ المقفر رغبةً في ألّا تراك أعين الصبح البعيدة عن هنا؟! أم كان وعدًا قطعته للموج أن تتّحدي به، عاريةً مثله؟ ها هو شعرك الفاحم المنسدل يتماوج طافيًا، ووجهك يلتفت إليهنّ بتلك الابتسامة الرائقة ويبتعد أكثر فأكثر، وهنّ يتجارين نحوك يحاولن منعك من الاستغراق أكثر. لا تأبهين لصرخاتهنّ الممتزجة بذلك الهدير. تمضين ذاهبة في خضمّ موجك، منسابة معه نحو اللاعودة.

ها أنذا لا أملك إلّا أن أعتذر لنايك، الحزين أكثر من أيّ شيء؛ كأنّه يعرف تمامًا ما حلّ بك!

منذ الآن سأحمله معي. سأكمل معه ما تبقّى لي من بقاء. سيقودني إلى ذلك الشاطئ مرارًا. سنجلس هناك معًا، كأنّا وإيّاك نجلس معًا. سيقذفني إلى الموج ليقذفني الموج إليه. سنخوض معًا عبابًا خاضك. سنعتلي صهوة تلك الموجات، منزلقَيْن معها نحو العمق، بحثًا عنك في ذلك المدى اللانهائي. سنراك تلك الحوريّة التي تبعثها الأمواج إلى ذلك البشري المتسرّب من أحلامها. سأصبح أنا تلك الموجات التي تنحسر نحو الشاطئ. سأكون ذلك الصدى. سنعود إلى البيت كلّما تعبنا، أضمّه بين جنبي كأنّي أضمّك أنت، كأنّي أزفّ بشرى عودتك، فلا يزداد كلّ شيء إلّا صمتًا، ولا يزداد أبواك إلّا شحوبًا. وكيف لي أن أرى كلّ ذلك الحزن ولا أصبح بعضًا منه؟!

لا أدري كم من الحزن ظلّ طاغيًا في صدر نايك، حتى انفجر ذات ليلة من فم أبيك شلّالَ بكاء! دخل الغرفة ذاتها، واتّخذ جلستك ذاتها، متناولاً الناي، ذاهبًا في البوح. وها هو يخبرني أن أتأهّب. إنّما إلى أين؟! ذاك ما لم أجرؤ على أن أسأله. لم يكن ليزيد على ما قاله شيئًا، سوى أنّ فكرة ومضت تقول: سأعلّمك ونحن في طريقنا كيف تناغي.

هي المرّة الأولى - إذن - التي أستطيع فيها قراءة فكرة من أفكار أبيك، بعد أن كاد يجعلني أشكّ بأنّ تلك القدرة ما زالت لديَّ. نسيت أن أخبرك بأنّ تلك اكتسبتها في مكان ما.

التنصيب الثالث

المتبتّل

ربّما لا تعلمين عن أبيك أنّه أحد كبار المقاومين في الأرض، وأنّ ما جرى لك هو نتيجة قربك منه. أمّا ضدّ من كانت مقاومته، فهذا ما لا أستطيع البوح به لك؛ حتى وأنت مجرّد روح.

في الصباح كان قناع ألم يغلّف وجهيهما، سادرَيْن في غياهب حزن لا يزول. رحت أحدّث أمّك أنّنا لا محالة عائدان، وإن بدت مدركة أنّ لحظتنا تلك هي آخر عهدها بنا، فكان وداعها صمتًا آثرتْه على أيّ كلام. لا أدري لماذا أحسست بي حينها أشبهها، بل أشبهكم جميعًا، أو لعلّكم أنتم من تشبهونني! بل وأدركت سرّ إحساسي رؤيتي لأبيك سابقًا؛ لقد كنت أرى فيه نفسي. وهل من ألفة تفوق ألفة الإنسان نفسه؟! أدركت سرّ اهتمامه الشديد بي، وغضبه الأشدّ حين سألته عن الكتاب، وهو ما لم أفهمه إلّا الآن: لقد كان يريد لكلّ شيء أن يأخذ مداه.

هل كان مهتمًّا بأن أطلعه على من أكون، وهو يدرك كلّ شيء؟! كنت أنا من ينبغي له الاستغراب؛ فبالرّغم من بقائي كلّ تلك المدّة، لم

أفطن إلى أنّه معلّم ظلّ، وأنّه وجهتي ومقصدي، رغم أنّ كلّ شيء فيه كان يشي بذلك: روحه، حواسّه، نظراته، سكناته، حركاته...

غير أنّني أعود لارتكاب هفوة أخرى؛ إذ إنّ ذلك ليس مستغربًا؛ فلهؤلاء تلك القدرة على الغموض، والتي تجعل منهم مجرّد بشر عاديين، بل وبسطاء. سأكتشف في الطريق أنّ ما كنت قد محضته من شفقة لهذا الشيخ ونحن نغادر، كنتُ أولى بها منه. ها هو يقطع بي دربًا فدربًا، مالئًا كلّ شيء: الجبال والرمال والشجر والأحلام والآمال والأفراح والأتراح... كلّ شيء، كلّ شيء. كان لكلّ مكان قصّة لديه، أو مأثرة لنضاله ورفاقه.

كنت أدرك أنّه يدرك قدرة كلينا على التلاشي والانتقال من مكان إلى آخر من دون شيء، فقط بإشراع الرغبة. إنّما وكأنّه كان يريد لهذا الدرب أن يتجذّر ذاكرةً لا تمّحي. فكان أن راحت أقدامنا تغذّ السير قاطعين أمداء شاسعة تكتظّ قرًى من الجنوب الغربي باتّجاه الشمال الشرقي، حيث سهل «الجانج» العظيم. وهناك في أقصاه تقع جبال «الهيمالايا»، أعظم سلسلة جبال على وجه الأرض؛ حيث هي وجهتنا، وكأنّما بعد أن نقطع كلّ تلك المسافة لا بد من شهقة تليق.

كان وكأنّه يرى أولئك الذين قضوا في تلك المواجهات مع الظلال. لا تكاد تخلو منطقة نجتازها من موقف ونضال. يمضي المقاومون شاهرين أجسادهم في وجه من تدجّجوا بكلّ سلاح. يمضون شاهرين سلاح الرفض، يذودون عن حرّيّتهم بأرواحهم، متساقطين الواحد تلو الآخر والفوج تلو الفوج، دونما خوف ولا وجل ولا تخاذل، قاذفين الرعب في قلوب الظلال والظلاليّين. وها هم أرواحًا عظيمة ترفرف فوق كلّ يأس. ها هم يرسون نهجًا جديدًا في قهر العنف باللاعنف، والكراهية بالمحبّة، والموت بالحياة.

يبلغ بي الإجهاد مداه، وتتقرّح قدماي، وتتجرّح مقلتاي، ويتلوّى جسدي ألمًا وسغبًا وظمأً؛ فيأذن باستراحة صغيرة إلى شجرة ما، أو إلى واحدة من تلك القرى التي كأنّما تنشقّ عنها الأرض أنّى توجّهنا. وحين يبدأ الحديث كان وكأنّ حديثه مغمور بالصمت، بل وكأنّ المكان والزمان يتأبّدان في لحظة، لا هي قبل ولا بعد. وبصمت كهذا تشرّبت تلك الآلام والأحلام والآمال.

وها إنّي كلّما استأنفنا السير أكاد أجاريه بما يشبه الركض، دون أن يبدو عليه أيّما تعب. مسكونًا كان بما يريد، وماضيًا إليه دونما التفات لشيء. كأنّها رحلة حجّ لا تنتهي. مرهقة، لم يكن يخفّف من شدّتها إلّا ما كنت أحظى به من أحاديث يبثّها فتتشرّبها روحي بعطش الأرض وتبسم قراها التي كانت تستقبلنا بكلّ الحبّ والودّ.

كان يعرف كلّ قرية وكلّ مفازة وكلّ درب، بل وكأنّه يعرف كلّ شيء هناك. ولم يكن ذلك الزاد الذي تسبغه علينا تلك القرى إلّا كرمًا زائدًا منها لا نكاد نتقبّله. كان يختار أيّها أشدّ فقرًا فيأوي إليها ويأكل من أُعطياتها البسيطة، وكأنّه يتبرّك به سخاءً لا يمكن أن تجود به أغنى المدن، بل ويعتبر كلّ ما هو منها طاهرًا لا يدنّسه دنس.

كانت رحلة صبر قصوى. ولولا أن كنت قد اعتدت الشظف والزهد في معتزلي السليب، لكان فيها نهايتي.

ها أنا أتعجّب من كلّ ذاك الذي كنته، لكأنّ كلّ ماضيّ ليس شيئًا مقارنة بما أنا فيه الآن. أتعجّب من كائن كان يحيا حياة عاديّة بهيميّة، لا همَّ له إلّا إشباع رغباته، فيتحوّل شيئًا فشيئًا، وتتفتّح عيناه على أشياء لم تكن حتى قد خطرت له على بال؛ من شخص يبحث عن حقيقته في الوهم، معتقدًا أنّه قد بلغها، فراح يعتزل كلّ شيء، ليحظى بما يحسبه كلّ شيء. ولحظة أن حاز ما حاز من قدرة ومعرفة، أدركه غرورها فظنّه

الحقيقة. ارتداد مفزع إلى بهيميّته الأولى لم يكن لينفضها عنه سوى رحلة تهذيب تتكشّف فيها ذاته الغرورة. وها هو يخوض غمارها.

يا لتلك المسافة الهائلة التي اجتازت بنا التجاوز! ألف ميل قطعناها في شهرين من عذب العذاب. ويا لها من هوّة شاسعة تلك التي كانت قد فصلتني عنّي دون أن أدري! وكان لأبيك الفضل في رأبها، بما قادني من مسافات، وبما بثّ فيّ من فضاءات عبر نايك. كنت كلّما أمعنت السير أقترب منك ومنه ومنّي في الآن نفسه. كانت صحبتكم ضرب مشقّة عظيمًا اعتقدت فيه أنّني أفتقد نفسي، وإذا بي أكتشف أنّي أكتشفها.

أهو أبوك أم نايك علّمني كيف هو البوح؟! أم كلاهما؟! يا إلٰهي! لكأنّك أنتِ تعلّمينني. لكأنّك تقولين: أنا نايك، هاك فاعزفني! هاك مقبلي فاطبق شفتيك! ستصير كلّ قبلة بوحًا تنغّمه أناملك وهي تتحسّس جسدي! فكانت أناملي تتيبّس وتلين منسابة فوق مساماته، تناجي ما تتخلّله من ريح يشهق بها صدري لتنفخ فيه الشجى وتخنق فيّ الدمع.

بموازاتنا نهر «الجانج» المقدّس، وما كدنا نلتفت إليه حتى اعترت أباك سَورةُ غياب ظلّت طويلاً. كان يمضي مشرّعًا يديه لكأنّهما تحتضنان شيئًا ما. ولحظة أن بلغ مكانًا بعينه من ذلك النهر إذا به يرتدّ فجأة نحوي ليرعشني بقوّة هائلة أسقطت ما على ظهري من متاع، ثم يرفعني بين يديه وكأنّي ذلك الشيء، وليقذف بي وبه في ذلك الخضمّ من النهر. ويا لظنّي! كم سألعنه! وهو يسوّل لي أنّ أباك لا شكّ يريد إغراقي انتقامًا لك. ولولا أنْ كنت أجيد السباحة لغرقت بالفعل؛ إذ إنّه لم يكن ليبالي بي، أو كأنّني لم أكن موجودًا معه بالأصل. انتفضت عن يديه مبتعدًا وبسهولة لم أكن أتوقّعها. التفتُّ إليه وقد استسلم لإجهاش مرير. ويا لنشيجه ذاك كم جعله غريبًا ومريبًا! وكم اعتراني حينها من برودة راعشة! لا أدري أكان من الماء أم من أبيك، أم أنّ كلّ ذلك كان طقسًا تطهيريًا

آخر نستعدّ فيه لوداع كلّ ما له علاقة بالدفء، فلا يبقى أمام خطانا سوى الزمهرير!

خرجت من الماء مرتجفًا لاهثًا يعتريني سعار الإبقاء على آخر ذرّة دفء في جسدي. سيمرّ وقت طويل وأنا على تلك الحالة، أراه ولا أراه، حتى لكأنّ شرودًا ما أصابني، أو لكأنّه استسلام لغفوة مباغتة، لأفيق إثرها فلا أراه في الماء. كان الوقت قد أوشك على الغروب؛ إنّما غروب ماذا؟! لا شمس هنا لأقول إنّها غربت! تلفتُّ يسكنني الذعر من أن يكون قد غرق، أو أن يكون قد تركني ماضيًا إلى حال جنونه. رأيت ما يشبه شبحًا يكاد يتوارى في البعيد، فانتفضت أحمل متاعي وأغذّ نحوه خطًى مثخنة. أدركته جاثيًا أمام ما يشبه المزار، مجهشًا يخاطبه بالهنديّة بعد أن كدت أنسى أنّها لغته الأمّ. انزحت بصمتٍ باحثًا عن جهة تداري عنّي الريح. استسلمت للنوم، فكأنّه صوت نايك ينبعث من أعماق ذلك المكان. رأيتني في المكان والزمان ذاتيهما ونشيج أبيك ذاته، لكن بلغتي أنا. كان جاثيًا يتحدّث وباب يطلّ منه وجه فتاة.

أيقظتني تلك الذرّة الأخيرة من الدفء والتي حرصت على أن تتحوّل وهجًا يغمر جسدي طوال الليل. كان أبوك جاثيًا على حالته، مسندًا يديه إلى الأرض، وتاركًا لرأسه انحناءة يتلقّفها صدره. لم يكن ثمّة من صوت هذه المرّة إلّا صوت شخير خفيف. ابتسمت لا أدري لماذا! ورحت أستطلع المكان تاركًا أباك في سكينته. كان صباح مشرق قد بدأ يجوب الآفاق ويدفعني إلى الإمعان في كلّ ما حولي. وها هي ذي قرية يتيمة كهذا المبنى في كلّ هذا السهل. أخرجني من إمعاني ذاك صرخة جذلى، كأنّها تلك التي أطلقتها وأنا أخرج من مقام الريح. هرعت عائدًا وإذا به يقبل نحوي وكأنه محاط بغلالة نور، صارخًا: «لقد نلت الصفح!».

لم تترك لي فرحتي من مجال لأيّ تساؤل عمّا كان يعنيه ولا عمّا هو ذلك الفرح نفسه؛ لكأنّ قوله ذاك هو بعينه ما كنّا ننتظره من هذا المكان!

ها نحن من جديد نسير والنهر. كان لا بدّ من طقس تطهيري آخر ننغمس في مياهه، قبل أن ننحرف صوب مدينة «دهرا». بلغناها في المساء فلم تلح لي سوى طيف. ولجنا ما يشبه فندقًا، فكانت تلك هي المرّة الأولى التي نأوي فيها إلى جدران. هكذا هُيِّئ لي بادئ الأمر، لأعرف أنّها المحطّة الأخيرة التي سنتخلّى فيها عن كلّ شيء، حتى نايك، بل وحتى ملابسنا، إلّا ما يستر تلك التي تسمّى «عورات». ويا لفزعي حينها وأنا أرى أباك يُودِّع كلّ أشيائنا ذاك الذي اعتقدته صاحب النزل!

كانت خشيتي على الكتب أكثر منها على أيّ شيء آخر؛ لكنّي وكعهدي لم أجرؤ على أن أفصح بها. لقد كانت خشية من ذلك النوع الذي تبعثه عينان مسكونتان بالظلال، لكأنّهما تتوعّدان عودتنا بالكثير من المفاجآت. وها أنا لا أرى من البلدة شيئًا، لأخرجها كما دخلتها: مجرّد طيف.

انطلقنا، ربّما صعودًا، إلى حيث لا أدري. كان الغبش يلفّ أعيننا، فكفّت عن وظيفتها كما يبدو، موكلة إيّاها لأقدامنا. وشيئًا فشيئًا راحت تستعيدها، ليتكشّف غبشها عن جبل يشمخ حدّ الرجفة، وعن بياض لم يكن سوادها مستعدًّا لأن يغامر باقتحامه. وبقدر ما كان المظهر مذهلاً حدّ الرعب، كان كلّ شيء فيه يوحي بالخمول حدّ الموات؛ لكأنّما حتى الظلال تدثّرت بالثلج، ليلوح كلّ شيء في سبات عميق. وحدها الريح كانت سيّدة المكان.

البرد، هل يمكن لهذه الكلمة أن تستوعب كلّ قسوتها؟! أيمكن أن

تُختزل كلّ تلك المعاناة في كلمة واحدة؟! لا يمكن إلّا لمثلي، وخائضًا كلّ ذلك الزمهرير والمدى الشاسع من الثلج شبه عارٍ، أن يقول إنّ كلّ كلمات البرد عاجزة عن أن تصف لحظة من آلامه. أقول: مثلي؛ لأنّني كنت أرى أباك كأنّه لا يشعر بشيء من ذلك، بل وربّما كان يتفصّد عرقًا.

كان كلّ جزء من جسدي يريد أن يستسلم لذلك الخدر الكاسح ويدخل في خموله الأخير. المدى شاسع كأنّ كلّما تقدّم بنا الخطو تراجعنا. أدركت حينها معنى الوهن. كان كلّ ما فيَّ يخور: هواجسي وأحلامي وقواي وأنت وكلّ شيء. كيف لي أن أحتمل أكثر؟! وأنّى لهذا العجوز أن يرفق؟! ها أنا أناديه متوسّلاً، دون أن يلتفت. أناديه صامتًا. منذ دهرٍ وفمي مطبق لا يفوه بشيء. ربّما منذ أنت.

أجيل النظر في البياض اللامتناهي، فلا أرى إلّا لهاث عينيَّ فيه تنقلبان حسيرتين. إنّه ذلك التفوّق الهائل للطبيعة، والذي يتمكّن من الإنسان رغم كلّ ما بلغه.

ها هو صمته يخبرني أنّه سليل عائلة أورثته جاهًا ومالاً عريضين، فعاش مترفًا باذخًا. كان سيتزوّج في الثالثة عشرة، كما تقضي أعرافكم التي أجزم أنّها أعرافنا انتقلت إليكم بالعدوى، لولا أنّ حادثة حالت دون ذلك، بل وغيَّرت مجرى حياته. كان حينها قد عاد من بلد للظلال يهيمن على بلاده، بعد أن أرسل إليه للدراسة كغيره من أبناء الأسر الثريّة. كانت عودته للزواج من عروس انتقاها أبواه ليعود بها من حيث أتى. غير أنّه ما كاد يصل مطار «دهرا»، المدينة القريبة من بلدته، حتى استقبله خبر مقتل والديه في ظروف غامضة اتُّهم فيها كلّ شيء. ولا داعي للقول كم كان وقع الخبر صاعقة عليه، حتى لم يعد يدري أين يذهب. كان الرجل الذي استقبله في المطار من أولئك الذين كان أبوه

يشير إليهم دائمًا بخصومه المحرّضين. لم يكن ليُصدّق نصيحة ذلك الرجل بأن ينجو بجلده، لولا أنّ الصدمة كانت قد وضعته أمام الأمر الواقع. ثم إنّ شعورًا خفيًا كان يدفعه لقبول منطق ذلك الشخص. كان أن عاد أدراجه في الحال؛ خشية أن تطاله اليد التي فتكت بجميع أفراد عائلته، لا بأبويه فحسب. ولأنّ ظروف الحادثة بقيت غامضة إلى الأبد فقد تملّكته فكرة أن كلّ شخص في بلدته مدان، لا سيّما أولئك الخصوم. راح يتشرّب هذه الفكرة طوال سني بقائه في بلد الظلال ذاك، الذي لم يكن له من هدف فيه إلّا العودة وممارسة دور «متعطّش للدم» لا يرى أمامه إلّاه. ودون أن يؤثّر به كلّ ذلك القدر من التعليم الذي ناله هناك، راح يتقرّب شيئًا فشيئًا من أسياده المستعمرين، حتى استحقّ أن ينال إعجابهم، فباركوه تابعًا، معزّزين عودته إلى بلده بكلّ ما كان عليه أبوه من سطوة وحضور. أغواه ماله وفتوّته ونفوذه ومباركة أسياده، فراح ينتقم من كلّ شيء، تاركًا انتقامه الأخير لذلك الذي أصرّ عليه أن يعود. كان ينوي أنّه حال انتهائه من انتقامه الأخير سيوغل في بحرّ ملذّاته مكتفيًا بها وبكلّ ما أزهق وأهرق.

وها هو انتقامه ذاك يستكمل آخر حلقاته بعد أن نكّل بذلك الرجل حدّ الإذلال. يقتحم بيته برجاله في ساعة متأخّرة من الليل، ليبدأ بتقييده، ثم الإتيان بزوجته وقتلها أمام عينيه، ثم بابنته الوحيدة التي لم تتجاوز الثانية عشرة، يجرّدها من ثيابها وهي تصرخ بكّل الفزع، ويطرحها أرضًا، انتقامًا وإشباعًا لرغبة أضحت تتملّكه في وطء من لم يبلغن الحلم أو بالكاد بلغنه. فكان أوّل من وطأها وآخرهم أيضًا. كان في ذروة حيوانيّته حين ندّت عن ذلك الجسد الصغير المتكوم تحته حشرجة بسيطة أعقبها صمت مطبق، سوى ما كان يندّ عنه من لهاث متصاعد. وحين انتهى ألفى وجه الطفلة كأنّه وجه أمّه، وألفى أباها

تمثال فزع يحمل سيماء أبيه.

ويا له وهو لا يصدّق عينيه! ينظر إلى عصابته علَّها تقول له أن قد ظفر بانتقام صرف له جلّ شغفه. إنّما ها هم مجرّد ظلال تتراقص أمام عينيه الذاهلتين، فلا تزيدهما إلّا ذهولاً. توجّه نحو ذلك التمثال المتجسّد، يهزّه عسى أن يجد فيه لذّة لانتقامه، فلم يجد فيه سوى نظرة إشفاق. وها هي ذي نوبة ضحك هستيري تجتاحه فلا يدرك شيئًا. رأى في لا إدراكه ذاك، أو ربّما أنّها غيبوبة قد غشيته، أنّ تلك الفتاة/أمّه تنهض وتتّجه إلى أبيها/ أبيه تفكّ قيوده طالبة منه الذهاب، وأنّها ستتولّى أمر هذا الـ(. . .)، مشيرة إليه.

أفاق حين أفاق في ذلك المكان وحيدًا مع جثّة الفتاة. كان المكان مرتّبًا كلحظة اقتحامه. الفتاة كأنّما مستسلمة لغفوة، بكامل ملابسها التي كانت عليها. لا أثر لأمّها، ولا لأيّ دماء. حتى هو كان بكامل هندامه الذي كان؛ كانت تلك إحدى رغباته: أن يمارس انتقامه مهندمًا بما كان يفترض أن يرتديه من ثياب يوم عرسه.

بملامح زائغة بكماء، وجسد أخرس، خرج رافعًا جسدها بين ذراعيه يطوف بها البلدة. احتشد لفيف ذاهل يسير خلفهما مشية جنائزيّة صامتة، وأيّهم يجرؤ على الاقتراب؟! مضى، فمضوا خلفه، حتى بلغ النهر المحاذي لبلدتهم. غمّسها بمياهه بضع مرّات قبل أن ينغمس بدوره، ثم حملها بين يديه واضعًا إيّاها على ضفّة النهر. وها هو ينتهي من مواراتها ليواري معها كلّ ما كان له من موت.

ذرى كلّ ما كان من ماله وجاهه وراء ظهره وهام طويلاً يذرع الهند طولاً وعرضًا، متّشحًا لحافًا أبيض لا غير؛ وكأنّها رحلة تكفير لا تنتهي، ذارعًا دربًا فآخر، إلى أن بلغ متعبّده الذي ننشده الآن. أهي الصدفة، أم القدر ساقه إلى مثل ذاك المكان؟! أكان يمكن للقاء كهذا أن

يكون، لولا أنّ يدًا خفيّة هي التي تشاء؟! أم أنّها ساعة الحسم كانت، فكان ما كان؟! لقد ظلّ طوال تلك السنوات يتهرّب من كلّ شيء يذكّره بماضيه. وها هي خطاه تقوده ليلتقي كلّ ذاك الذي يخشاه. إنّه أبوها وقد أسبغ على نفسه هيئة أخرى. سيبقى معه سنوات طويلة لا يعرف عنه شيئًا، إلّا أنّه ناسك جاء من بلاد بعيدة. سيتعلّم منه كلّ ما أريدَ له أن يتعلّم. كان وكأنّ كلّ شيء يتهيّأ لتنصيبه واحدًا من كبار أعضاء مجلس رابطة المقاومين، موكَلَةً إليه المهمّة ذاتها لكلّ مقاوم في الأرض. وها هو يدرك لحظتها أنّ معلمه ذاك لم يكن سوى ذلك الأب الخرافي الذي فُجع بزوجته وابنته. يذهب إليه مقدّمًا نفسه وهو يعرف أن لا شيء يمحو جرمه إلّا القصاص. ويا لحجم التضحيات التي يحتملها معلّم الظلّ في سبيل أداء مهمّته! لقد أدرك أنّ معلّمه لو أراد أن يقتصّ منه، كان قد اقتصّ منذ زمن؛ لكنّها روح الـ «راما» العظيم. سيكتفي الاثنان بما أمضياه هناك من ألم، ويتّجهان عائدين إلى «دهرا». وسيبدأ أبوك يا سيّدة الناي رحلة حياة جاءت بك، ورحلة نضال جاءت بي.

يسكنني ذاك الصمت، يحتلّني، يعصف بي، فإذا بنا شيئًا واحدًا. لم يعد من أحدٍ إلّانا، أو: إلّاي.

كان كلّما هممت بالكلام أسكتني بإشارة من يده. كان الصمت ولا سواه. أيّامًا نمشي دون خطو، كأنّا نرفرف سابحين في مدى شاسع لامتناهٍ من البياض. بدا أنّه يرى كلّ شيء. وكم هو مريع ما يراه!

بلغنا أخيرًا صومعة بيضاء قُدَّت من ثلج. مكان كهذا لكأنّه العذاب. هو إذن ما كان ينتويه. كان وجودًا طاغيًا حدّ العدم. كان، أو أنّي أنا من كان، أشبه بظلّ مسنود إلى جدار. إنّه هو وأنا ممتزجين، وهو وأنا منفصلين، مستلقيين على مسامير جليديّة، فكأنّه أو كأنّي فوق فراش وثير.

يا لإرادة الإنسان حين يؤمن بها! تجترح المعجزات! ليست إلّا تماهيًا يتجاوز برازخ وحجبًا فيبلغ ذاك المستحيل. ليس من اليسير سلوك هكذا مسلك؛ إنّما هل يطلق على هذا الشيء «مسلكًا»؟ لا أظنّ، بل هي الإرادة لا غير.

بقي أو بقيتُ ساكنًا على تلك الحال ثلاثة أيّام، استحوذ عليَّ حينها شرود لامتناهٍ، فكأنّي رحت أراقص ثعابين وأعارك وحوشًا، وأراني تجلّيات وصورًا لا يمكن أن تخطر على بال. رأيتُني كلّ تلك الوحوش والثعابين، وكلّ تلك الحيوات في الأرض. رأيتني روحًا لأتفه وأضأل الكائنات، ولأسماها. كلّ كائن كان أنا، وأنا كلّ تلك التجلّيات. كم روح سكنتني! حتى أنّي رحت أحزّني بمنشار عملاق فيسير كلّ جزء منّي في اتّجاه، ثم كلّ جزء إلى أجزاء. كنت أتشظّى أرواحًا تتشظّى غائبة في ذلك العدم. وحين تعود أبدّدها أنفاسًا لاهثة، فلا يبقى منها إلّاي، لتشرع في أولى إجراءات التنصيب، تنصيبي أنا الواحد الغائب في الكلّ، الكلّ الحاضر في الواحد، معلّم ظلّ. وحين أفقت كنت أنا، ليكون أبوك قد تلاشى أو لعلّه امتزج بي.

كانت الحاجة لإتمام إعدادي، بأسرع ما يمكن، وراء كلّ هذا التسارع في الأحداث. وها أنا أجدني أعود من المسار نفسه الذي سلكناه، يقودني حدس لم يكن لي من قبل، وقد أضحى ذلك البرد مجرّد مسوح لا تجرؤ على اجتياز شيء، يهاجم زمهريره جسدًا شبه عار دون أن يفتّ فيه مسامًا. اغتسلت في مصبّ الوادي بمياه متجمّدة منتظرًا المغيب. وها أنا أدخل المدينة ليلاً، يقودني الحدس ذاته إلى حيث النزل. يطويني غياب آخر ارتميت على صاحب النزل الطاعن في السنّ. وجه ناتئ العروق، كلّ ما فيه يودّ مغادرته. كان شيء قوي يشدّني إليه، كأنّ أحدنا كان بانتظار الآخر. وها هو ألم آخر يتجسّد أمامي: مقاوم

تحمّل فوق ما لبشر أن يحتمله في سبيل ما يؤمن. ألمْ يقول: آن لي أن أرحل أنا أيضًا! ثمّة ظلّان ينتظران منذ أبد، فليحلّقا بي كجناحين!

وها هو لا يجد ما يودّعني به سوى ما تركناه لديه من متاع، وسوى كتيّب مخطوط ورسالة لا أزال محتفظًا بها. كانت الرسالة ممهورة بتوقيعه وختم غريب لا ينبغي البوح بهويّته لأيّ كان. سأخرج كما خرجنا في التوقيت ذاته والخطى ذاتها، ولن تترك هذي المدينة في نفسي من انطباع سوى أنّها الظلمة لا غير.

همت في الدرب ذاته الذي أتينا منه. واغتسلت في المكان ذاته من النهر، وفي الضريح ذاته بلّلت دمعي. وفي لحظة من ضياء فتحت الكتيّب، وإذا برجفة غياب تطويني مجدّدًا، لأجد نفسي في ما يبدو اجتماعًا لمجلس ما. كنت مرتبكًا وكأنّي أخوض امتحانًا عسيرًا على حين غرّة. كان المكان يلهج بنور فضّي طغى على إمكانيّتي في الرؤية. راح يتراءى لي ما بدا أجسادًا ضبابيّة تلتفّ حول طاولة وبأعين تقدح ضوءًا بنفسجيًّا خُيِّل إليَّ أن قد رأيته من قبل. وحين غشيني الضوء أفقت من غيبوبة، ربّما كانت هي الحضور ذاته!

التنصيب الرابع

السمسار

يعتريني شرود دائم. شرود متشبّث يرفض مغادرتي. شرود يتلبّسني رغم كلّ محاولات التركيز وما أستغرقه من تأمّلات. أتراه عدم التفات لتفاصيل يحسبها الوعي العامّ ضروريّة؟! أم هو هروب منها إلى غيرها؟! أم أنّه يا ترى انقطاع الوعي والاستغراق في اللاوعي؟!

أترى الشرود عدم الاقتناع بما نحن فيه والرغبة في أن نكون آخرين؟! إنّما حتى لو كان كذلك فلا أظنّني إلّا قد اجتزته سادرًا في سمادير الغياب.

أخبرني صديقٌ ما أنّه (الشرود) ينتقل بالعدوى، وأنّه أُصيب به منذ أن لازمني، كما قال إنّه من خلال تأمّلاته في هذا الشأن يكاد يجزم أنّ مقابل كلّ شرود متأصّل شرودَيْن مكتسبين. وها أنذا استغرقت في هذه الرحلة كلّما ازداد الشرود تشبّثًا بي.

كان الكتيّب مخطوطًا حاول فيه أحد سماسرة المخطوطات ـ وما أكثرهم في بلدي! ـ أن يحكي قصّته مع ذلك المسمّى «الجفر». والمخطوط ليس بالقدم الذي يبدو عليه؛ فالمتفحّص يدرك أنّه حديث

النشأة، لا يتجاوز العشرين عامًا أو الثلاثين. ولا أدري ما الفائدة التي ارتآها القَيِّم من إعطائي إيّاه؛ إذ ليس بالأهمّيّة التي كنت أتوقّعها، أقلّه حتى الآن. كما أنّ فيه كثيرًا من الحشو الذي لا أراه يفيد ما أنا فيه، ولذا سأتعمّد الاختصار، لآتي فقط على ذلك اللبّ الذي أراه ضروريًّا.

يقول السمسار غُفر له:

«وهو كتاب مجهول المصدر، مكتوب برموز وطلاسم لا يدركها من هم على شاكلتي، حتى وإن تجشّموا في سبيله كلّ عناء. ويحكى أنّ فكّ طلاسمه كان مدوّنًا على أولى الصفحات، إلّا أنّه تمّ شطبه من قبل مجهول؛ ربّما خوفًا من وقوعه في أيدٍ تدركه فتستغلّه في كشف سرّه واستخدامه في مآرب خاصّة ولغير ما أُريدَ له.

أمّا لماذا أدفع نفسي للكتابة عن أمري مع ذلك الكتاب، فلأنّي أُخذت به طوال سني عملي سمسارًا، لا لست سمسارًا فحسب، بل إنّني كنت وكأنّني موكل بالبحث عنه، فرحت لا آلو جهدًا، حتى كان في النهاية هو الذي وجدني. ولأنّي في أوّل الأمر كنت مجرّد سمسار، فحسب، ولا همَّ لي إلّا الحصول على الثمن الأغلى، فقد حرصت على الكتاب كثيرًا ورحت أتكتّم عليه حتى مع نفسي. لا أنكر أنّي حاولت فك تلك الطلاسم، عسى أن أحظى بما فيها من سرّ. ولا أنكر أنّني أيضًا فشلت أيّما فشل. في الأخير أدركت أنّ شيئًا آخر تمامًا كان يدفعني لكلّ ما فعلت، ليس سوى شعور جامح في أن أفعل كلّ ما بوسعي لأحافظ على هذا الكتاب حتى يبلغ مقصده. إذن إنّني في مهمّة كأنّ كلّ حياتي جبلت لها!

في العقد الأخير من الألفيّة الميلاديّة الثانية سطت عصابة مسلّحة على المكتبة الغربيّة للجامع الكبير بصنعاء، ونهبت الكثير من الكتب والمخطوطات، يقال إنّ من بينها كتاب «الجفر». لم تتمكّن الجهات

المعنيّة من توجيه أصابع الاتّهام لأحد. فكانت بالنسبة لنا ـ نحن سماسرة المخطوطات ـ فرصة لا تقدر بثمن؛ فبدأنا حملة سباق محمومة للحصول على أكبر قدر ممكن من تلك الكتب المنهوبة، وخصوصًا كتاب «الجفر» النادر، الذي إن حصل أحدنا عليه، فكأنّما تجلّت له ليلة القدر.

وكانت الصدفة أنَّ قريبًا لي كان أحد أفراد عصابة السطو تلك. ذلك ما عرفته منه تلميحًا، وبعد مضي أكثر من شهر على الحادثة، أتاني ذات ليل بفم تيبس من أثر ما حمله داخله طول تلك المدّة من سرّ أرهقه. ظننت في البداية أنّه جاء كعادته يطلب قرضًا لا يفي بسداده. وكنت كعادتي أعطيه ما يطلب، لا نبلاً منّي، ولكن اتّقاء شرّه؛ فأنا أعرف أنّ من الحمق أن ترد شخصًا لا يردعه شيء عن شيء يطلبه منك. هذا فضلاً عن أنّي تاجر مخطوطات يحرص على عدم فضح أمره ويداري ذلك ببعض تحف تغصّ بها واجهة المحلّ. وها هو يخبرني مرتجفًا أنّ لديه عددًا من الكتب القديمة المكتوبة بخطّ اليد يريد منّي أن أُصرِّفَها على معرفتي. تصنّعت عدم اكتراثي للأمر، زاعمًا أن ليس لي معرفة بهذا المجال. كنت على يقين من أنّه يدرك تمامًا سرّ مهنتي كسمسار لتهريب الكتب والإتجار بها؛ لكنّي رحت أراوغ مدركًا أنّ احتياجه للمال سيجعله يتنازل عنها بأيّ مبلغ. كان أن انصرف قائلاً: «موعدنا الساعة الثامنة من مساء غد في بيتك».

وجدت نفسي مرغمًا على انتظاره طوال اليوم، حتى إنّي عزفت عن الذهاب للمحلّ. جاء في الموعد حاملاً معه صرّة ينوء بها. كانت كتبًا مخطوطة تزيد على العشرين. ألقاها وسط الغرفة. رحت أتفحّصها بنهم التاجر وشغف المتولّه، وإن حاولت كثيرًا أن أسيطر على ملامحي. وكان أوّل ما قاله إنّه على عجلة من أمره ويريد أيّ مبلغ من ثمنها على

أن أسلّم إليه الباقي عقب بيعها، بعد أن آخذ حصّتي بالطبع، وهي الربع، مؤكّدًا ثقته بأنّني لن أخفي عنه ثمنها الحقيقي. وما كاد ينصرف حتى انكببت على ذلك الكنز الذي وكأنّه هبط عليّ من السماء، موقنًا أنّه بعض تلك الكتب المسروقة.

ويا لي! أيّ شعور وأيّ سعادة إذ أرى ما حسبته كتاب «الجفر»! كان لا بدّ أن أتأكّد، فماذا لو لم يكن هو الكتاب المعني؟! انبثقت فكرة أن أذهب به إلى صديق قد تكون له ـ بحكم خبرته الطويلة في المخطوطات ـ فكرة عن كتاب كهذا وعن كيفيّة التصرّف به.

وجدت نفسي أمام بيت ذلك الصديق، أهمُّ بطرق الباب. ومع أوّل طرقة أحسست بالذهول يشدّني إلى أن أعدل عن الأمر وأنصرف. كان الأوان قد فات. أتاني صوتُ امرأة يسأل عن الطارق. سألتها عن الرجل، فقالت إنّه خرج منذ بعض الوقت ولن يعود إلّا في الظهيرة. حمدت الله ألّا يريد لي أن أقحَم في تلك الحماقة، وإن نجّاني منها في اللحظة الأخيرة. غير أنّي ما استدرت مغادرًا حتى ألفيته أمامي. انتفضت انتفاضة متلصّص، محاولاً اختلاق عذر؛ لكن ها أنا على غير إرادة منّي أُخرج الكتاب وأناوله إيّاه بعينين زائغتين. تلفّتَ حوله وراح يدفع الباب بعجل.

تفحّصه طويلاً. عيناي مسلّطتان عليه لا تكادان تفوّتان حركة يأتي بها. كنّا قد ولجنا عتبة الباب متوقّفين على بعد خطوات منها. وها هو يغلق الكتاب أخيرًا ويهمّ بمواصلة الدخول؛ غير أنّ ما بي من خوف كان قد بلغ ذروته، فانتزعت الكتاب منه، وفي عينيَّ ما يخبره بأنّني لن أتوانى عن ارتكاب أيّ حماقة إن لم يدعني أنصرف الآن. أخبرني متلعثمًا أنّه كان يريد فقط تفحّصه أكثر بما لديه من أدوات. أدرت له ظهري واندفعت أشعر بأنّني أخطأت بالمجيء إليه؛ فأنا أعرف مدى شغفه

بالمخطوطات، وبالأخصّ ما ندر منها وما غمض.

لكن، أيّ هواجس دهمتني حينها! جعلتني لا أبرح بيتي أسبوعًا بأكمله! ومع مرور الساعات كانت تلك الهواجس تستحيل إلى خوف مطبق، فقرّرت أن أضع حدًّا لها، بأن أبحث عن مكان آمن أخبّئ فيه الكتب. بعد تفكير مليّ وأخذ وردّ مع نفسي، وأنا أقترح عليها كلّ ما يمكن أن يكون مَخْبأً، اهتديت أخيرًا إلى مكان حسبت ألّا يمكن أن يرقى إليه حتى الظنّ.

كان أن خرجت ذات سَحَرْ، أنفض كلّ ذاك الذي علق بي من هواجس ومخاوف وملل. وما كدت أقطع نصف المسافة بين بيتي وأقرب مسجد، حتى تأكّدت أنّ مخاوفي تلك قد تأصّلت. كنت أشعر أنّ ثمّة شيئًا يطاردني ويترصّدني. ألتفتُ، فلا أرى شيئًا، فيزداد شعوري ذاك.

حسبت أنّ صلاة الفجر ستخرجني ممّا أنا فيه. لا أنكر أنّ شيئًا من سكينة غمرني، إلّا أنّه تلاشى فور خروجي من المسجد، لأجد حشدًا حول شيء ما. أحسست بما يدفعني لرؤية ذاك الذي احتُشد له، فرأيت ما لم أتوقّع. كان ذلك القريب مُلقًى شبه عار وقد مُزّق شرَّ مُمُزَّق.

تناهى إليَّ، في غمرة انبهاتي، أنّ سيّارة مسرعة ألقته واندفعت في طريقها.

وها هي كلّ هواجسي ومخاوفي تقول إنّ لعنة ستلاحقني من الآن فصاعدًا، وأنّ تلك الكتب هي السبب، أو أنّه ذلك الكتاب تحديدًا. تكاثفت عليَّ الهواجس حتى كأنْ لم أعد أرى إلّا أطيافًا.

تركت ذلك القريب، أو ما تبقّى من جثمانه، وتوجّهت من فوري نحو البيت، إلى ذلك المخبأ. أخرجت كتاب «الجفر». كنت على يقين

من أنّ سبب مقتل قريبي هو هذا الكتاب لا سواه، وأنّ العصابة ـ لا شكّ ـ تبحث عنه الآن. وإذن كان لا بدّ من أن أعجّل وأنجو بنفسي؛ وإلّا كنت الضحيّة التالية. وإن لزم الأمر سألجأ إلى التفاوض، بل وإلى تسليمه، وحتى بدون مقابل.

لكن ماذا لو لم يبح لهم بشيء؟! ماذا لو أنّهم لا يعلمون أين خبّأها أو أودعها لدى من؟! ولكن أيضًا ماذا لو أنّهم فقط يتحيّنون الفرصة المناسبة ليقتلوني مثلما قتلوه؟! ماذا لو أنّهم ينتظرون فحسب ما سيبدر منّي؟! وماذا لو أنّ هذا الكتاب ليس الكتاب الأصلي؟!

كلّ تلك التساؤلات كانت تطوف بي وأنا أحشر الكتاب في طيّات ثيابي، ليستوقفني منها آخر تساؤل: ماذا لو أنّ ذلك الصديق الذي أكّد لي أمر الكتاب على علاقة بمقتل صاحبي؟!

عدت وفي نيّتي انتظار ما يمكن أن تفضي إليه الأيّام القادمة، شاغلاً نفسي بإيلاء أهل القتيل ما ينبغي من عزاء، باعتبارهم أقربائي. ما تلا من أيّام بدا هادئًا على غير ما أتوقّع؛ فرحت أتحسّس ما أسفرت عنه تحقيقات الشرطة، فلا أجدها قد أحرزت أيّ تقدّم. في الوقت نفسه رحت أبحث عن مكان آخر أخبّئ فيه الكتب، أو على الأقلّ هذا الكتاب المشؤوم. طغت عليَّ الهواجس، واستغرقني الأرق حتى كدت أفقد كلّ صواب. تحاصرني الظلمة فأسمع أصوات أبواب تنفتح وآنية تنكسر وخطًى تلج وأخرى تذرع سقف المنزل... فأهبّ مشعلاً الضوء هارعًا نحو مصدر تلك الأصوات فلا أجد شيئًا من كلّ ذاك. أفتح هذا الباب وذاك، أفتّش، علّي أجد شيئًا. أتسلّل إلى سطح المنزل متهيّئًا لإطلاق النار حتى على أدنى حركة قد تأتي بها الريح. أعود أدراجي مغلقًا الأبواب بترابيسها، وملقيًا نظرة متفحّصة على كلّ شيء. وها أنا ما تكاد تمرّ دقائق على عودتي إلى الفراش، مخفضًا حتى من أنفاسي، إلّا وتعود

تلك الأصوات بل وأكثر قربًا، حتى لكأن لم يعد يفصل بيننا إلّا باب غرفتي، فأهبُّ ثانية وثالثة ورابعة. . . فلا يكاد يأتي الفجر إلّا وقد أجهزت الظلمة على جزء من روحي. ويا لساعات النهار كم كانت تمرق سريعة! لكأنّها ومضات، ولكأنّ تلك الومضات راحلة من الرواحل تحملني بأقدام من بروق خاطفة نحو هاوية الليل.

وها هي عائلتي أيضًا تدخل ذلك البرزخ المخيف! كنت قد حرصت طوال تلك الأيّام على أن أحتفظ بتهيّؤاتي تلك لنفسي، وألّا أبدي لهم ما يخيفهم؛ آملاً أنّها مجرّد تهيّؤات ستنتهي قريبًا، خاصّة أنّ زوجتي تخاف حتى من ظلّها. إنّما ها أنا أتأكّد الآن أنّها لم تعد مجرّد تهيّؤات. كنت قد عدت في ساعة خلتها متأخّرة، مع أنّها لم تكن قد تجاوزت العاشرة، وإذا بي أسمع صرخة قادمة من المطبخ. هرعت في إثرها، لأجد زوجتي مغشيًّا عليها في أرضيّة المطبخ. كان الصغيران، طفلتي وطفلي، قد هبّا هما أيضًا في إثر الصرخة يتباكيان. أسرعت أحملها إلى الغرفة مطمئنًا إياهما بأنّ كلّ شيء سيكون بخير. شرعت في قراءة المعوذات، ورحت أرعشها وأرشّها بالماء. بعد ما يربو على خمس دقائق أفاقت، لتجهش ببكاء خائف اختلط بحاجتها إلى الشرح، وأنا أهدّئ من روعها بكلّ ما استطعته من احتضان ولثم وكلمات. فهمت من كلامها المغصوص بالدمع أنّها كانت تعدّ العشاء كعادتها، وإذا بها تلمح طيفًا يمرق من أمام باب المطبخ في اتّجاه الصالة. التفتتْ ظانّة أنّه أنا قد جئت ربّما. أرادت التأكّد أكثر فذهبت تلقي نظرة على الصالة. وعندما لم تر شيئًا استعاذت من ظنّها لتعود إلى ما كانت في صدده، مرجعة الأمر إلى خيالاتها. لم يستغرق تفكيرها في الأمر كثيرًا؛ وها هي تنشغل ثانية حتى كادت تنساه تمامًا. لكن شيئًا ما دفعها لإلقاء لمحة خاطفة على الباب! ارتدّت بشكل أكثر خطفًا، حتى إنّ العقل

احتاج بضع ثوان ليستوعب ما حملته تلك اللمحة؛ لتطلق تلك الصرخة التي أفزعتني وأنا على بعد منها، فما بالك بالصغيرين!

أمّا ما رأته فذاك شيء لا يخطر على بال؛ لكنّني صدّقته من أعماقي: قريبي القتيل، وهو قريبها أيضًا، يقف على الباب مغمورًا بالدماء. ظللت كثيرًا أطرد عنهم الخوف بشيء من أحاديث مسلّية ونكات وطرائف، وأنّ كلّ ذلك ليس إلّا من قبيل الوهم. استسلم الطفلان للنوم. وظلّت هي متمسّكة بـ «وهمها» ذاك.

هل كنت سأنتظر حتى تؤول الأمور إلى أسوأ؟! أم لا بدّ من وضع حدّ لهذه الكتب اللعينة؟! إنّما هل ثمّة باليد من حيلة؟! لم يعد خوفي من أن تكتشفني تلك العصابة، وأن يكون مصيري هو ذاته مصير ذلك المسكين، الذي لم أعد أظنّه قُتل إلّا بسبب هذا الكتاب.

لم أبرح مكاني في تلك الليلة، بالرّغم من أنّ تلك الأصوات ما فتئت تسرح في طول البيت وعرضه، حتى كأنّها تسرح في داخلي. غاية ما كنت أرجوه ألّا يسمعها غيري.

ما كاد الصبح أن يطلّ حتى نهضت زوجتي، كأنّها كانت بانتظار إطلالته. راحت تحزم أشياءها وأشياء الطفلين وتغادرني. لم أجرؤ على إبداء أيّ اعتراض.

احتجت لأكثر من يومين، لم أدخل فيهما المنزل، مفضّلاً الابتعاد عنه والمبيت في المحلّ. وها هي فكرة ما، من تلك التي تأتي على حين غرّة، تدلّني على مكان كنت أخبّئ فيه حاجياتي الخاصّة صغيرًا. وفي الحال وجدتني في المنزل في ساعات الفجر الأولى، ومن بين تلك الكتب لا آخذ إلّا ذلك الكتاب، متوجّهًا به من فوري إلى ذلك المكان، الذي لست من السذاجة بحيث أحدّده ها هنا. ما كدت أخرج من المنزل

حتى التقيت ذلك الذي أطلعته على الكتاب، بصحبة تاجر كبير يبدو أنّه قد دخل في تجارة المخطوطات هو أيضًا، وكأنّهما في انتظاري. لا أدري أكنت لولا ما أنا فيه لأقف موقفًا كهذا! المهمّ أنّي اجتزتهم كألّا أراهم. هتف بي ذلك التاجر مناديًا باسمي. انطلقت أعدو غير عابئ، لأصطدم بشيخ كبير ربّما خرج لتوّه من صلاة الفجر، فكلّما دخلت الجامع الكبير رأيته فيه على الدوام منكبًّا على مصحفه، لأقع وأوقعه معي. انتفضت واقفًا أحاول إنهاضه، متلفتًا علّهما يتبعانني. اعتذرت محاولاً الانصراف، غير أنّ الشيخ أمسك بيدي ليقول بلهجة الواثق: «لا تخبّئ ما بحوزتك دون أن تحرزه من الأعين والظلال! اتبعني أدلّك على من يفعل ذلك، ثم لتمض في طريقك!».

لأوّل مرّة، منذ صرت في ما أنا فيه، أشعر بالاطمئنان، بل وبأنّ كلّ شيء يدعوني للمضي وراء ذلك الشيخ. لا شكّ أنّ كلّ شيء مدبّر؛ وإلّا فما الذي يدفعني للانقياد وراءه والفرار من صديقي ذاك وصاحبه التاجر؟!

اقتادني إلى أحد العارفين. أدرك لحظة دخولنا ما جاء بنا. طلب منّي عرضه عليه، فوجدتني أناوله إيّاه دون أيّ خشية. وقف بتبجيل ووضع كفّه اليمنى على الكتاب متمتمًا بكلام غريب لم أفقه منه شيئًا. التفتُّ إلى الشيخ متسائلاً بصمت قلق، فإذا به يشير لي بأن أطمئنّ، وكأنّه يقول إنّ هذا ما يجب أن يكون. وها أنا أجدني أخرج، ماضيًا إلى حيث أخفي الكتاب عن كلّ عين.

لم يعد يهمّني ثمن الكتاب، ولا ما كنت أحلم بجنيه من بيعه، أو جرّاء التفاوض على إعادته. لم تعد تهمّني نفسي، ولا خشية أن أعرّضها للمخاطر. حتى أسرتي لم أعد مهتمًّا بها. كلّ ما أفكّر فيه الآن هو حماية الكتاب، وليحدث بعدها ما يحدث.

يا إلٰهي! حتمًا هنالك أياد خفيّة تدير كلّ هذا. لا أشعر أنّ هذا سيمرّ على خير. لا أشعر أنّ هذا سيمرّ. لا أشعر بشيء على الإطلاق...».

انتهى ما دوَّنه السمسار إلى هنا، وكانت هناك صفحة أخرى بخط آخر تقول إنّه عثر على صاحب هذا المدوّن مُقَطّع الأوصال في خرابة قريبة من منزله، وأنّ مصيره ذاك كان جزءًا من لعنة تحلّ بكلّ من شارك أو ساهم أو تغاضى عن نهب مخطوطات مكتبة الجامع الكبير الغربيّة.

التنصيب الخامس

روح الله

كان اليوم الأخير لي في الهند ذروة احتفال بعيد رباط التآخي، أو بلغة أهل الهند: «بركشا باندان»، وهو أشهر احتفالاتهم الموحّدة؛ إذ يحتفل فيه الهنود من كافّة انتماءاتهم، فيختار كلّ منهم شخصًا يرتبط معه برباط الأخوّة، متعاهدين على ألّا يُؤْثِر أحدهما شيئًا على الآخر، ويربطان رسغيهما برباط ملوّن دلالة على هذا. وها أنا لا أجد أمامي سوى شخص لم أعرف أنّه سيكون مكلّفًا بالإعداد لرحلتي القادمة. كان من رحابة الصدر بحيث قبل بمثل هكذا ارتباط مع شخص لا يعرفه إلّا الحال. لا يبدو عليه أن قد جاوز الثلاثين، كما هو حالي آنذاك. تعاهدنا رابطين رسغينا برباط ملوّن، متعاهدين على الإخاء والمحبّة دومًا. ذلك ما كان؛ إذ كنت أشعر بوجوده معي أنّى أكون.

تركتُ الهند. هو رتّب كلّ شيء. أشعرني بأنّه مجرّد ظلّ يطوف هنا وهناك دون أن يخلّف أثرًا يدلّ عليه. بسيّارة مجهّزة، ورفقة دليلين محترفين اجتزت الحدود (الظلّيّة) مع باكستان نحو «حيدر أباد» ومنها إلى «سردار» ثم «جودار» فـ «نوك كوندي» فمدينة «ساينداك» القريبة من

الحدود مع إيران. هناك تسلّمني مرافقان إيرانيّان. شهقتُ هلعًا ونحن نجتاز المرتفعات الشاهقة الوعرة الفاصلة بين البلدين حتى مدينة «زاهدان»، ومنها إلى «كرمان» ف «أصفهان» ثم إلى «قُم» مرتجانا. كلّ ذلك كان في عشرة أيّام، لم أشعر فيها بتعب أو إجهاد؛ وكيف لمن هو مجرّد ظلّ أن يشعر بشيء؟!

استقبلني «مُلّا» يشبه كثيرًا «أخي» في الهند، يعمل في حوزة «قُم» الشهيرة. أسكنني نزلاً بسيطًا على مقربة من الحوزة. بقيت ما يربو على الشهرين يطلعني على ما في قلبه من إدراك: الكثير من مفاهيم الشيعة ومدركاتهم وعلومهم الباطنيّة التي لا يطلع عليها من غيرهم سوى قلّة يسمح لها المجلس الشيعي الأعلى المدبّر لكلّ تنظيم شيعي في العالم. كان يبدو عليه النفوذ والسلطة الواسعتان، إذ يأتيني بكلّ ما أريد. حتى غرفته الخاصّة التي لم يكن يسمح لأحد بدخولها، أدخلني إليها.

صورتا شخصين تتصدّران الغرفة، بلحيتين منسدلتين، إحداهما بيضاء كالثلج، والأخرى سوداء وخطها البياض. ذو البيضاء يرتدي عِمَّةً سوداء، والآخر عِمَّةً ملوّنة. العيون كأنّها ذاتها، برّاقة كعينَيْ هذا «المُلّا» الذي يختلف عنهما بعمّته البيضاء. كأنَّ الصورتين تحاولان إخباري، كلّ بما لديها. وها هي عباراتهما تتمازج في ذهني كأنّها شيء واحد، رغم ما بينها من بون.

هي الظلمة والنور إذن! الشرّ والخير، الحبّ والكره... كلّ المتناقضات الغائبة فينا لا يربطها رابط، لكلّ منها جوهره المطلق والمستقلّ تمامًا عمّا سواه. هي النار المقدّسة المشتعلة في كلّ نقيض. هو الصمت والصوت، وما إلى ذلك من تلك الـ «نحن». إنّها العبوديّة لإله واحد ونبذ كلّ وثنيّة. إنّه المعلّم «زرادشت»، الموحّد تلك المتناقضات، صاحب اللحية السوداء والعمّة الملوّنة. هي صورته التي

عثر على رسمة لها في آثار سوريّة، هي نفسها المعلّقة في الجدار.

ثم ها هو الإسلام يأتي كي يلقّح أرض النار بنار أكثر توهّجًا واتّقادًا، اجتثت معها كلّ ظلال. ثم ها هو الزمن يأتي بتبدّلاته وتقلّباته، حتى أوشكت هويّة هذه النار أن تُمحى بهويّة الرمل. ولكنّها النار، تظلّ متّقدة تحت الرماد. ولأنّ الإسلام كان قد بات اثنين: سنّيًا وشيعيًا، وكان السنّي هو المتسيّد زمنًا طويلاً، فقد راح الشيعي يتوارى حتى كأن لم يجد إلّا النار ملاذًا له، ليمتزجا كلّ منهما لائذًا بالآخر. إنّها الهويّات تصنع حوادث التأريخ. وها هي أرض النار تتلبّس معظمها هويّة آل البيت، وتنهج نهج أئمّتهم الاثني عشر، ليتوقّف الزمن لحظتها عند الإمام الثاني عشر، فلا تكاد تفعل شيئًا سوى انتظار عودة ذلك الإمام الغائب. وها هي القرون تمرّ تلو القرون، والظلال تبسط هيمنتها أكثر فأكثر، مطمئنة إلى أنّ ما آل بتلك النار من حوزات وطقوس كفيل بأن يجعلها في سبات عميق، أقلّه حتى عودة ذلك الإمام، الذي لم تكن تؤمن بعودته أصلاً. كانت الظلال قد بلغت ذروة عنجهيّتها، فنصبت سلالة للملك، استعارت لها لقب «الطاووس» وخيلاءه. وحتى إذا استنفدت تلك السلالة قدرتها على إرضاء الظلال، أتت الظلال بطاووس أشدّ خيلاءً وتكبّرًا واستبدادًا. كان يعتقد أنّه، بالظلال وبما لديه من قوّات و«سافاك»، قادر على أن يدوس حتى على النار، أو أن يسخّرها لمشيئته! إنّما ها هي على حين غرّة تندلع من بين زوايا «الحوزات» ومن حيث لم يحتسب، لتزحف مكتسحة كلّ شيء أمامها. لم تكن لتنتظر عودة إمامها الغائب كلّ ذلك الوقت، فتجلّت أمامها فكرة أخرى: جعلت له فقيهًا نائبًا يتولّى إطلاقها ثورة على كلّ أتباع الظلال في بلده. وها هم «الآيات» و«الحجج» و«الملالي» ينبعثون من تحت ركام الخشية، متأهّبين بأرواحهم لاستقبال فقيههم، رَوح الله. كانت

«الحوزات» قد قالت قولها الفصل، رغم أنّ النار كانت ترمز بذلك الفقيه النائب إلى كلّ مستضعف على ظهر البسيطة.

ولكن أتُراها العمائم السوداء والبيضاء والركون للفقهاء والملالي المتمذهبين هي الحلّ؟!

في بلد يعجّ بالاختلافات والمتناقضات، بالمذاهب والأديان، بالأجناس والألوان، ستكون لذلك عواقب وخيمة. وينطبق هذا على كلّ من يريد امتطاء الدين ليسوس به الآخرين.

أحسست بقدر من التشابه بين أفكار الشيعة وأفكار الصوفيّة؛ وأنا الذي كنت أحسبهما مختلفتين تمام الاختلاف. يقوم المذهبان، إضافة إلى المنبع الواحد، على الأساس الفلسفي ذاته الذي يقول بأنّ الكون مجبول من عناصر أربعة: الهواء والماء والتراب والنار. كما أنّهما يتّفقان على أنّ للكون اثني عشر برجًا، أئمّة الشيعة، ومثلهم أقطاب المتصوّفة. والفضاء عندهما سموات سبع، وبين كلّ سماء وأخرى برزخ معرفي يقوم دون بلوغ الحقيقة المطلقة إلّا لمن يتمكّن من اجتيازه. أمّا بقيّة الاختلافات فيمكن إدارجها في عِداد التفاصيل؛ ولكن أليس أكثر ما يدعو إلى الاختلاف هو تلك التفاصيل؟! وإنّ أغلب المتناقضات وأكثرها تشدّدًا تلك المنحدرة من تقارب ما؟! إذن هو الإحساس بصعوبة التلاقي لا بإمكانيّته! كما أصدقكم القول إنّني لم أستسغ مطلقًا مقدار التقديس الهائل واللامعقول في كلا المذهبين لأشخاص هم من لحم ودم، يصيبون ويخطئون! قد يقول قائل إنّني ربّما مصاب بداء «التقديس» نفسه هذا، لكنّ الأمر سيزول حين يعلم أنّني أحترم دون أن أقدّس، أحبّ دون أن أنزّه.

لست بصدد تفنيد تلك الأفكار والمقاصد؛ فأنا على تمام اليقين من أنّ معظم ما تناقض منها منبعه البوتقة ذاتها، مع إيماني بأنّ لكلٍّ أن يؤمن بما شاء وكيف شاء.

كان أولئك المعمّمون ذوي ثقافة وسعة أفق موسوعيّتين، ليس في علوم العقيدة فحسب، بل في كلّ علوم الحياة. كانوا مُطّلعين على معظم الفلسفات والرؤى، غربت أو شرقت، والأديان ما ساد منها وما باد، الاقتصاد والاجتماع والتاريخ... كلّ ذاك سيزيد رصيد معارفي وسيسهّل ما استعصى عليَّ سابقًا.

تعجّبت من تشدّدهم الكبير وانسياقهم لأفكار لا عقلانيّة، رغم ثقافة يفترض بها النفور من أيّ تشدّد! لكنّها الأيديولوجيا والتسيّس تجعلان الإنسان قادرًا على تحوير كلّ ما فيهما من اعوجاج ولا منطق لصالحهما، بل وجعلها متّفقة مع سياق التفكير المقبول. ربّما هو الإيمان ما يجعلنا نتقبّل كلّ شيء؛ إنّه الطريق الأسهل لتجاوز كلّ معوقات ومتطلّبات ذلك المسمّى عقلاً.

في عيد بداية الشتاء (اليالدا)، أطول ليالي السنة، دعاني ذلك «الملّا» للاحتفال في منزله. ناولني ـ كواحد من أفراد أسرته ـ طبقًا يسمّى «الخريبوزة»، وهو مزيج فواكه طازجة وأخرى مجفّفة، يعدّ تناوله أهمّ طقوس ذلك العيد. أصرّ على أن أبيت عنده كصديقين، ليبوح كلٌّ منّا للآخر بمكنوناته. تذكّر كيف كانت أيّامه تلميذًا في الحوزة، تثقل كاهله الشكوك والهواجس، حتى لكان ينوي ترك كلّ شيء والانطلاق لا يلوي على شيء؛ لكن بترقّيه القياسي في مراتب الحوزة ومحاولاته الحثيثة نيل رضا أساتذته أصبح من أقرب المقرّبين لرئيسها، حتى أصبح له كلّ هذه الحظوة والمكانة.

أخبرني كيف واجه الموت شابًّا ورفاقه إبّان ثورتهم، وكيف كانوا يردّون على رصاصات «السافاك» بالورود وبالاعتصام والتظاهر والأشلاء والدماء والصرخات...! كيف راحوا يقتحمون سفارة الشيطان الأكبر ومكثوا فيها الشهور تلو الشهور حتى نهاية «أزمة الرهائن»! كيف بنوا

دولتهم وتجاوزوا كلّ تلك الخلافات والمعوقات! وكيف تصدّرت ثورتهم لتغرس في قلب كلّ مؤمن! كيف. . .! وكيف. . .! وكيف. . .!

وها هو قبل يومين من رحيلي يأخذني إلى الحوزة لصلاة المغرب. كم سيدهشني أن راح ينادي إلى صلاة الجماعة! كان جمع غفير بعمائم سوداء وبيضاء يصلّون وراء «آيتهم العظمى». أخبرني أنّه يوم استثنائي بالنسبة لهم، فعلوه إكرامًا لي وبمناسبة تنصيبي معلّمًا. بين صلاة المغرب والعشاء اجتمع كلّ أولئك «الملالي» و«الحجج» و«الآيات»، ثم ها هو ذا الذي صلّى بنا يدنو منّي ويضع باطن كفّه اليمنى على جبيني، لاهجًا بأدعية وأذكار أحسست بي معها أغيب عن كلّ شيء. حين أفقت وجدتني شخصًا آخر، يدرك كلّ ما كان يدركه أولئك من حيوات. وقف ذلك «الآية» نازعًا عمامته السوداء عن رأسه وآخذًا من صاحبي عمامته البيضاء، ليفكّ عقالهما ويربطهما معًا مكوّنًا عمامة واحدة ألبسنيها. ثم ها هو يطلب بتواضع جمّ أن أتقدّم كي أؤمّهم لصلاة العشاء. لا أدري كيف أحسست من حينها بأنّني «زرادشت» و«الرَوح» في آن واحد.

تمكّن صديقي، وبطريقة ما، من إعطائي بضعة كتب محظورة لمؤلّفين مشهورين من أهل الحضرة والصلاح، فيها محاولات لفهم وإدراك علم الجفر. كان ظنّي، من خلال اطّلاعي على تلك الكتب فيما تبقّى من رحلتي، أنّهم لم يخرجوا بشيء إلّا ما زاده غموضًا واستغلاقًا عليَّ. أعطاني أيضًا ما ظنّها نسخة أوّليّة مهترئة لشيفرة «الجفر»، وإن كانت مجرّد شيفرة لأحد الكتب التي أعطانيها، ولا علاقة لها بشيفرة «الجفر» الأصلي. ثم ها هو يودّعني ويشفعني برسالة توصية إلى أحد كبار القائمين على مقام الإمام عليّ في حوزة النجف الأشرف بالعراق.

التنصيب السادس

ظلّ «الجفر» المقاومة

واصلت طريقي نحو العراق صحبة آخرين، من «قُم» إلى «بختران» ومنها إلى «لاندفي»، الحدوديّة، مجتازين الحدود مباشرة، عبر ممرّ آمن، نحو «بعقوبة»، فـ «الكاظميّة»، فـ «بغداد»، ومنها باتّجاه الجنوب الغربي إلى «المسيب» فـ «كربلاء»، لنزور مقام الإمام الحسين عليه السلام، ونغادر بعدها إلى «الحلّة»، ولنصل أخيرًا إلى «النجف الأشرف».

هناك ارتدينا مسوح الحجيج إلى أن تمكّنا من بلوغ مقام ومهجع الإمام عليّ. وبعد لأي تمكّنتُ من إيصال رسالة التوصية إلى قائم المقام، الذي ما كاد ينتهي من قراءتها حتى وقف احترامًا، ليشير بأن أتبعه. فتح بابًا بجوار المحراب لنجتاز ردهة مظلمة أفضت إلى حجرة الضريح المسيَّج بخشب الصندل. فتح كوّة في الأرض خلف الضريح تمامًا، وأخرج منها كتيّبًا مهلهلاً طلب منّي إخفاءه والاطّلاع عليه لاحقًا وإعادته بأسرع ما يمكن قبل أن يكتشف الأمر سادن ما. نسخته عشيّتين وضحًى، محتفيًا بالكثير الكثير ممّا كنت أجهله عن «الجفر»، لأعيده إلى

ذلك القائم، منصرفًا إلى الاعتكاف على قراءة ما نسخته. وكفائدة أبتغيها لكم ولي رأيت أن لا بدّ من إيراده باعتباره الكتيّب الوحيد الذي يحتوي على نبذة تاريخيّة عن «الجفر». وسألجأ ـ خروجًا على قاعدة عدم ذكر الأسماء ـ إلى ذكر بعض أسماء وجدت من الضرورة إيرادها حتى لا أشوّه أو أفتئت على سياق أحداثها، وكي لا أغيّر في ما اجتهد فيه غيري.

اتّبع الكتيّب مسارًا حاول فيه تطويع وتكييف كثير من حوادث ووقائع التاريخ مع سياق قصّته. وها هو يبتدّر بعبارة عامّة وكأنّها عنوان شيء يراد أن يكون هذا الكتيّب منتهاه:

«ليس لإيقاف الظلال إلّا اجتياز الهامش الفاصل لعالمها واقتحام مقرّ الأسياد. ولن يحدث هذا إلّا بالجفر».

لكن لماذا لا أدخل في سياق الكتيّب مباشرة دون مقدّمات؟!

«الجفر كتاب مخطوط يحوي بين دفّتيه جداول هجائيّة غامضة، لا يكاد يفقه منها العوام شيئًا. ويقال إنّ في طيّاته الاسم المائة المحجوب من أسماء الله الحسنى والذي يعطي من يدركه القدرة على كلّ شيء.

جاء في «المعجم الوسيط» أنّ «الجفر» لغة: ما عظم واستكرش من ولد الشاة والمعزى. أمّا في «تلخيص العسكري» فإنّ الجدي إذا بلغ شهره الرابع وفصل عن أمّه فهو جفر. وفي «مقاييس ابن زكريّا»: ما جفر جنباه، أي اتّسعا. وفي «الجفر الكبير الجامع ومصباح النور اللامع» لـ «قطب الأقطاب وإمام الحظوة الباهوت» محيي الدين بن عربي، أنّ جفر الشاة: ما يدثّرها من جلد ووبر.

أمّا اصطلاحًا فقد جاء في «الوسيط» أنّ «الجفر»: جِلد كتب عليه الإمام علي بن أبي طالب الأحداث قبل وقوعها. وقد نسخه عنه الإمام

الحسين بن علي بن الحسين والإمام جعفر الصادق. أمّا في «سفينة البحار» فقد ورد أنّ «الجفر»: علم يطلب في الحروف دلالات على أحداث العالم، وفيه علم الأوّلين والآخرين، أُخذ من ألواح موسى ومزامير داود واستودع جوف جبل إلى زمن خاتم النبيين محمّد الصادق الأمين، فأودعه عليًّا وأمره أن يضعه تحت رأسه في المنام، فأصبح وقد علّمه الله كلّ شيء، ثم نسخه عليٌّ على جفر شاة برموز لا يدركها إلّا خاصّة أهل العلم الثقاة.

ويقول الإمام جعفر الصادق إنّ «الجفر» وعاء من أدم فيه علم النبيّين والوصيّين والأولياء من كافّة الأقطار والأزمان، ضُمّن تسمية كلّ ملك وسلطان وولي وذي أثر من الإنسان.

توارثه الأئمّة من آل البيت إلى الإمام الثاني عشر محمّد بن العسكري، والذي يعزى إليه شطب مفاتيح رموزه المدوّنة في أولى صفحاته وإيداعه أحد أخلص معاونيه قبل أن يختفي.

تمكّن ذلك التابع من النجاة بنفسه لاجئًا إلى الكوفة، مسقط رأسه. حافظ على أمانته حتى أحسّ بدنوّ أجله، فسلّمه لأكبر أبنائه موصيًا إيّاه بأن يسلّمه للإمام حال ظهوره. لكن كان لذلك الابن شأن آخر مع الكتاب؛ إذ كان معتنقًا مذهبًا شيعيًّا غير الذي كان عليه أبوه، وكان عضوًا في التنظيم القرمطي: أحد أشهر تنظيمات المذهب الإسماعيلي.

كان ذلك التنظيم يعتمد بثّ ونشر دعاة مؤهّلين للدعوة إلى إمام مستور من أبناء الإمام إسماعيل المبارك، الابن الأكبر لجعفر الصادق وأحبّهم إليه، والذي وافته المنيّة أيّام أبيه ليرث الإمامة أخوه موسى الكاظم. وجد أبناؤه أثرة في ذلك الإرث، فانشقّوا وأنصارهم مشكّلين تنظيمًا جديدًا دعوا فيه إلى تولية محمّد «الغائب» أكبر أبناء إسماعيل، باعتبار أنّ الحفيد يرث الجدّ في حال وفاة أبيه، وهو ما رفضه الآخرون.

كان «الجنابي» أحد أولئك الدعاة. وكان قد أتى من نواحي البحرين ليتزعّم التنظيم في العراق، قبل أن يعود إلى البحرين إثر اشتداد ضربات المناوئين وتغلّبهم عليه في الكثير من المواقع، وهو ما أدّى إلى انضمام ذلك الابن إليه حاملاً الكتاب معه.

وها هو الابن يشعر بقرب منيّته دون أن يكون له من يخلفه، فسلّم «الجفر» لذلك الداعي ليسلّمه للإمام المستور إحقاقًا للحقّ، باعتبار أنّه من يفترض وصول ذلك الكتاب إليه.

توارث أولئك المستورون الكتاب محتجّين به في أحقيّتهم بالإمامة، حتى بلغ عُبَيْد الله بن المهدي، المعروف بـ «ميمون القداح». وحدث أن وفد على ميمون أحد الأشياع من اليمن، هو علي بن الفضل، طالبًا الإذن بالدعوة في اليمن وتهيئتها لتكون مركزًا ومنطلقًا لظهور أوّل من يظهر من الأئمّة المستورين، فأرسل بصحبته داعية آخر من العراق، يُدعى ابن حوشب، وعُرف بعد ذلك بـ «منصور اليمن»، على أن يلحق بهما حين يؤون الأوان. كان الخوف يسكن كلّ أتباع الدعوة، فَقَدَّر الرجلان أن لا بدّ أن يحصلا منه على ضمانة، نظير تعريض حياتهم لخطر ماحق، فأعطاهم كلمته. لكن منصور اليمن، الذي لم يكن راغبًا في الذهاب، مدركًا الوضع السيّئ للتنظيم، طلب منه ضمانة أكبر يحرص بها ميمون على الإيفاء بوعده، وهي أن يذهبا ومعهما ذلك الكتاب، وَلْهُ عليهما حفظه وصونه وإعادته له حين يوافيهما في اليمن، وعلى أن يضع ذلك المنصور أحد أبنائه رهينة.

ولأنّ ذلك الإمام (ميمون القداح) كان يدرك أنّه مطارد على الدوام أنّى كان، وأنّ الخناق يضيق عليه يومًا فيومًا، فقد عزم على التوجّه إلى اليمن؛ حيث يمكنه النأي بنفسه ودعوته ويؤسّس دولته بين شوامخ جبالها وهضابها وسهولها وصحاراها البعيدة عن كلّ سطوة، وهي كذلك حيث

أشياع أجداده. وعليه فقد ارتأى أن لا ضير من أن يرسل الكتاب معهما حفظًا له ويستردّه عقب لحاقه بهما. فسلّمه إلى منصور اليمن، أكثر الداعين إخلاصًا له ومعرفة به، من وجهة نظره، والأكثر ثقةً أيضًا.

مكث الداعيتان في مكانين متباعدين في اليمن يدعوان إلى الإمام المستور. كانا قد اتّفقا على اللقيا حال استتباب الوضع لكليهما أو لأحدهما، وهو ما نجحا فيه، وإن كان ابن الفضل، المنطلق من أقصى الجنوب، أكثر تمكّنًا من اكتساح المدى شمالاً مستوليًا على كلّ المناطق في طريقه، حتى بلغ «مذيخرة» من أرض «العدين»، عاصمة «المناخيّين»، جاعلاً منها عاصمته، وفيها عزّز قواه مواصلاً اكتساحه إلى أن استولى على صنعاء بعد معارك ضارية، ومن ثم اتّجه إلى «شبام كوكبان»، عاصمة «اليعفريّين»، وهناك كان اللقاء مع ابن الحوشب، القادم من الغرب والمتمركز في «مسور لاعة» القريبة من هناك. وعندها بلغهما أنّ الإمام المستور قد توجّه إلى المغرب حانثًا بوعده؛ لكنّ الرجل أرسل إليهما أنّ توجّهه ذاك كان عن رؤيا رآها فحسب، مجدّدًا المواثيق ومشيدًا بما حقّقاه من انتصارات. حافظ ابن حوشب على عهده، بينما كان لابن الفضل رأي آخر؛ فالإمام وقد حنث بوعده كان قد أخلّ بشرط هامّ من شروط إمامته وأوجب عليه الحنث به، وما ذلك إلّا تأسّيًا بسعيد الجنابي في البحرين، في تأسيس دولة مستقلّة تحمل الدعوة يمنيّة خالصة، لا تبعيّة فيها، وهو ما أجّج صراعًا دمويًا بين الداعيتين، أوشك أن يُحسم لابن الفضل وقد فرض على صاحبه الخصم حصارًا جاوز شهورًا ثمانية وانتهى باستسلام ابن حوشب وأخذ ابنه رهينة وتسليمه صاغرًا ذلك الكتاب الذي كان ابن الفضل يتحرّق شوقًا للاستئثار به. ترك ذلك حسرة لمنصور اليمن المشغوف بالكتاب هو الآخر؛ ليس هو فحسب، بل إنّ أكبر أبنائه ألّف كتابًا سمّاه «الكشف عن

الجفر»، تحرّقًا على ذاك الذي ضاع من أبيه.

احتفظ ابن الفضل بالكتاب في عاصمته، إلى أن نجح خصومه في اغتياله وتقويض دولته، ما جعل ابنه يرسله، قبل أن تفتك به وبباقي أسرته الجيوش المحيقة بالعاصمة، إلى داعية في مكّة كان أستاذًا له ولأبيه.

احتفظ ذلك الداعية بالكتاب وأورثه لمن تلاه من الدعاة، حتى سلّمه أحدهم للداعي والملك علي بن محمّد الصليحي أثناء استيلائه على مكّة، باعتباره وكيل الخليفة الفاطمي الإسماعيلي الذي فوّض له حكم تلك البقاع. احتفظ الملك بالكتاب لا يفارقه أينما ولّى، حتى كان مقتله في تهامة أثناء توجّهه للحجّ على يد «النجاحيّين» الذين انتهبوا الكتاب من ضمن ما نهبوه. زد على ذلك أنّهم أسروا الكثير من النساء، وبينهنّ الملكة أسماء بنت شهاب، زوجة الملك المقتول وأمّ الملك الابن والداعية الجديد: المكرّم الصليحي.

ولأنّ «النجاحيّين» لم يكونوا يدركون أهمّيّة الكتاب وقيمته، رغم شغفهم بالكتب عمومًا؛ فقد وضعوه غير آبهين ضمن ما وضعوا من كتب في مكتبة الجامع الكبير في عاصمتهم «زبيد» التي أعادوا الاستيلاء عليها عقب تلك المقتلة.

وما كاد يمرّ عام حتى تمكّن المكرم من إعادة تثبيت أركان دولته الموشكة على الانهيار؛ فبدأ يخطّط لفكّ إسار والدته في زبيد واسترداد ذلك الكتاب. وها هو يكلّف اثنين من أخلص أعوانه يدخلان المدينة على هيئة قاصدي تجارة، أحدهما يتولّى تخليص الملكة، والآخر مهمّته الكتاب. غير أنّ المكلّف بتخليص الملكة اضطرّ للعودة إلى صنعاء بعد أن تيقّن من عدم إمكانه تنفيذ المهمّة، لتشديد «النجاحيّين» الحراسة عليها، إلّا بالاستيلاء على المدينة. بينما بقي الآخر يبحث عن ذلك

المخطوط حتى تأكّد له وجوده في تلك المكتبة. كان لا بدّ من جهد مضن وسط كمّ هائل من الكتب وضعت دون ترتيب حتى تمكّن من تحديد مكان الكتاب. حاول مغافلة القائمين على المكتبة ودسّ الكتاب في ثنايا ثيابه، إلّا أنّ أحدهم تنبّه، ما جعله يطلق ساقيه للريح، مخترقًا أحد الأزقّة المحاذية للمسجد. تنقّل من زقاق لآخر، تتبعه تلك الصيحات التي راحت تهبّ من كلّ مكان، حتى أحسّ الخناق يضيق عليه، فامتشق حسامه مقتحمًا أقرب منزل، ليجد فيه امرأة في منتصف عمرها ارتجفت حال رؤيتها له. خطرت له فكرة ما فأعاد حسامه إلى غمده وبالكاد تمكّن من طمأنتها. كان يدرك أنّ ساعته ربّما قد دنت، فليتشبّث إذن بما هو متاح له من خيوط. أخرج الكتاب من طيّات ملابسه وناولها مستحلفًا إيّاها ألّا تسلّمه لأحد إلّا للملك المكرّم إن كان لها أن تراه. أومأت له مدفوعة بالخوف، أو أنّ هاجسًا ما دفعها لذلك دون أن تنبس بشفة. وها هو يتسلّق جدار الفناء ممتشقًا حسامه إلى فناء مجاور ومنه إلى ما يليه وما يليه. ثم حين اطمأنّ إلى ابتعاده مسافة كافية خرج إلى الزقاق، راكضًا في اتّجاه معاكس. وها هي ثلّة جند يطلبون منه التوقّف، ليكرّ بسيفه نحوهم، فيمزّقونه إربًا.

حاول «النجاحيّون» البحث عن الكتاب. فتّشوا كلّ المنازل المحيطة حيث التقوه، بل حتى منزل تلك المرأة، دون جدوى؛ إذ إنّها كانت قد أخفته في مكان لم يخطر لهم على بال. كانت بكلّ بساطة تمسك الكتاب في إحدى يديها ملفوفًا بقطعة قماش بينما كان أولئك يقلبون البيت رأسًا على عقب.

وها هو المكرّم يهزم «النجاحيّين» ويدخل عاصمتهم آخذًا بثأر أبيه ومطلقًا إسار أمّه. ثم ها هو يصاب بـ «الفالج»، وهو ينزع لثام وجهه المتعرّق في وجه الريح ووجه أمّه المكتسية بالزهو، لتتيبّس تفاصيل

وجهه. وها هي تلك المرأة، من بحوزتها الكتاب، تحظى برؤيته بعد جهد، مدّعية أنّها على علم بالمداواة. سلّمت إليه الكتاب الذي طالما افتقده، فكافأها بما لم تتخيّل. غادر إلى صنعاء محمولاً على هودج. ثم بعد اشتداد مرضه عهد بالكتاب إلى زوجته، الملكة أروى.

أصبحت السيّدة الحرّة، الوصيّة على عرش ابنها الصغير بعد وفاة زوجها، ممسكة بزمام كافّة الأمور بيديها. احتفظت بالكتاب في قصرها الجديد في العاصمة الجديدة: «ذي جبلة» عند المصبّ الشمالي الشرقي لـ «جبل التعكّر». ظلّ الأئمّة «الفاطميّون الإسماعيليّون»، المتسيّدون في «المغرب» و«أرض الكنانة» و«الشام»، الباسطون سيطرتهم على «الحجاز» و«اليمن»، يبحثون عن الكتاب دون كلل. فأرسل الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي أحد مساعديه: (نجيب الدولة) ليعمل على استرداد كتاب «الجفر»، الذي دلّت التحرّيات أنّه لدى السيّدة، فاحتجّ بالعمل وزيرًا لدى داعيتهم وملكة اليمن يساعدها في تصريف أمور الدولة.

تمكّن «نجيب الدولة» ـ وبحيلة ما ـ من إرساء بعض النظام مستغلًّا قنوت السيّدة الدائم. ونجح في إغواء إحدى وصيفاتها محاولاً الاستحواذ على الكتاب. غير أنّ السيّدة فطنت للأمر، فخرجت ممّا كانت فيه لاحقة به إلى منطقة «الجند» وألحقت الهزيمة به واستعادت الكتاب وأعادت الرجل إلى خليفته مجرجرًا الخيبة، فما كان من الأخير ـ خشية أن تتمرّد عليه السيّدة ـ إلّا أن نصبها حجّة؛ لتكون أوّل امرأة تحتلّ هذه المرتبة المرموقة لدى الإسماعيليّين. كما عيّن سبأ بن محمّد الصليحي، صاحب «المنار» وقائد جيوش الدولة، الداعي العامّ للمذهب في اليمن.

كان أن اجتمع رجالات الدولة على وجوب أن يتزوّج هذا الداعي

من السيّدة؛ حفاظًا على كيان دولتهم. وافقت السيّدة مرغمة؛ لا خشية على الدولة من الانقسام فحسب، بل ومن جيوش الداعي القابضة على خناق «ذي جبلة»، منذ أن أتى لمؤازرتها ضدّ «نجيب الدولة». حاول الدخول بها؛ لكنّها رفضت. ولأنّها الحجّة فقد كان يحقّ لها تحديد خياراتها، بل وتحديد خيارات الدعاة الآخرين. بمفاوضات حثيثة توصّلا إلى أن يدعها وشأنها، على أن تسلّم إليه كتاب «الجفر» خشية أن يأتي من يتمكّن من الاستيلاء عليه.

انهارت الدولة الصليحيّة عقب وفاة الرجل، وأعقبه وفاة السيّدة، لتتقاسم الدولة عائلتان همدانيّتان من المذهب نفسه، هما «بنو زريع» وكلاء «الصليحيّين» في الجنوب والمناطق الوسطى أو ما يعرف بـ «اليمن الأسفل»، و«بنو حاتم» وكلاؤهم في الشمال والشرق أو ما يعرف بمناطق «اليمن الأعلى»، والتي تقع ضمنها «قلعة المنار» حيث «الجفر» مخبوء بإحدى خزائنها.

توارث سلاطين «آل حاتم» الكتاب بعد أن نقلوه إلى أحد القصور في منتجع «الروضة» القريب من عاصمتهم (صنعاء)، إلى أن تأكّد لهم أفول دولتهم عندما اكتسحتها ـ مع ما بقي من دويلات يمنيّة ـ جيوش الدولة الأيّوبيّة القادمة من مصر. فقام آخر سلاطين الحاتميّين بإرسال الكتاب، صحبة ابن له وبعض التجّار، إلى «الهند»؛ حيث الإمارة «الإسماعيليّة» الصغيرة المطلّة على «بحر العرب»، والتي أقامها تجّار يمنيّون للحفاظ على مصالحهم وأيضًا لنشر مذهبهم هناك. أصبح الحاتمي الابن ـ بطريقة ما ـ أميرًا على تلك الإمارة، لتتوارث سلالته الكتاب كابرًا عن كابر.

مرّت السنون ليتمكّن «بنو رسول» من طرد الأيّوبيّين وتسلّم زمام السلطة في «اليمن». ونما إلى أحد ملوكهم، هو «الأشرف»، أمر ذلك

الكتاب من أحد رجال «الإسماعيليّين» المقرّبين منه. ولأنّه كان شغوفًا بكلّ غامض، فقد كلّف أحد التجّار من الطائفة «الإسماعيليّة» العمل على استرداد الكتاب مهما كان الثمن.

بحث ذلك التاجر طويلاً، حتى تمكّن ـ نظير مبلغ باهظ لأحد الأمراء ـ من الحصول عليه، وليدفع ذلك الأخير حياته ثمن ذلك؛ فقد وجد في منزله مغطّى بدمائه والطعنات.

أُعيد الكتاب إلى مكتبة «الجامع الكبير» في «زبيد». وحين أفل نجم دولة «بني رسول» أفل نجم الكتاب أيضًا، فتناساه اللاحقون: «طاهريّين» و«مماليك» و«أتراكًا»، إلى أن قام بعض جنود الأتراك أثناء جلائهم الأوّل من اليمن بنهب كثير من الكنوز الأثريّة ومن ضمنها محتويات مكتبة جامع زبيد، آخر معاقلهم، هامّين بتهريبها إلى بلدهم. كانوا ليتمكّنوا من ذلك لولا أن تمكّن جيش «الإمام محمّد بن القاسم» (المؤيّد) من استردادها وتسليمها إلى قائده الأمير إسماعيل، والذي أصبح بعدها «الإمام المتوكّل على الله إسماعيل»، وكان معروفًا بشغفه الشديد بالمخطوطات والكتب.

أودع الكتاب وغيره المكتبة الغربيّة لجامع صنعاء الكبير. ولأنّ أحدًا لم يكن قادرًا على فهم الكتاب أو فكّ شيفرته فقد تناسته السنون عقودًا، وقرونًا، إلى أن اندلعت ثورة المقاومين ضدّ الأئمّة. سلم من أيدي بعض «المصريّين» العابثين، الذين لم يدركوا قيمته، لينتقل إلى رفّ آخر للكتب المهملة لا يكاد يلفت إليه نظرًا، حتى سطت عصابة ما على مكتبة الجامع، ناهبة كلّ ما وقع تحت يدها من كتب، وبينها كتاب «الجفر»، ليقال إنّ آخر من وصل إليه هو سمسار تحف ومخطوطات في صنعاء، وجد مقتولاً قتلة شنيعة في خرابة بالقرب من بيته».

* * *

بِتُّ صحبة السادن أتساءل: إذاك «الجفر». . . حلمٌ هو أم علمٌ؟!

وها هو ككلّ من صادفته في رحلتي يتفتّق عن شخص غير عادي؛ إذ استفاض معي بحديث لم أتوقّع سماعه من شخص في مثل مكانته.

تحدّث عن انحراف طرأ على مسار دعوتهم منذ أمد طويل، ليتحوّل ما يؤمنون به من أفكار وقيم، تتمثّل في عدم تولية الإمامة إلّا من يستحقّ، إلى تكريس فكر طالما قاوموه، فإذا بالمقاومة تنتهج الوراثة والتعصّب الجهوي واشتراط ألّا تكون القيادة إلّا على أساس سلالي، وهو ما لم يكن ليقبله المؤسّسون؛ إذ إنّ ذلك هو نهج الظلال والظلاليّين، وشتّان بين النهجين.

كان يتحدّث، بنبرة أسف جليّة، عن عدم قدرته على الجهر بما يختلج فيه؛ حماية للدعوة لا لنفسه، كما قال. كان كأنّه لا يرجو منّي سوى استيعاب فكرة أنّك حتى وإن كان لديك تحفّظات عن قضيّة ما، فذلك لا يعني أنّ القضيّة برمّتها على خطأ؛ ولذا لا بدّ لك من الاحتفاظ بتحفّظاتك تلك خوفًا على نبل القضيّة من أن تشوّشه التفاصيل، فيلتبس الحقّ بالباطل.

وها أنذا ـ في فجر تطويه أعاصير غبار ـ أغادر إلى بغداد، ومنها في رحلة أخرى مع رفيق آخر نضرب نحو أغوار الأردن. في البداية تراءت لنا غابات كثيفة من نخيل. اجتزناها موغلين في صحراء قاحلة تبدّت بلا نهاية. حاولت مرارًا وتكرارًا إزجاء الوقت بالحديث إلى ذلك الرفيق، الصامت حدَّ أن حسبته أبكم، ثقيلاً لكأنّه تمثال.

ويا لتلك الرحلة الصمت كم ستكلّفني من عناء روحي لا يطاق! إنّما ها أنا أتمكّن أخيرًا من سماع صوته؛ إذ اضطرّ للكلام مع أحدهم لدى توقّفنا في إحدى الاستراحات للتزوّد. وها هو يتناول طعامه سريعًا ويستغرق في نوم عميق.

ويا له من بون شاسع بين هذا الرفيق ومن سبقوه في مرافقتي! حتى صمتهم كان له معنى يضفي على النفس أشياء وأشياء.

ولكن، ألم يكونوا مملّين أوّل الأمر؟! إنّ طول صحبتنا لأيّ شخص هي ما يجعلنا نعرفه. لذا فإنّ الحكم على من عبرنا بهم مجرّد عبور هو من قبيل البهتان.

حاولت النوم؛ لكنّه جافاني إلى ذلك الرفيق. آثرت الخروج، رغم حرارة الشمس اللافحة المهيمنة على المدى. أليست الشمس والرمال العاشقين الأزليّين؟! ألا يعتنقان كلّ يوم بولهٍ طاغ؟! أليس الليل هو الذي يفرّقهما كعارض طارئ أو كعذول بغيض يضاعف تلهّفهما ولوعتهما؟!

ابتعدت عن النزل موغلاً في رمل لا حدَّ له، لتستيقظ فيَّ ذكرى الثلج. لا أدري كيف يمكن لشيئين بذلك التناقض أن يكونا بهذا التشابه! ألا يقال إنّ الضدّ يظهره الضدّ؟! إذن فالرمال تلفح والثلوج تلفح. وإذا كانت الحرارة والبرودة ضدّين، فإنّ فعلهما واحد، هو اللفح. ألا يحرقنا البرد كما النار؟! ألا تكون النتيجة ذاتها من تعرّضنا لوهج الشمس أو لصقيع البرد؟!

توغّلت حتى لكأنّي أرتاد التيه، ولكأنّي أودّ المضي هناك إلى الأبد. ولكن، أينطلي هذا على من يملك من المعارف ما أملك؟! أليس لديَّ من الإدراك والمعارف ما يجعلني قادرًا على فكّ لغز هذا المدى اللامتناهي، وتحديد مكاني وما أودّ بلوغه؟! حتى حينما باغتني إعصار رمل طواني، أحسست بأنّني جزء منه. كأنّ الإعصار هو ذلك التوق في نفسي إلى كلّ ذلك الذي لم أبلغه بعد. لم يعد ثمّة من أثر لخطاي. لكن، ها أنا أتبيّن طريقي إلى النزل، لكأنّي من أهل هذه البقاع. لم أكن مكترثًا بذلك الاستنفار الذي كان قد أحدثه رفيقي بحثًا عنّي، ولا

لإشراقه وعبوسه حال رآني. كنت أفكّر كيف غدوت إعصار رمل! كيف توحّدت مع كلّ ذرّة فيه! وكيف أصختُ لصوت الصحراء الداوي في أعماقي! وكيف أراني قد تجسّدت ذلك التيه الذي منحتْنيه الصحراء!

التنصيب السابع

النهر المقدّس

نوم قلق تلبسّني بقيّة الطريق، نوم قلق، حتى جزنا الحدود دونما عراقيل، وكأنّ في صمت صاحبي ما جنّبنا كلّ ما وجب تكبّده من إجراءات. وصلنا إلى «عَمّان». هناك تسلّمني من رفيقي شخص آخر. كان رفيقي الجديد شابًا مكتمل البنية، وسيم الملامح لكأنّه نجم سينمائي، شديد التهذيب لكأنّ كلامه همس؛ لكنّه على الأقلّ كان يتكلّم. عرض عليَّ أن أركن للراحة، إذ سنمضي عند الفجر. وها أنذا أدور في الشوارع، متنسّمًا عبق أحداث وأحداث عبرتها هذه المدينة على حداثتها.

ألفيت قدميَّ تصعدان بي ذلك الجبل المهيمن عليها. وها هي الحركة الدؤوبة للبشر المكتظّين على قمّته الواسعة تعيدني إلى نفسي، لأشعر بتعب فرض عليَّ الركون إلى أحد المقاهي، أتقوّى بفنجان قهوة. لا أدري لِمَ أحسست بالرجفة وأنا ألتفت إلى طاولة مجاورة من حولها بضع فتيات في مقتبل العمر! إحداهنّ كانت تنظرني كأنّها تعرفني، أو كأنّها تحاول اختراق أعماقي. نظرْتُها فإذا كأنّها فتاة الناي. يا له من

شبه مذهل! بلى! إنّ أظنّها إلّا هي. ألسنا لم نعثر لها على أثر؟! يا لهذا العالم من صغير! أيعقل أن يكون الشبه إلى هذا الحدّ؟! كان عليَّ أن أتأكّد، أو أنّه شبه يتجاوز كلّ حدود.

ألفيتني ناهضًا وكأنّ طيفًا ما، هو طيف الفتاة، يخترقني. دنوت من طاولتها. سألتها إن كانت من الهند: لم يكن في منظري ما يوحي بشيء، بل لكأنّني أشبه بآتٍ من أعماق الصحراء يسألها ذلك السؤال الغبي. تَلفّتتْ إلى رفيقاتها على وجهها حرج شديد. نهضتْ ببطء. أدركتُ ما تفكّر به. صفعة قويّة ترنّ على خدّي. استدرت منصرفًا لائذًا بالصمت. مجموعة شبّان أرادوا أن يظهروا لهنّ قوّتهم، فانهالوا عليَّ ضربًا. كأنّه كان امتحانًا آخر. لم يندّ عنّي أيّ مقاومة، فانفضّوا عنّي. التفتُّ إلى تلك الطاولة فلم أجد أحدًا. جرجرت قدميَّ خارجًا وأوقفت أوّل تاكسي وعدت إلى حيث أقطن مستغرقًا في نوم متأوّه.

انطلقنا فجرًا باتّجاه أغوار الأردن، حيث استقبلنا مجرى جافّ لأقدس أنهار الأرض. كانت عيناي تتساءلان عن جدوى المجيء إلى مكان كهذا. ولكأنّه أدرك ما أفكّر فيه، فراح يحدّثني عن مكان يسمّى «المغطس»، وأنّ السيّد المسيح كان يعمّد أتباعه فيه، وما زال محتفظًا بمياهه، وإليه نحن متّجهون. والكثير من المسيحيّين يحجّون إلى هنا للتعمّد بهذه المياه المقدّسة، متبرّكين، كأنّما يعمّدهم أيضًا. ترجّلنا عن السيّارة لنرى سيّارة أخرى تدنو منّا. يا إلٰهي! إنّها الفتاة ذاتها! هبّ صاحبي لفتح باب سيّارتها. وها هي عيناها تجحظان نحوي؛ كأنّها لا تصدّق ما تراه. أيعقل أن يكون من أتت لتراه هو نفسه الذي صفعته بالأمس غير آبهة؟!

طلب منّي صاحبي أن أتعرّى، كما فعل، ثم هبّ يدفعني بيديه إلى الماء. بالكاد تمكّنت من التشبّث بيديه، لنهوي معًا في المغطس

المقدّس؛ مثيرين موجة استياء روّاد يبدو أغلبهم من بلدان الشمال الخانعة للظلال. تراشقنا مياهًا خضراء آسنة، في لحظة مرح نادرة. طلب أن أغطس بالطريقة التي كان السيّد المسيح يعمّد بها أصحابه. كأنّي كنت أتعمّد على يديه؛ لكأنّي أخرج حين خرجت أتقلّب بين حصاه شخصًا آخر. سألتهما عن سبب شحّ مياهه، وعن مآله إلى مجرّد جدول صغير. أخبراني أنّ معظم مياهه محتجز في الجانب الآخر، حيث الظلال تهيمن وأتباعها. أخذت أضحك من أعماقي وقد نسيت كلّ شيء في غمرة المتعة.

راقبتنا مراقبة المتّقد شوقًا لمشاركتنا. وها هي تشمّر عن ساقيها وتهبط ضفّة الحوض لتخوض مياهه وحصاه معنا. كانت مثيرة حدّ الفزع، أو أنّني من كان مثارًا لذلك الحدّ.

وككلّ أنثى كانت ذات روح خفيفة إن هي أرادت. وها هي تتضاحك معنا؛ عذرًا! أقصد معه، لأشعر بشيء يلتفّ حول قلبي ويعتصره. أيعقل أن تنتابني مشاعر كهذه مع من بالكاد أعرفها؟! يا لهذا الإنسان من أناني لا فرق لديه بين الحبّ والتملّك!

لم يكن لي، للخروج ممّا أنا فيه، إلّا الانتهاء من هذا القهر المقدّس. مرّغت نفسي ثلاث مرّات وخرجت. وها هي ملامح الجِدّ ترتسم على وجهيهما وكأنّهما ينتزعان نفسيهما من المتعة انتزاعًا.

آه! كم هي الحكايات التي تجمعني بهذه المسمّاة أنثى! إنّها الكائن الوحيد القادر على إخراجي من نفسي والخضوع لها راضيًا مرتضيًا؛ لكأنّها الكائن الكامل. وأيّ كمال إلّا ما نهفو إليه ونكتمل به؟!

هناك، خلف ما كان هنا من نهر، أرض مقدّسة تدور فيها رحى أكبر مواجهة بين ظلال وظلال، خانعين ومقاومين. هناك سترى كلّ

شيء في ذروة التجلّي. هكذا أخبرني ذلك الوسيم، مضيفًا أنّ هذه الفاتنة ستكون رفيقتي. وكعادة الأنثى، ها هي تحيط نفسها بشيء من جفاء؛ ربّما لتداري طبيعتها الرقيقة وضعفها الأنثوي الأقوى من كلّ قوّة!

ها هي تتظاهر بتجاهلي. وها أنا أتظاهر باللاشيء.

التنصيب الثامن

الجلجلة

اجتزنا ذلك المجرى لأشعر بذلك الحضور الثقيل للظلال وتلك الخفّة الرائقة للمقاومين. كانا شعورين متمازجين حدّ الغياب. وإلى ما يطلق عليه «الضفّة الغربيّة» عبرتْ بي تلك الحدود الملتهبة، محطّ أنظار العالم. أمام كلّ حاجز تفتيش يغمرني قلق مميت، لنجتازه دون أيّما عراقيل. كانت تعرض بطاقة ما فقط فتنفتح أمامها الحواجز. وها نحن نصل «رام الله» قبيل المغيب، في طريقنا إلى مدينة السلام والحرّيّة. قرّرنا المبيت ريثما يتمّ تدبر الأمر.

منزل بسيط يخفق دفئًا، ليس سوى منزل عائلة مرافقتي. استقبلنا ربّه قبل أن يستأذن بالخروج لشأن ما. قدّمتني إلى باقي العائلة، ليحتفوا بي أيّما احتفاء؛ وكأنّي ابن لهم عاد بعدما غاب طويلاً.

في المساء، عقب العشاء الفخم المعدّ على شرفي، أخبرتني أنّ عليَّ الاستعداد لرحلة ما.

كانت مترجمة للإنكليزيّة، إضافة إلى عملها في العلاقات العامّة. كما أنّها شاعرة وكاتبة. انضمّت للمقاومين عبر أبيها المحامي وجحيم

الحياة التي تصليهم بها الظلال. أترعتني بعضًا من شعرها، كأنّما وقد تشجّعت بين أفراد عائلتها، منتظرة منّي رأيًا ما، وكان الصمت كفيلاً بإبداء كلّ رأيي.

عاد الأب عند الحادية عشرة ليأخذني وابنته نحو «بيت لحم». بلغنا المدينة الثكلى، كما هو كلّ شبر في تلك الأرض. ها هي المدينة التي احتضنت السيّد المسيح جنينًا ووليدًا، باتت مرتعًا للموت. دخلتها كما لو أنّي أدخل تاريخًا مكتظًّا بالآلام. في الثانية عشرة توقّفنا أمام كنيسة القيامة، أشهر كنائس الأرض. اجتزنا فناءها، ثم بابًا خلفيًّا، فسُلَّمًا أفضى بنا إلى صالة كبيرة مضاءة بمشاعل على الجدران. كم كان منظرًا مهيبًا! عشرات الرجال والنساء يرتدون أقنعة، في يد كلّ منهم شمعة. بدا أنّ أرديتهم تنتمي إلى كافّة الديانات والمذاهب والأماكن والأجناس؛ فكأنَّ العالم برمّته كان حاضرًا ها هناك.

خطر لي ـ لا أدري سببًا ـ أنّني أمام محفل من تلك المحافل الماسونيّة التي طالما سمعت عنها! ما هذا الذي يحدث؟! ولِمَ هذا الاجتماع المهيب؟! أمعنت، فأعجزني الإمعان. كان وكأنّ كلّ أولئك المجتمعين مجرّد أشباح أو ظلال؛ شاخصين يلتفّون حول ما بدا طفلاً مولودًا يتحدّثون إليه. أيتحدّثون لمن كان صبيًّا في المهد؟! وهل من كان في المهد صبيًّا ما يزال كذلك حتى الآن؟! وأين المهد؟! لا أرى إلّا صورة أمّ تضمّ طفلها إلى صدرها، وكأنّها تخشى أن يُنتزع منها، بل ولكأنّ الخشية من هؤلاء الذين لا يفتأون يتحلّقون حولها، رغم أنّ كلّ شيء بدا وكأنّه طبيعيٌّ. ترفع عينيك قليلاً لترى الصورة أكثر إيلامًا، وقد تلاشت الأمّ إلى صليب، والطفل إلى رجل مسنود إليه.

أهي مسرحيّة تجسّد ذينك المشهدين؟! أم هو الزمن كان لحظتها يعيد نفسه؟! وما الذي يا ترى كان البدء: الصليب أم المهد؟! الغريب

أنّ الأمر لم يكن يوحي بأنّها مسرحيّة. كان كلّ شيء يوحي بالحقيقة، بل أكثر. إذن هو ليس محفلاً ماسونيًّا. إنّه ذلك التجسّد الذي نراه يوميًّا في ساحة الحياة، فتصبح كلّ المهود صلبانًا وكلّ الصلبان مهودًا، كلّ أمٍّ مريم وكلّ طفل هو المسيح.

دنوتُ من ذلك المولود الصليب على غير إرادة منّي ومنه، أتحسّسه، لكأنّما عيناي راحتا تمارسان حاسّة اللمس، بل وبقيّة الحواسّ. زادت نظراتنا كثافة، حتى كأن لم يعد ثمّة أحد سوانا. وإذا به يمدّ يدًا بضّة تخترق ما بيننا من مسافات، فلا يكون أمامي سوى درب واحد، وأيّ درب! إنّه درب الصعود إلى «الجلجلة»، حاملاً صليبك. أتراك أحد الحواريّين؟! أم أنّك المسيح ذاته قد أصبحت، يتدافع نحوك حشد ضخم من الظلال يبصق لعناته وسياطه على كلّ جزء من جسدك المثخن بالجراح، ويدفعك إلى بعث مثخن بالآلام!

ها إنّي من على الصليب أرى اثني عشر ظلًّا تترقرق بعيدة شيئًا ما. ظلّ ثالث عشر أراه أسفل الصليب منتشيًا بشيء ما. يا إلٰهي! لم ألتفت إلى كلّ هذا الحشد إلّا الآن! أوَكلَّ هذا من أجلي أنا؟! مسوح حاخامات ورهبان تهتف بموتي. أوَلم أمت بعد؟! ها هي أقنعتهم تشهق بالحيرة إذ كأنّني اثنان: واحد مُسَجّى على صليبه، وآخر طليق يُحَلّق فوقهم. من تراه يكون إن لم يكن أنا ذاك الطليق؟! إنّما وهذا الصليب، أليس أنا؟! ها أنا أستقرّ بعيدًا، ليلتفّ من حولي الاثنا عشر ظلًّا. وحده الظلّ الثالث عشر ما زال منتشيًا هناك. ها هم يضيّقون عليَّ أطيافهم ولفح أنفاسهم، ليغشى السكون كلّ شيء. رأيتني أحلّق من جديد بأجنحة من ظلال تحملني إلى حيث الوجوه والأقنعة، وتستقرّ بي على وقع أجراس وتراتيل. أفقت على وجه صاحبتي المملوء بالفزع. كان هو الوجه الوحيد الذي رأيته وسط حشد الأقنعة ذاك. كانت الأقنعة ما تزال

حاملة شموعها وذاهبة في الشخوص إلى تلك الصورة. كان المشهد لحظتها أكثر غرابة وألمًا من كابوس. كنت بحاجة ماسّة إلى النوم، فانسحبنا صامتين على وقع أقدام الفجر. وكأنّي بي لم أفق بعد حتى مع تلك الأنسام العبقة القادمة من أعماق الأرض وأعماق التاريخ. بلى! إنّي في حلم، حلم غريب، غريب للغاية.

تلفتُّ أبحث عن أبيها، لتخبرني أنّ هذا هو الوقت الذي يصبح فيه كلّ مقاوم قناعًا يتخفّى بين جموع أقنعة.

لا، ليس النوم ما أنا بحاجة ماسّة إليه؛ بل هو الاستغراق في اللاشيء، في كلّ هذا الذي مرّ بي أو مررت به. كان يبدو أنّها قد أُوَكل إليها مهمّة إقلالي إلى بيت وسط المدينة قبل أن يخفق الضوء؛ فالظلام هنا هو المتاح الوحيد الذي يمكن لأبناء هذه الأرض أن يروه. كلّ شيء هنا يبدو مختلفًا عمّا هي عليه الأمكنة الأخرى. فالظلال التي لا تنتشي إلّا في الظلمة، ها هي هنا تنتشي بالضوء. والمقاومون الذين ينتشون عادة في الضياء، ها هم هنا ينتشون في الظلمة.

ومع أوّل أطياف الليل اجتزنا خطًّا واهيًا معروفًا بـ «الأخضر»، أو هو ذلك الجدار الموغل في الوحشيّة وقد مزّق الأرض الواحدة التي باركها الله أوصالاً وأوصالاً؛ ليفصل بين أرض يغلب عليها المقاومون وبعض الظلاليّين، وأرض تسيطر عليها الظلال وبعض المقاومين.

ها نحن نبلغ القسم الشرقي من القدس، ماضية بي مباشرة في أزقّتها القديمة. توقّفتْ بنا أمام حانوت، أشار إلينا منه شخص ملتحٍ بالدخول. قادنا، بعدما أطلعته مرافقتي على وثيقة ما، إلى باب داخليّ يفضي إلى سلّم حلزوني ينتهي بقبو مظلم. وها هو يطلب منّي التقدّم، وكأنّه يدرك أنّي قادر على اختراق كلّ حُجُب الظلمة تلك. تقدّمتهما لأتوقّف أمام حاجز ما. أحسسته ذلك الحاجز الذي اعترضني في

«المجنّة»، ولم أدر إلّا وأنا أتمتم كأنّما بتلك التعويذة التي ردّدتها شيختي أمام مقام الريح. شعرت بتزحزح خفيف أسفل قدميّ، لينكشف المكان عن دهليز آخر مظلم، أمكن لنا أن نمشي عبره. ومرّة أخرى أقودهما في أتون ظلمة أخرى ذاهبة في اللانهاية.

بلغنا درجًا حجريًا ترتقي نحو بصيص يتخلّل أحد الأبواب. أحسست بها تدفعني نحو الباب وجلة. تقدّم الملتحي فاتحًا الباب، لأجده، وقد أُغلق من ورائنا جزءًا من جدار غرفة حجريّة تكتظّ كتبًا ومخطوطات. دلفنا عبرها إلى غرفة أوسع مكتظّة هي الأخرى. هبطنا بضع درجات إلى ما يشبه ردهةً من عقود تكشفت بدورها عن صرح مهيب تعلوه قبّة هائلة تغطّيها زخارف آيّة في الروعة والجمال.

كان الضوء الخفيف قد جعل ما أراه شيئًا أكثر مهابة وجلالاً وقدسيّة. السكون مخيّم، وعروش المكان كذلك، حتى ليسمع خفق قلبي. غمرني إحساس بالسكينة وهدوء البال لم أشعر بمثلهما منذ فترة طويلة. خلعنا أحذيتنا لأتقدّمهما نحو منتصف القبّة. هاجس ما شدّني نحو المحراب، لأداء صلاة في غير ما أوان. التفتُّ. صاحباي واقفان على حالهما. ركعتان ثم أذنت لإقامة الصلاة. أحسست تدافعًا لمصلّين يسوّون صفوفهم ورائي. التفتُّ ثانية. صاحباي على حالهما. تكبيرة تتردّد تكبيرات، وقراءة الفاتحة بصوت متهدّج يرجع صداه أصواتًا مؤمنة. لا أطياف ثمّة مثل تلك التي أَمَمتها في مقام السليب. إنّها أطياف أكثر شفافيّة تتدفّق نورًا. كنت أهوى الصلاة وحيدًا؛ ولكن ها هي أكثر حضورًا ممّا لو كنت وحدي.

ترى لماذا على الإنسان أن يجدّد خوفه كلّ آن؟! أما له أن يعتاده؟ أليس خوف ما كفيلاً بجعلي أنسى كلّ خوف؟!

أطلت الركعة الأولى غارقًا في تلاوة أنستني نفسي وما حولي. وها

أنا أسجد، لتسجد معي الأرض والسموات. ها أنا أشعر كأنّي أعرج نحو سدرة، أجتاز الحجب، أخترق البرازخ، أطوي المسافات. يا إلٰهي! لم يعد من زمان ولا مكان. كلّ ما حولي مجرّد أنا، وأنا مجرّد ظلّ. يا لها من صلاة! ويا له من مكان!

أفقت على رذاذ ماء يبلّل وجهي، ووجهين لا غير ينظران إليَّ. يا لي وكأنّي كنت على وشك رؤية ما لا يرى! هل تراني بلغت المنتهى؟! أم هي نفسي بلغتْها؟! أشعر أنّني لا شيء وأنّني كلّ شيء في الآن نفسه.

كانت الفتاة امتدادًا لوهج أنثوي يحيط بي أغلب أحلامي، من أمّي إلى أختي إلى تلك الراعية إلى كلّ فتاة سببتُ لها الهلع أو منحتها المتعة، إلى زوجتي وشيختي، وزوجة شيخي، إلى ملاكي، إلى كلّ من عشقتها وكرهتها وذكرتها ونسيتها. كلّهنّ يفضن من حولي ضياءً لا ينضب. إنّهنّ اكتمالي ورغبتي في البقاء حين يتملّكني اليأس، فلا أرى إلّاهنّ.

لست أدري من أولئك الذين أمّمتهم! لكنّني أدري أنّها ظلال من نور؛ كأنّني لم أؤم إلّا أنبياء وأولياء وصالحين. ومن إلَّاها أرواح كتلك سترقى ها هنا؟! ولكن لمَ ورائي إلّا لأنّها تمنحني ثقة أن أكون!

هل كنت بوعيي حين أُخرِجت من المسجد؟! أظنّ أن لا؛ ربّما كنت في تلك السكرة، في ذلك البين بين، حضور وغياب يسطوان على حياتنا دون أن نكترث لهما. كأنّي محمول على كاهل الملتحي أتأرجح وفق حركته، عيناي ذابلتان ترنوان إلى لا شيء.

مكثت يومًا أو بعض يوم في منزل عتيق، تكتنفني تلك الحمّى التي تعاودني كلّما حدث لي شيء يفوق قدرتي على الاحتمال. رأيتني ألتثم وشاحًا من زيتون، أرمي الظلال بحجارة كالقصر. حتى إذا أيأسني

الوهن وأصابتني الظلال بشظاياها، أفقت مجرّد ظلّ يوشك أن يتلاشى. لكنّه عبق القدس واتّحادي بها وبكلّ ما نذرت نفسي له، يمنعني أن أموت.

ها أنذا أستعيد عافيتي سريعًا؛ ربّما لأنّ هذا ما كنت أرغب به. ألسنا إن أردنا شيئًا عن حقّ حقّقناه، سواءً كان متاحًا لنا القيام به، أم لم يكن؟!

كانت صاحبتي موسدة بقلق من تحسب أنّ هذا الذي أمامها غير قادر على مواصلة الدرب.

على المدينة المقدّسة أطللت إطلالة أخيرة، أتنسّم أزقّتها، وأعانق أرجاءها. وها هي تتنسّمني خشية وخوفًا، وأنا أرى كلّ تلك الظلال الغريبة تنهش تفاصيلها حجرًا حجرًا، سماءً وذاكرةً... وآه كم ستعلّمني المدينة؛ ليس لَأْمَ الجراح وتوسيدَ المخاوف فحسب، بل والإيمان بالحياة في خضمّ كلّ ذلك الموت!

وها نحن نغذّ الرحيل مساءً نحو غزّة، أكثف بقاع الأرض بشرًا، بمساحتها الضئيلة التي يفيض بها الخلق، جلّهم من المقاومين. هي الخندق المتقدّم في مواجهة الظلال، تعتوره معابر خوف، أغلبها سُمِّي بأسماء أولئك الغرباء. لا أظنّها إلّا تلك الأوراق التي كنّا نعرضها، كان لها مفعول السحر على كلّ من يقرؤها، لتتفتح أمامنا الأبواب. ولجنا منزلاً عاثت فيه الحروب الحاقّة بهذه الأرض، وإن كان ذلك من الخارج فقط؛ أمّا من داخله فقد كان منزلاً ينمّ عن ذوق رفيع.

استقبلتنا عجوز ثكلت في مواجهات مدينتها مع الظلال خمسة أبناء وفتاتين وزوجيها، ولم يتبقّ لها إلّا فتى وفتاة. أحسست بقشعريرة؛ ليس فقط من مرأى تلك المرأة، الشامخة رغم كلّ ما جرى، وإنّما لأنّ كلّ ما

هناك يوحي بتمازج كثيف بين الظلال والمقاومين، بل حتى وباقي الظلال المقاومة.

أخبرتنا كيف أنّها تشعر بزهو جامح يجعلها، بعد كلّ مأثرة من مآثر أسرتها، تؤثر الزغردة على البكاء، أو أنّها تمزجهما معًا.

أدركت منها أنّ الموت في سبيل ما نؤمن به هو حياة بحدّ ذاتها. إنّه خلود لا يتأتّى إلّا بالتضحية. إنّ للوسائل دلالات على الغايات، كما أنّ للغايات دلالات على الوسائل، لا يمكن التغاضي عن أيٍّ منهما، أيًّا كانت الغايات وأيًّا كانت الوسائل.

التنصيب التاسع

أرض الكنانة

صبيحة يوم تالٍ عبرنا «رفح» إلى «رفح» عبر معبر وحيد. «رفحان» لأرض واحدة قسمتها الظلال والظلاليّون. ليس هنا فحسب، بل هي كلّ أرضنا الممتدّة من المحيط إلى الخليج، كانت فريسة لمؤتمراتهم واتّفاقيّاتهم ووعودهم من مؤتمر «لندن» إلى «سايكس بيكو» إلى وعد «بلفور» وغيرها . . . كأنّ كلّ حقبها الاستعماريّة لم تَكْفِ لنهب وسلب مقدرات تلك الأرض المقسّمة، ليتقسّم المقسّم، ويتجزّأ المجزّأ، وتترسم حدود لم تكن، وتصبح كلّ أرض من تلك الأرض الواحدة فرحة بما لديها.

ها هي الصحراء مرّة أخرى فضاءات تتكرّر. ما أظنّها إلّا كتلك المسمّاة «نفسًا»، تختلف في التفاصيل؛ لكنّها في عموميّاتها متشابهة، بل تكاد تكون متطابقة.

ها هي سيّارتنا تمخر نحو «العريش». سائقها عجوز متغضّن، نحت الزمن آثاره عليه. كان جليًّا عليه الإجهاد، والسيّارة بين آونة وأخرى تنحرف عن مسارها. طلبتُ منه التوقّف فرفض، كأنّما ليزيد من سرعته

وحنقه. حاولتُ إرغامه؛ إلّا أنّها تَدَخَّلتْ، وليتها لم تفعل! إذ ما هي إلّا هنيهات حتى أحسست بالسيّارة تدور حول نفسها وتتقلّب، لتغمرني ظلمة لا أشعر فيها بشيء. أفقت حين أفقت في مستشفى العريش، تغطّيني الرضوض والكدمات والكمّادات والضمّادات.

رجل في أواخر الثلاثين، يُحَدِّث طبيبين حول إمكانيّة خروجي ما دمت قد أفقت. رحت أسأل عن رفيقيّ، فردَّ عليَّ الرجل بالتفاتة تَنُمُّ عن حزن وألم شديدين، ما أثار فيَّ غصّة دفينة.

كان حزني شديدًا على فتاتي، وإن بدا لي أنّني اعتدت كلّ هذا الموت الذي يتبعني كظلّي.

أخبرني أنّه أوان الذهاب إلى المطار، لنغادر إلى القاهرة. لم أكن متهيّئًا بعد؛ إذ كنت أرغب أوّلاً في زيارة بعض الأماكن في هذا الشتات المقدّس.

ـ إذن سأجهّز لك سيّارة ومرافقين لتذهب أنّى شئت.

ـ لكنّني أودّ الذهاب راجلاً؛ فهو درب من دروب من سبقوني.

ـ إنّهما مرافقاك ولتأخذهما أنّى شئت.

كانا فتى وفتاة في منتصف العشرين، أدركت من أوّل نظرة أنّهما مولهان أحدهما بالآخر. كانا يرغبان في الرحيل على متن سيّارة؛ إمّا راجلين، وفي هذا الشتات القاحل، فهذا ما لم يكونا يتوقّعانه. لكن ليس لهما إلّا أن ينصاعا لرغبة هذا الضيف الثقيل الموكل إليهما مرافقته. جهّزا دليلاً من البدو يعبر بنا كلّ هذا التيه. حملنا أمتعتنا على ظهورنا نغذّ سيرنا نحو دير يقبع بين جبلين؛ إنّه دير «الفردوس» أو «سانت كاترين». كانت رحلة فيها من العذاب والمتعة ما فيها. نقضي النهار في المشي، والليل في أحد مضارب الأعراب، نرتشف قهوتهم

المُرَّة ونناجي شجى ربابتهم. وكان أمتع ما يمتّعني رؤية عاشقين غائبين في ولههما.

هناك عند باب الدير استقبلنا شيخ طاعن في السنّ عليه مسوح الرهبان. أصرّ بعدما تأمّلني على أن نبيت ليلتنا ها هناك. بدا ذلك المكان فردوسًا بحقّ، مقارنة بما حوله؛ دير يضجّ حياةً وسط ذلك المدى الموات. في المساء أسكن الفتاة غرفة مستقلّة، والفتى والدليل غرفة أخرى، بينما أصرّ على أن أبيت معه في غرفته الخاصّة.

راح يسترسل في حديثه وكأنّه يودّ إطلاعي على مكنون ما. قال إنّه ضمن قلّة قليلة تبقّت من أبناء كنيسة تؤمن بكون المسيح مجرّد بشر رسول، ليس له من الألوهيّة شيء، وأنّ خلطًا في معاني الوحدانيّة هو ما أدّى إلى الوقوع في شرك الوثنيّة التعدّديّة. وكم كان الحديث مع ذلك الراهب ضربًا من المتعة والمعرفة! وضع يمناه على جبيني متمتمًا بلغة لم أفهمها؛ لكنّني أحسست بأنّي أحظى بقبوله لي معلّم ظلّ. أدركت حينها أنّ البشر مجبولون على الاختلاف، وهو ما يدعوهم لقبول بعضهم بعضًا أو إنكار سواهم.

كثيرًا ما أفكّر كيف لو أنّ المعارف تورث جينيًّا من جيل لآخر. ألم يكن ذلك أجدى من كلّ هذا الكسب المتجدّد الذي يحوزه كلّ إنسان على حدة؟! لكأنّنا حين يموت واحد من أولئك العارفين نخسر كلّ الذي حازه من علم ومعرفة وإدراك. ألم يكن بمقدور الإنسان، لو تراكمت معارفه كلّ تلك الدهور، بلوغ الكمال؟! إنّما أليس ذلك الكمال رديف النهاية التي لا مجال بعدها لأيّ حياة؟!

يا له من فزع جُبلنا عليه! كلّ شيء يحمل نقيضه. فها هو ذا الكمال الذي نتوق إليه لا يحمل في طيّاته سوى الفناء.

في الصباح توجهنا صوب «جبل الطور». تركت رفاقي ورحت أصعد وحدي. مدى شاسع من الخوف يمتدّ أمامي وأنا أبلغ ذروته. منذ كم لم يعد هذا الجبل مجرّد جبل؟! وكيف به وحده أستحقّ أن يكون المكان الذي تجلّى له الله؟! كنت أشعر بتزلزل قدميَّ وبرجفة ألقتني في الأرض أتقلّب في كلّ تلك التجلّيات. سبع ساعات على تلك الحال، حتى أحسستني أنهض من تلقاء نفسي، هابطًا تملؤني الرغبة في البقاء. يا لي هناك كيف امتزجت مع الأرض، مع السماء، مع المدى، السهوب، الجبال... بل وحتى مع الإله! كيف لجبل كهذا أن يظلّ ينبض بكلّ هذه القدسيّة؟! يا لها من رحلة، على قصرها! لكأنّي استعدت كلّ ما مرّ بي مستشفًّا ما سيكون.

لكم تمنّيت البقاء هناك أربعين يومًا، علّي أحظى برؤية! علّي أشهد تصدّعًا لهذا الجبل، أو لي! وإن هي إلّا سبع ساعات حتى كان جسدي قد علته صفرة رأيتها في أعينهم المندهشة. ما الذي جرى؟! وها أنا لا أجد شيئًا لإسكاتهما سوى اللوذ بالصمت ورشقهما بنظرات حادّة لأذًّا على إثرها بالصمت أيضًا.

صمتٌ متسائلٌ قلقٌ لن ينتهي إلّا وقد انتهينا من اجتياز ما بقي من تيه، لنشرف على القناة. فارَقنا الدليل هناك عائدًا إلى مضاربه. قناة السويس المحفورة بدماء الرجال وأشلائهم، لا لشيء إلّا لتختصر ما لم تختصره الطبيعة. كانت أضيق ممّا تصوّرتُها، وإن استطاع مخرها أعظم السفن. جزناها على عبّارة نحو الإسماعيليّة. كانت الإسماعيليّة، كأيّ مدينة جديدة، بلا نكهة، إلّا ربّما نكهة دماء أريقت في كلّ شبر منها في مقاومة الظلال.

نزلنا فندقًا. كنّا من الإنهاك حتى لم نعد نقوى على المواصلة إلى القاهرة. ما إن وضعت رأسي على السرير حتى استغرقت بالنوم، لأرى

شخصًا يلهج بخطاب طويل وسط حشد يصطخب تصفيقًا. في البداية اعتقدته ذلك الرجل في العريش؛ إنّما ها أنا أندغم في الحشد أكثر، لأرى ذلك الذي طالما رأيته في كلّ مكان، وإن ليس وجهًا لوجه. لقد كان قائد فكرة، أصاب في تحقيقها أم أخطأ؛ لكنّها لا تزال تدغدغ أفئدة الكثيرين، من المحيط إلى الخليج.

أمّا خطابه فكان من الحماسة والقوّة بحيث لم أتوقّف أنا أيضًا عن التصفيق والهتاف، حتى رأيت أنّ ذلك الحشد المهيب لم يكن سواي، وأنّ ذلك الخطاب الحماسي قد تحوّل إلى همس وحميميّة. وها هو بتلك اللهجة المحبّبة يطلب أن أذهب لزيارة ثلاثة أماكن في القاهرة، على أن أبدأ بالأزهر.

أفقت وبالكاد أيقظتهما، فلم نكن قد تجاوزنا الساعتين. يا لهما من مولهين! أظنّهما لا يدركان شيئًا سوى ما هما فيه! وهل ثمّة من شيء أسمى؟! ترى ما الداعي لأن يرافقني هذان العاشقان؟! لا بدّ أنّ هذا لكي لا يفارقني العشق ولا أنسى من أحببت! أو ربّما لكي تكون لي فسحة أخلو بها إلى نفسي دون شيء!

بلغنا القاهرة في العاشرة صباحًا، لنتوجّه من فورنا إلى الأزهر. قادنا شخص أسمر يرتدي جلبابًا أبيض إلى جانب فيه الكثير من الحُجَر والأروقة.

ها هو نفسه، ذلك الرجل في العريش، مرتديًا هذه المرّة «جلّابيّة» رماديّة وقلنسوة بيضاء، يستقبلنا ويشير للعاشقين بأنّ مهمّتهما تنتهي هنا، فغادرا يكادان يطيران من الفرح؛ لكأنّني عبء ثقيل أزاحاه عن كاهليهما.

قادني عبر تلك الأروقة إلى حجرة تتوسّطها طاولة خشبيّة يجلس إليها شخصان، أحدهما في نهاية الأربعين، يرتدي بذلة متأنّقة ويشبه

إلى حدّ كبير ذلك الزعيم في الحلم، بينما الآخر كهل في أواخر الستّين يرتدي مسوح مشائخ الأزهر. يبدو أنّ دخولنا لم يقطع ما كانا عليه من حديث، وها هو ذلك الكهل يشدّد على التزام المزيد من الحرص والحذر كي لا ينكشف الأمر ويجهض كلّ هذا الذي بُني. أردف صاحبه المتأنّق بأنّ الحرّيّة لا تتجزّأ، وأنّ المهادنة مع منتهكيها ذلّ محض. انضممنا إليهما ودخل أربعتنا حوارًا كان فيه من تجلّيات الحلم ما كان. نهض ذلك الشيخ مباركًا إيّاي، وكذلك فعل المتأنّق قبل أن يشير إلى صاحبي قائلاً لي: «هذا الذي التقاك في العريش وسهّل دربك لتصل إلى هنا هو من سيكمل معك، وهو يعرف تمامًا أين هي الوجهة القادمة».

جلت برفقة صاحبي وسط البلد حتى أوصلني إلى المتحف المصري. أذهلني ما فيه من آثار، راح يفصّلها لي كمرشد سياحي متمرّس. سِحْنا طويلاً بين أجنحة المتحف المختلفة، من «فرعونيّة» و«هكسوس» و«بطالمة يونان» و«رومان» و«أقباط» و«عرب» و«مسلمين» بتنويعاتهم أيضًا، من «راشدين» إلى «أمويين» ف «عبّاسيّين» و«طولونيّين» و«إخشيديّين» و«فاطميّين» و«أيوبيّين» و«مماليك» و«عثمانيّين»، وما تلاهم من «الفرنسيّين» ف «محمّد علي» و«خديويّيه»، و«الإنكليز»، إلى أن استعاد «المصريّون» حكم أنفسهم بثورة المقاومين على الظلال والظلاليّين... لا أظنّها إلّا صاخبة بالخوف وبالبأس، تسكنها الصرخات.

كنت أنصت إليه منشغلاً بالذي أتى بي إلى هنا؛ فهذه الجرعة التثقيفيّة، وإن كانت ذات فوائد جمّة، لا شأن لها بما أنا فيه. أدركني التعب، خصوصًا أنّي لا أزال عالقًا بإنهاك كلّ تلك الرحلة التي بلغت بي ها هنا.

توقّفت أمام مقام المومياوات الملكيّة أنشد بعض الراحة. أحسست

بشيء يجذبني لدخول ذلك المكان. ولكأنّ رفيقي أدرك ذلك، أو أنّ هذا ما كان ينتويه، فذهب ليأتي بتذكرتَيْ دخول. دخلنا بعد أن تعهّدنا بالخروج عاجلاً؛ لأنّ موعد إغلاق المتحف كان قد أزفّ، وكنّا بالفعل آخر زائرين. غرفة كبيرة معتمة سوى من ضوء فسفوري ضئيل يلائم ما بها من مومياوات، خشية عليها. ستّ مومياوات في حالة لا بأس بها داخل توابيت زجاجيّة، مع وجود بعض أعراض التهتّك. تأمّلتها واحدة واحدة، ما أشعرني بالخوف والألفة معًا. توقّفت أمام «رمسيس الثاني» مطوّلاً. شيء ما جذبني إليه فإذا به كأنّما تحرّك، حركة بسيطة، لو كان غيري ما لاحظها. دنوت أكثر فإذا بمحجريه يومضان بذلك الضوء البنفسجي المشعّ الذي غشيني في «المحجوبة». استغرقت فيهما فاستلباني لتغشاني ظلمة. كنت أعتقد أنّي وحدي الذي غشيتني، إنّما ها هو صاحبي يتخبّط في دهشة من الأمر؛ إذ لا يمكن أن تنطفئ أنوار هذا المكان تحت أيّ ظرف. أومض المحجران مرّة أخرى لتنجلي عنّا العتمة. كان صاحبي جسدًا مرتعشًا يجحظ لكأنّ صاعقة أصابته. تحرّك نحوي يحاول الاحتماء بي من كلّ ذلك الروع، لا يدري أنّي كنت لحظتها أقرب إلى ظلّ محض.

استكان في مكانه استكانة من ينتظر واقعة مهولة. كان من الشجاعة بحيث لم يولِّ، وإن بدا غير قادر على استيعاب شيء.

أصختُ كمسحور لصوت ينبعث من تلك المومياء، لكأنّما يحمل روح أحد قدامى المقاومين، يسألني ويسألني، فأجيب وأجيب، لأصبح حين انتهينا كأنّي بين الحياة والموت.

خبا ضوء المحجرين لتضاء الحجرة مجدّدًا، ولتعود إليّ الحياة، وإلى صاحبي ما زاغ من حواسّه. خرجت مستعصمًا بما جرى، لكأنّني ولدت من جديد، وخرج صاحبي مرتبك الخطى، لأكون أنا من يرافقه.

بعيد المغيب بلغنا مقرّ إقامتنا. ورغم برنامجنا الحافل فقد غاب صاحبي في نومه.

تركته أغسل روحي بمرأى النيل، متّخذًا موضعًا على ضفّته أناجيه:

أيّها النيل! كم مرّ عليك من أيّام ومن أحداث، وأنت على حالك لا تتبدّل ولا تتغيّر، تبذل وتعطي ملقيًا بما تبقّى منك في البحر؟!...

في الصباح كنتُ وصاحبي في دار المخطوطات، أبحث عمّا قد يزيد من معرفتي. وها هو قيِّمُها، ومن دون أيّة مقدّمات، يناولني ثلاث نسخ مخطوطة في علم الجفر، إحداها لقطب يمني معروف، هو «الإمام أحمد بن علوان»، والأخرى لداع يمني إسماعيلي، هو «الملك محمّد بن سبأ الزريعي»، والثالثة للشيخ الجليل «محمّد الشيرازي». كانت مضامينها مطلسمة كما هو حال كلّ كتب الجفر، لكأنّما حتى أولئك الكُتّاب لا يدركون عنها شيئًا، أو هكذا يتعمّدون.

استغرق منّي نسخ تلك الكتب الشهرين، لنرحل بعدها شرقًا إلى البحر الأحمر، ميمّمين مضارب الديار المقدّسة في جزيرة العرب.

التنصيب العاشر

الأرض الحرام

أقلّتنا عبَّارة تهريب مكتظّة لكأنّه يوم حشر. شُحنّا كما تُشحن البهائم. وكلّ شيء إلّا تلك الروائح الخانقة المختلطة. بحر قائظ أوشكنا معه على الهلاك. ويا لدواره كيف جعل معدتي تتصاعد لكأنّها بلغت حنجرتي، فأتقيّأها! يوم وآخر في خضمّ ذلك العذاب. حتى إذا ما شارفنا على الموت هبّ مجري الرياح ومزجي السحاب، لترشح سماؤه مطرًا باعثًا على الانتعاش. ورويدًا رويدًا ها نحن نعود بشرًا كما كنّا. لكم أحببت المطر حينها! وكم أدركت أنّنا بدونه نفقد الكثير! ألا نرى كم هي وجوه الناس قاحلة في المناطق القاحلة، لكأنّ هناك ما يسلبها ماءها؟!

لكن ها هي ذي الأمطار لا تتوقّف، والريح تزمجر بضراوة كوحش أسطوري، لتنقلب كلّ تلك الفرحة فزعًا ومعاناة. العبَّارة تتأرجح بالموجات المربدة لتقذفنا بعضنا فوق بعض. وها نحن ثقل يفوق بكثير قدرة هذه العبَّارة المهترئة على الاحتمال. بدأت تميل بنا نحو الأعماق السحيقة، وطغى الهرج والمرج على كلّ شيء، وفقد الطاقم كلّ سيطرة.

قاربا النجاة الصغيران أيضًا تحطّما جرّاء تدافع الناس. تمالكت نفسي أبحث عن صاحبي. رأيته يتحرّك نحوي متمايلاً، في يده ما يبدو سترة نجاة. كلٌّ كان منشغلاً بنفسه، إلّاه؛ كان قد عثر بشكل ما على تلك السترة. هتف بي أن أرتديها على وجه السرعة. حاولت إقناعه بأن يرتديها هو؛ غير أنّه رشقني بنظرة ناريّة أرغمتني على الاستكانة إذ يلبسنيها.

صرخات الموت تدوّي في أعماقي. مئات الصرخات تهوي في الماء لتطفو جثثًا هامدة. يحملني الماء بين أجنحته بعيدًا، حتى لا أكاد أسمع من تلك الصرخات شيئًا. وها أنا أستسلم لذلك الخدر الطاغي الذي يبعثه اليأس، ثم لا أعلم بعدها شيئًا سوى أنّي أفقت على صوت صاحبي أن قد وصلنا.

جنحت بنا العبّارة إلى شاطئ مقفر قرب قرية صيّادين. كلّ شيء على ما يرام، لولا ذلك الكابوس اللعين. ها هم الركّاب، الذين كنت قد أغرقتهم، كلٌّ يمضي في حال سبيله.

في القرية، استقبلنا وجه أسمر يطفق بالبِشْر. لم يمض أكثر من ساعة حتى كان صاحبي قد ودّعني لاحقًا بالعبّارة قبل أن تعود أدراجها. يدهشني رحيله بتلك السرعة، بل شعرت كأنّ ذلك الوجه الذي استقبلنا ينتظرني منذ حلم بعيد.

حدّثني ذلك الصيّاد عن عشقه للبحر وقضائه جُلَّ حياته فيه. عن ذلك الكرم الآسر والجبروت الطاغي. كلّ موجة لها معه حكاية، عن ذلك الصمت الصاخب الوديع المتمرّد المثابر الأزلي المتفصّد قوّة من أعماق الضعف، لذا نراه جبّارًا على من يستهين به. كان، كمعشوقه، وجهًا ضامرًا يتدفّق قوّة وثباتًا.

أقلّني في رحلة طويلة من الشمال إلى الجنوب. أنظر أمامي متأمّلاً ذلك المدى من الرمل الأصفر ولسان حالي يقول: من ذرّات هذا المدى الشاسع، من الرمل، انبلج كلّ ذلك النور ليغمر العالم.

جزنا مفازات ومفازات حتى المدينة المنوّرة، عاصمة نبي المقاومة وإمام المقاومين، مدينة أنصار ونخيل ومهاجرين. جُبنا أرجاءها نستجلي كلّ شبر. كأنّي كنت أستنهض كلّ ذاك. وقفنا طويلاً أمام مقبرة البقيع نرثي مقاومين نصروا وآخرين هاجروا، ليحملوا على كواهلهم عبء المقاومة في أولى مراحلها على هذه الأرض المسمّاة «جزيرة العرب». أدركت سبب تسمية المدينة «المنوّرة»؛ إنّها تشهق بالنور؛ واحة وسط صحراء قاحلة. أعرف وجهتي ها هنا؛ لكنّي أرجأتها لتكون آخر المحطّات.

زرت كلّ معالم المدينة العبقة بتاريخ من المقاومة، والتي تنهش الظلال روحها وتطمس هوّيّتها. ها أنا أقف أخيرًا أمام المسجد النبويّ. كلّ ملامحه القديمة انطمست؛ ليظهر صرحًا عملاقًا بذخًا. لا شيء ممّا كان عليه إلّا ذلك القبر المقدّس.

أشبه بنسمة رقراقة باردة في يوم قائظ تلمس شغاف نفسك مداعبة فتنسيك كلّ ذلك القيظ، كان ذلك الصيّاد المسكون بروح البحر. ملمّ بتفاصيل المدينة؛ فقد تلقّى جُلَّ علومه ومعارفه فيها، إضافة إلى ما لقّنه البحر من أسرار. كالبحر كان بسيطًا وغامضًا مثله. يومًا بعد يوم نزداد تقاربًا! آه كم أخشى عليه من ذلك! لكأنّما أنا لعنة تصيبهم، ولكأنّهم بتأدية مهمّتهم يؤدّون آخر دور لهم في الحياة، مطمئنين إلى أخرى أكثر حياة.

وقفنا في الصرح الخارجي للجامع ننظر بعضنا بعضًا مدركَين أنّها آخر النظرات. اقترب منّا رجل في الأربعين يفيض وجهه نورًا وكأنّه من

نسل أولئك المقاومين. إنّه أحد سدنة الجامع وأحد المشرفين على القبر النبويّ كابرًا عن كابر. تسلّمني من الصيّاد الذي غادر بالخفّة والهدوء نفسيهما اللذين يحتويانه.

وها هو صاحبي الجديد يطوف بي أرجاء الجامع مستحضرًا كثيرًا من تاريخه وما مرّ عليه. صلّينا المغرب والعشاء، ليأخذني بعدها إلى المقام النبويّ حيث سيّد الخلق مسجّى. هناك انكمش جسدي رهبة وشوقًا. جثوت أناجيه. استبدّ بي الطرب الهاطل بكلّ الوجد، زائغًا لا أرى سواه، كأنّه النور قد أشرق فيَّ حضورًا لا ينضب. كلّ شيء يحوطه النور. مسكونًا بفرح طفولي خرجت، عاشقًا في حضرة معشوقه.

في الصباح توجّهنا تلقاء مكّة، مسقط رأس شمس المقاومة وعلمها، والبيت العتيق العصي على كلّ ظلال، وإن أحاطت به متربّصة بكلّ مقاوم. السادن يختلف عن كثير سواه. هو غير راض عن كثير ممّا يحكم دنياهم ودينهم. فهل رفضهم إلباس الدين ما يعتقدونه خرافات إلّا إلباسه كلّ هذا القدر من الجمود؟! وهل «علماء» و«مشايخ» و«فقهاء» هذا المذهب أو ذاك إلّا أداة في يد كلّ غاشم؟! أظنّه على تمام اليقين من أنّ ما عدّه يقينًا أصبح نهب الشبهات.

رحلة أخرى لم تكن عاديّة؛ إذ إنّ هاجسًا طاف بي أن أنتهج درب صاحب القبر تمامًا، وإنْ في وجهة عكسيّة، متّخذًا مسار هجرته مسارًا. رحلة من العناء والمشقّة حسبتها لا تنتهي، لكأنّما أتجرّع بعض ما تجرّعه نبيّ المقاومة وصاحبه.

في «غار حِراء» شعرت كأنَّ من يتعقّبنا. لعلّها ظلال تجوس المدى بحثًا، لتمنعنا من إتمام رحلتنا. لا بدّ ـ إذن ـ أن نفعل كما فعل: نحتمي بالغار.

بلغنا مكّة محرمين للحجّ، وإن في غير أوانه المعتاد. طفنا، هرولنا، سعينا، أفضنا، ووقفنا بعرفات وقوفي على الطور، يغمرني ذلك الإحساس بالامتزاج بالمطلق.

حال طواف الوداع حول الكعبة تسلّمني أحد السدنة. هذا يشبه ذاك، كأنّه لم يعد تناسخ أرواح فحسب، بل وأجساد. قادني، يحمل مفتاحًا حديديًّا كبيرًا، إلى قلب الكعبة، يمشي بتؤدة وخشوع يبدوان دائمين، ولحيته البلقاء منسدلة إلى صدره. صموت كما يجدر بمثله أن يكون. عيناه خاشعتان تومضان فطنة. فتح الباب الخشبي لنلج إلى ركن يغصّ بغموض لا متناه.

الظلام يحفّ بكلّ شيء، لكأنّه خرج إلى العالم من هذا المكان. وأيّ أنوار نحتاجها ونحن من نحن، والمكان ما المكان؟!

كان أن رأيت قبسًا ينشقّ من وهج الظلام ويطويني إشراقًا آخر. وإن هي إلّا غيبوبة أخرى أفقنا منها نسدر صوب «غار ثور». أربعين يومًا بلياليها مكثت هناك! في الليلة الأخيرة غبت في هذيان يطلب ممّن تفوق قدرته القدرة أن يمنحنيها. ومن دون أن أشعر رحت ألهج بدعاء ختم القرآن، كأنّه ختام كلّ ختام.

لم يكن إلّا الصمت يسطّر آخر حرف من حلمي. كلّ شيء يتلاشى، فلا أكاد أحسّ إلّا أنّي أتشرّد دروبًا وأتمزّق أسمالاً وسغبًا مع كلّ أولئك المستضعفين الذين تطردهم الظلال المسيطرة على بلد الله، ميمّمًا وجه «صنعاء».

التنصيب الحادي عشر

لا بدّ منها! هكذا قالوا

لم أعد حين عدت إلى أهلي؛ بل توجّهت صوب الجامع الكبير والساحة المحيطة به، يقودني حدسي.

غيّرت من هيئتي كي لا يتعرّف عليَّ أحد، مع أنّ تلك الرحلة الطويلة كانت قد غيّرت منّي الكثير. نزلت نزلاً شعبيًّا، يقطنه العمّال والمعوزون وأغلبهم القادمون من الأرياف، على مقربة من الباب الجنوبي للمدينة القديمة. من هؤلاء اكتشفت الكثير والكثير. وبرغم أنّ بعض الحوارات كان ينحو مناحي لا أرغب فيها، إلّا أنّ أغلبها لم يخلُ من فوائد. هو أمر طبيعي مع أهل طيبة قد تصل حدّ السذاجة. يقبلون على الحديث مع من لا يعرفون بصدور رحبة. كلّ من ينزل نزلاً كهذا يعدّونه منهم. يزجون أوقاتهم في أحاديث فيها من المتعة والتلقائيّة ما لا تحظى به عليّة القوم. مزيج فيه كلّ شيء. شدّني كثيرًا شخص خمسيني يعمل منجّد كتب يركن عادة إلى السرير المجاور لسريري (لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ النزل كان عبارة عن حجرة واسعة مزدحمة بأسِرَّة مرصوصة دون فواصل). ها أنا أتأقلم مع الوضع، متّخذًا برنامجًا يوميًّا،

أبدأه بالخروج مع تباشير الصباح أتطقس وأستزيد من معرفة الأماكن هناك، ولا تكاد تنقضي الظهيرة إلّا وقد تناولت غدائي واشتريت حاجتي من القات، لأعود أدراجي مزجيًا الكثير من الوقت مع ذلك الخمسيني، أستطلع منه تفاصيل جديدة عن عمليّات نهب المخطوطات والتلاعب بها وتهريبها. الغريب أنّه لم يكن مستغربًا لاندفاعي الشديد إلى أحاديثه وحرصي على عدم تضييع أيّ شاردة فيها، بل راح يدلّني على عدد من الأماكن المشبوهة بهذه التجارة ويعرّفني على بعض تجّار وسماسرة المخطوطات وبعض كبار مهرّبيها. كما أطلعني على جزء من سرّ مهنته في تقييم معايير المخطوطات ومعرفة النفيس. وعلى الرّغم ممّا كان عليه من فقر، كان غنيًّا بما لديه. أدركت أنّه من أولئك العارفين الذين بلغوا ما يجعلهم يهجرون كلّ الملذّات، مكتفين بشظف العيش، ليس عن عجز بل عن إرادة وقناعة. شعرت أنّه آخر أولئك الذين ستسكنني ظلالهم.

بقيت أتردّد إلى تلك الساحة وكلّ مكان له علاقة بما أنا في صدده، لتقودني كلّ استطلاعاتي وتحرّيّاتي وثرثراتي هنا وهناك، بالإضافة إلى ما عرفته من كتيبَي السمسار والنجف ومن فضاءات ذلك المنجّد التي كانت تُلمح دائمًا إلى منزل مهجور انطلقت منه عمليّة السطو على المكتبة الغربيّة؛ أقول ليقودني كلّ ذاك إلى ذلك المنزل.

استأجرته. كان لا بدّ قبلها من أن أقطع صلتي بذلك النزل، متّخذًا هيئة باحث أكاديمي موفد للاطّلاع على بعض مخطوطات الدار والجامع الكبير. طبعًا لم يكن لديّ ما يثبت ذلك، إلّا أنّ ما كنت أرشّه من مال كفل إقناع كلّ مشكّك وفتح ما استغلق من أبواب.

اقتنيت بعض أثاث لأبدأ سكناي فيه فلا أغادره إلّا لبضع سويعات أقضيها في دار المخطوطات والجامع الكبير. ما كنت أخشاه هو أن أصادف معارف أو أقارب لا تنطلي عليهم تغيّرات شكلي الذي يبدو أنّ

شيئًا من ملامحه القديمة قد عاد إلى ما كان عليه؛ لا سيّما بعد أن قمت بتشذيب لحيتي وشاربي وهندامي؛ وهو ما سيضطرني للعودة إلى أسرتي قبل أن أنال بغيتي.

إنّ للمنازل القديمة مذاقًا ونكهة لا نجدهما في غيرها. إنّه عبق السنين والأجيال. هو الإحساس بانتماءات ناجمة عن حيوات كثيرة يمكن اختصارها بكلمة واحدة: الأصالة.

اتّخذت من الغرفة المطلّة على الجامع ومكتبته مركز مراقبة. أيّامًا وأيّامًا استغرقت في ذلك دونما شيء. كما في منعزل السليب، لا أنام سوى ثلاث أو أربع ساعات، وإن كانت هنا مشتّتة غير منتظمة، ليتلبّسني من التعب ما تلبّس وينشب بي من الإنهاك ما نشب. تملّكني الملل واستبدّ بي اليأس. ذات ليل قرّرت أن أتوقّف عن كلّ شيء نازعًا إلى الراحة. خلدت لنوم لا أريد الفواق منه، وإذ بالجدران كأنّها تلفحني محاولة البوح بأمر ما حدث بين ظهرانيها دون أن آبه له. ولكأنّي بعد برهات أشعر بشيء ما يهزّني، مرّة ومرّتين، حتى أخرجني من كلّ ما تشبّث بي من نوم.

أشعلت الضوء أبحث عن هذا الذي أيقظني. لم أصدّق! كان طيفًا يحوم لكأنّه ظلّي. فركت عينيَّ. أشار بأن أتبعه. حاولت الامتناع، المقاومة، الرفض؛ غير أنّ جسدي هام من تلقائه وراءهُ. سلّم ينحدر نحو بهو مظلم. باب خارجي. فناء صغير. زقاق مظلم يلفّه الضباب. أزقّة أكثر ظلمة وخوفًا. جسد يتنكّر لي، لكأنّه لسواي، وها هو يعدو قبلي فلا أكاد أجاريه. أتراه ظلّي هذا الذي يهيم أمامي؟! أم تراني ظلّه أهيم خلفه؟! ها هو يتوقّف أمام دار رباعيّة الطوابق توشك على التداعي. اخترقها، متسرّبًا من بين حجارتها، لأتسرّب أنا أيضًا كما لو أنّني مجرّد ظلّ. طابقًا وآخر وآخر، لأقف حيث توقّف.

حضور ثقيل يجثم؛ لكأنّها الظلال مستنفرة. ولج غرفة ما. ولجتها. ظلال في ركن ما تسبح كهوام. اقتربَ فاقتربتُ، وإذا بها تحوم على ما بدا خزنة قديمة. أحسسته يلتفت مندفعًا نحوي رافعًا إيّاي في الهواء. دنوت من الخزنة فرأيت تلك الظلال تتطاير فزعًا هنا وهناك. ظلمة محدقة تطوي تلك الخزنة وكأنّها تختبئ من كلّ شيء، حتى من نفسها. جست بيدي ظلمتها دون أن أعثر على شيء. أعدت الأمر كرّة تلو كرّة دون فائدة. إحساس متزايد يهتف بي أنّ ذلك الخواء يخفي ما يخفيه. كان لا بدّ أن ألجأ إلى طريقة غير اللمس؛ وإلّا فما كلّ ذلك العناء؟! أغمضتني مستشرقًا بصيرتي، وهجست بتعويذة الكشف التي تلقّنتها من شيختي. أومضت الخزنة بذلك الضوء البنفسجي المشعّ. فتحت عينيَّ أتأمّله حتى تلاشى. جست بيدي، لأشعر هذه المرّة بشيء ما محاط بما كأنّه كيس قماشي. أخرجته بكلتا يديَّ لأتهاوى على ما يبدو في إعصار ظلمة. حين أفقت ألفيتني في غرفتي تلك كأنّ شيئًا لم يكن، أو لكأنّ كلّ ذلك مجرّد حلم. لكن ها هما عيناي تخرجان من محجريهما وأنا أرى كتابًا مخطوطًا يرقد إلى جواري. نعم إنّه هو بجلده وحبره.

* * *

غريبة هي أسماء بعض أحياء وحواري هذه المدينة العتيقة، من «بحر رجرج» إلى «الأبهر» إلى «بروم» إلى «الطواشي» إلى «القذالي» إلى «أزدمر» وغيرها وغيرها. لا أظنّها إلّا تنبئ بما حاق بها من آلام وأحزان ومخاوف. لست أدري مَن ولا كيف أطلق عليها مثل تلك الأسماء. إن أحسبها إلّا الظلال أطلقتها كي تفرض سيطرتها على مدينة تلهج بكبرياء التاريخ.

ولأنّها الظلال فهي تسعى لملء كلّ خواء، لا سيّما خواء الفكر،

ولطرد كلّ ما سواها. ومن يودّ التيقّن فله أن يتأمّل كلّ تطرّف، أيًّا كان ما يحمله هذا التطرّف من فكر؛ ذلك أنّه (التطرّف) يظنّ أنّه وحده يملك ناصية الحقيقة، وبالتالي يرفض كلّ ما يخالفه. ألا يتأمّل المتأمّل في جماعات عبدة الشياطين والسحر الأسود والجماعات الدينيّة المتعصّبة؟! إنّهم بشر فقدوا القدرة أو الإرادة على مواجهة مخاوفهم، فخضعوا لهيمنتها وتخلّوا عن كلّ شيء حتى ذواتهم؛ ذلك أنّهم، في ما يحسبونه غمرة إيمانهم، لا يؤمنون بشيء.

وها أنا أكاد أجزم أنّ من قتل السمسار وقريبه هي تلك العصابة التي سطت على المكتبة، ولم يحدث القتل إلّا بعد تقاسم المنهوبات. لعلّ رئيسها حاول الحصول على «الجفر» بأيّ طريقة. بل لا أظنّ العمليّة برمّتها إلّا من أجل ذلك الكتاب. قتل الرجل، ودار السمسار في الفلك نفسه محاولاً الحفاظ على الكتاب؛ لسبب لا أظنّه الطمع، وإن كان هذا ما قاله بادئ الأمر، ولا الخوف، رغم ما يمثّله الكتاب من خطورة؛ بل لأنّه يؤدّي مهمّة يدركها، يدركها تمامًا.

ولعلّ العصابة بعدما اختطفته وأذاقته من صنوف العذاب، لم تكن تريد إلّا أن يرشدها إلى الكتاب. ويا لهم من مغفّلين إذ يجبرون مقاومًا على إفشاء ما هو مكلّف به! كما أنّ السمسار (أقصد المقاوم) أدرك أنّ فرصة نجاته الوحيدة هي الحفاظ على ما لديه، فلا تتجرّأ العصابة على قتله؛ خشية أن يضيع مبتغاها. الفكرة صائبة، لولا جسده الهزيل الذي لم يحتمل. وها هو يموت، ليسقط من يدهم أمل العثور على الكتاب، وإن فكّروا لحظتها بإرجاء البحث أظنّها: لأجل آخر. إنّما كانت يد الموت أسرع، فطالتهم دفعة واحدة، وكأنّ تلك اللعنة أبت إلّا أن تعمّ الجميع.

المخطوط يناهز المائة صفحة. بضع وثمانون منها في «الجفر»،

وهي تلك الجداول المبهمة. أمّا البضع الآخر فملخّص كتاب فلكي قديم يتضمّن ـ بالإضافة إلى بضعة شروح مقتضبة عن مبادئ علم الفلك ـ دوائر وخرائط جليًّا غموضها هي الأخرى.

ما أثار انتباهي هو آخر تلك الخرائط، والتي كانت رسمًا توضيحيًّا لمكان كأنّني أعرفه. أربع كتل صمّاء متفرّقة متباعدة ومتفاوتة التضاريس والأحجام، تخترقها خطوط طوليّة متقطّعة تشكّل ما يشبه دائرة غير مكتملة حول كتلة ضخمة تغصّ بالعتمة.

يبدو أنّ القاسم المشترك بين كلّ تلك الدوائر والخرائط هو أنّها جميعًا تشير إلى فراغ كثيف معتم. أعرف أنّ إدراك سرّ «الجفر» لن يتمّ إلّا لمن رأى ذاته تحوّلت «جفرًا»، وذلك بعد أن يكون قد اكتنه تلك النقطة وذلك الفراغ.

يقول معلّمي دام ظلّه: «في ضوء الجفر يتلاشى كلّ ظلّ».

«إنّ كلّ مقاوم، ما هو إلّا ظلّ للجفر».

وها أنا أظنّني قد حزت الكثير والكثير. إنّما هل أنا من كلّ ذلك الذي حزته؟! هذا ما لست أدريه؛ لذا سألملم أنفاسي المبعثرة وأغادر هذا المكان وشوارعه القديمة، إلى شوارع حديثة تتداخل فيها الأنفاس حدّ التلاشي.

٣ ـ كتاب الجسد

أ) الـــــرأس

محور كلّ محور

الطـــور الأوّل

الجـــبـــيـــن

أتيت، أوّل ما أتيت إلى صنعاء، لدراسة الآثار، ومن قرية تتوسّط جبلاً سامقًا. صنعاء، قديمتها بالأخصّ، استلبتني وأحالتني أحد أولئك المجذوبين الغارقين في هواها. أظنّه حال كلّ من تقوده إليها الأقدار، وإن فارقها.

استأجرت غرفة صغيرة في طابق ثان من دار رباعيّة تطلّ على بستان واسع، كان صديق شابّ من أهل قريتي يقطنها قبلي. كنت قد أنهيت دراسة الثانويّة في قريتي، وخدمت عامًا مدرّسًا في مدرستها الابتدائيّة.

كان ذلك العام استثنائيًّا، بل نقطة تحوّل في حياتي. كنت قد تعرّفت فيه على كهل من أقاربي عاد لتوّه من غربة طويلة أخذت أغلب سني شبابه. كان عاشقًا للآثار والتاريخ وللأدب وفنونه والفلسفة واتّجاهاتها والدين وتجلّياته. ولكم عثرت بين ثنايا كتبه على محاولات شعريّة بل هي بالنسبة لي قصائد مدبّجة. لم يفصح لأحد عن أسباب عودته وحيدًا، رغم ما يبدو عليه من رغد عيش؛ غير أنّه أسرَّ لي ذات يوم أنّه ملّ كلّ ما كان من حياته، وعاد كي يموت في مسقط رأسه

ويدفن بين أسلافه. لم يكن البتّة يحبّذ أيّ حديث عن ماضيه، مؤثرًا الخوض في مواضيع تخصّ الآثار وأبعادها التاريخيّة والآداب وفنونها، ونادرًا ما يخوض في المنطق والفلسفة. منه تعلّقتُ بالآثار وأحببتُ التاريخ وتعمّقتُ في اللغة وعشقتُ الشعر وبشكل غير مباشر شغفتُ بالفلسفة، وحذرتُ بل عزفتُ عن كلّ ما هو غيبي. كان يتحدّث عن الآثار أو يسرد طورًا تاريخيًّا منها وكأنّه طور منه، ويتحسّر على ما لدينا من آثار؛ فأغلبها إمّا مسروق وإمّا نالت منه أيادي العبث وإمّا ما يزال مطمورًا تحت التراب. ولكم كان يتأسّى من كلّ ما يحيق بحياتنا من جهل وجمود!

كنت أقضي جلّ وقتي معه، لا أكاد أفارقه إلّا حال يأوي إلى النوم. اعترضتْ أمّي، خشية عليَّ من هذا الذي يصفه فقيه القرية بـ «الزنديق الكافر»؛ غير أنّ أبي زجرها بشدّة؛ فالرجل في الأخير ابن عمّه وصديق طفولته. كما أنّه لم يكن في يوم من الأيّام يطمئنّ لذلك الفقيه ولا لآرائه، وكثيرًا ما كان ينعته بالأفّاق الدعي المتقوّل، وأنّ ما يردّده من آيات وأحكام ومواعظ إنّما يردّدها كببغاء، لا يفقه منها شيئًا. وكم كان يتصدّع رأسه كلّما عاد من مولد أو مأتم أحياه ذلك الفقيه!

أهدى إليّ الكثير من الكتب، وهداني إلى الكثير من الأفكار. وحين مات، أو انتحر أو قتل، كما قيل، وكنت حينها في عامي الجامعي الثاني، أوصى لي بكلّ ما تحتويه مكتبته العامرة. وها أنا كلّما عدت إلى قريتي أتّجه أوّل ما أتّجه إلى مدافنها لأزجيه الدموع وشتلة ورد وفاتحة. كان قد وُجِدَ ممزّقًا شرَّ مُمَزّق أسفل الهاوية السحيقة قرب منزله. لست أدري! لكن ظنّي أنّ موته لم يكن طبيعيًّا، وأنّ يدًا دبّرت الأمر بإتقان ليظهر وكأنّه انتحار.

ـ انتحر! لا أظنّ!

ـ لكن هذا هو الشائع يا ولدي! ثم إنّه ـ كما يُقال ـ زنديق. وهل غريب على مثله أن ينتحر؟!

ـ من هو الزنديق يا أمّاه عافاك الله؟! حتى أنت تصدّقين افتراءات أولئك الخرَّاصِين! إن أحسب إلّا أنّهم قتلوه وألقوا به في تلك الوهاد؛ لم يحتملوه، ولن يحتملوا كلّ من له رؤية وفكر. إنّه الخوف على مصالحهم، هو الجامع والمفرّق عندهم، ولا شيء آخر.

ـ لم يُر في المسجد إلّا في النادر.

ـ وإن كان؟! هل يعني ذلك أنّه لا يصلّي؟! وهل يعني ذلك أنّه كافر؟! لربّما كان بيته مسجده. ثم إنّ الصلاة خلف ذلك الفقيه أمر... يعلمه الله! فما أراه أنّه ومن على شاكلته زمرة أفّاقين يقتاتون من أكباد الناس.

ـ الجمْ فمك أيّها الأحمق! فلو سمعك أحد غيري فلن يمرّ الأمر على ما يَسُرّ. سأسكت فقط لأنّك فلذة كبدي ولا أريد أن أخسرك. إنّهم هنا يرون فيك تلميذه وصاحبه، ولا أرى إلّا أن ترحل أو تسكت تخرّصاتك إلى الأبد. ألم تسمع أنّ قلّة هم من صلّوا عليه وحضروا جنازته، متحَدّين بذلك فتوى الفقيه؟!

ـ فتوى؟!

ـ لا أريد أن أسمع كلمة أخرى! وإلّا...

ـ سأرحل يا أمّاه! وإن عدت فلرؤيتك وأبي، ولزيارة قبر من له عليّ ما لا يقلّ عن فضلكما.

ـ المهمّ أن ترحل، أستودعك الله! تأكّد أنّ خشيتي من عودتك تفوق اشتياقي. واحمل ما تركه لك، كي لا يتذكّرك الناس كلّما دخلوا البيت ورأوا تلك الكتب. لوددت إحراقها لولا خشيتي من أبيك.

يلومونني على الاحتفاظ بها. يقولون إنّها مدنّسة يجب أن تحرق. احملها وارحل! ومتى سنحت الظروف سنلتقي.

* * *

كانت رغبة أبي أن ألتحق بإحدى الكلّيّات العسكريّة. اقتنعت بتلك الرغبة حتى صارت رغبتي؛ لولا ذلك الكهل. ونزولاً عند رغبة أبي وإرضاءً له قبلت خوض امتحانات الانتساب للكلّيّة الحربيّة؛ غير أنّي كنت معتزمًا عدم خوضها كما ينبغي، ليتمّ رفضي ويكون ذلك مبرّرًا لدراسة الآثار، وهو الأمر الذي سيقحمني في أتون هذا كلّه.

أستميحكم عذرًا لعدم ذكر أيّ أسماء هنا إلّا مرمّزة؛ محاولة لاقتفاء الأسلوب ذاته لمعلّم سيصبح لاحقًا معلّمي. أقول معلّمي! يا لي من متبجّح! فما بيننا بون شاسع لا يمكن رأبه، لكأنّي في جهة وهو في أخرى. لقد سمّى نفسه يومًا (ل)، وسأسمّي نفسي (ن). واغفروا لي ذلك الفارق الكبير بين أسلوبينا في السرد؛ فما بلغه من إدراك وما اكتسبه من مهارات ومعارف وقدرات يفوق ما لديَّ بكثير، ومهما فعلت فلن أتمكّن من بلوغ ولو بعض منها. ولا أخفي أنّ اطّلاعي على ما كان عليه من حياة حافلة قد أثّر فيَّ حدّ التغيير.

الطور الثاني

العرنين

رتّبتُ أمتعتي القليلة في دولاب صغير تركه ابن قريتي ضمن ما تركه في تلك الغرفة. كتبي أيضًا وضعتها على رفّي النافذتين. كان يبدو عليه الوهن والإنهاك الشديد وهو يدخلني الغرفة بحفاوة وترحاب لا يقلّان شدّة عن وهنه وإنهاكه. وها هو يسلّم إليّ مفتاحها، وكأنّه ينفض عن كاهله عبئًا ثقيلاً، مغادرًا كأنّ الشياطين تطارده.

أمّا ما كان يفعله في هذه المدينة فهذا ما لم أدركه. هل كان يدرس؟! يعمل؟! هل كان أيّ شيء؟! لا شيء؟!... لست أدري! فهو من أولئك الذين يمرّون بنا ثم كأنّهم لم يمرّوا؛ ننساهم ساعة يتركوننا أو نتركهم؛ وإن سأدرك بضع شذرات عنه هنا وهناك.

كان صاحب الدار ـ البالغ منتصف الستّين، وقبل أن يُصاب بما قيل إنّه مسّ ـ تاجرًا كبيرًا فَقَدَ كلّ ما يملك، ليترك هذه الدار لزوجته وفتياته الثلاث، المتفاوتة أعمارهنّ ما بين السابعة عشر والثالثة والعشرين؛ وكأنَّ داره تلك كانت الناجي الوحيد من كارثة التهمتْ كلّ أملاكه؛ ربّما لتكون المسكن والملاذ الأخير لعائلته!

اضطرّتْ الأم لتأجير غرفتين؛ هذه التي استأجرتها وأخرى في العلّيّة تقطنها فتاة جامعيّة. كما اضطرّتْ للعمل خادمة لدى من كانت يومًا صديقتها. ولعلّ ذلك كلّه لم يكن كافيًا؛ فقد كان الأب اللائذ بتشرّده، يأتي بين فينة وأخرى ليسلبها أكثر ما تحصل عليه. والويل كلّ الويل لها إن أحسّ بأيّ تلكّؤ أو امتعاض؛ سيقيم الأرض ولا يقعدها.

وها هي تصاب بجلطة دماغيّة شلّت نصفها، لتضطرّ ابنتها الكبرى للخروج بحثًا عن عمل. وإذ لم يكن ثمّة من عمل يفي باحتياجاتهنّ، لم تجد أسهل ولا أجدى ولا أربح من بيع جسدها اليافع. وإن هي إلّا بضعة أشهر حتى انضمّت إليها الوسطى، فيما حاولت صغراهنّ التشبّث بدراستها والنأي بنفسها عن هذا الدرب؛ لكنّها استسلمت في النهاية.

ازداد الأب جشعًا بعدما عرف ما آلت إليه فتياته. لم يعد يكتفي بما كان يأخذه من الأمّ، فكثّف زياراته وزاد مقدار ما يأخذه.

ها هي الأيّام تمضي بنا في هذا السكن الجديد، دافعة بنا ـ كقاطني منزل واحد ـ إلى التقارب.

لطالما كنت مسكونًا برهاب الأنثى، والغريبات على وجه الخصوص. كانت نظرتي إليهنّ، ومن يرقنني خصوصًا، نظرة مثاليّة؛ أنزههنّ حدًّا أحسب معه أنّهنّ لا يفعلن ما يفعله كلّ إنسان، كالتبوّل والتبرّز. أتعامل معهنّ بشغف حذر وكأنّما هنّ مخلوقات مختلفة أو كائنات من عالم آخر. كُنَّ في نظري كالملائكة. ويا لي كم سأشعر بالأسى حين أتبيّن خطئي! ومع هذا سيظلّ يسكنني.

عَرفتْ هذه الأسرة حياة الرغد والدعة فترة طويلة، كواحدة من أثرى الأسر وأكثرها رفاهًا. في السنوات الأخيرة من ثرائه كان الأب

مهووسًا بالمخطوطات القديمة؛ ليس فقط بغرض المعرفة، بل لأنّه أحد كبار تجّارها.

لم يتمكّن أحد من أن يفعل له شيئًا؛ لا الأطبّاء ولا المشعوذون ولا الوسطاء الروحيّون ولا حتى حكماء الأعشاب وقارئو القرآن. كلّهم أعلنوا عجزهم، كما قيل، مدّعين أنّه مُصاب بلعنة لعناء لن تزول إلّا في أوانها؛ هذا إن كانت ستزول!

عصاميًّا كان، بنى نفسه من لا شيء، محقّقًا ثروة وجاهًا عريضين. تزوّج ممّن أعانته على فقره وفاقته وآزرته حتى أصبح ذلك التاجر المرموق وذلك السيّد المحترم. عاش حياته سعيدًا متنعّمًا. وكان سيعيشها كذلك لو لم تعانده الأيّام وهو في انتظار أن تجود له بولد يحمل اسمه من بعده فلا يقتصر نسله على الإناث.

جاء ـ أوّل ما جاء إلى هنا ـ ممرّغًا بفقر مدقع هو كلّ ما ورثه عن أبوين لم يرزقا سواه. بحث عن عمل يقتاتون منه. تمكّن خلال عامين من جمع مبلغ اقتحم به دنيا التجارة. فتح محلًّا صغيرًا لبيع الملابس المستعملة، جعله في بضع سنوات محلًّا للإتجار بالجملة، ثم أضاف إليه ثلاثة محالّ أخرى. تزوّج من ابنة أحد البائعين المتجوّلين كان يتعامل معه. وبعد عام لم يعد لزوجته من أحد سواه ومولودتهما البكر التي رزقا بها سريعًا.

استمرّت تجارته نموًّا وازدهارًا، واستمرّ إنجابه مزيدًا من الفتيات، حتى أصبح من كبار تجّار المدينة، وأبًا لثلاث فتيات. شعوره بنجاحه في التجارة كان يقابله شعور بالفشل في إنجاب ولد. حزن للأمر كثيرًا حتى أصبح ذلك هاجسًا قضّ عليه مضاجعه وقلب حياته كلّيّةً. بدأت تجارته تتردّى شيئًا فشيئًا، ومني بخسائر فادحة متلاحقة. أصبح شديد التوتّر، يتصرّف بعصبيّة ويختلق المشاكل في عمله ومنزله لأتفه

الأسباب، وكثيرًا ما كان يعيب على زوجته إنجابها البنات، وكأنَّ ذلك بإرادة وقصد منها. ازدادت حالته سوءًا إلى أن بدأ يصبّ جام غضبه على زوجته وبناته، بل وعلى بعض أصدقائه وزبائنه.

لم يهدأ روعه إلّا حينما عرضت عليه زوجته ـ التي انقطع أملها بالإنجاب لمرض ألمَّ برحمها ـ الزواج من أخرى. تزوّج ثانية وثالثة ورابعة... لم يحصل على مبتغاه. بل إنّ شيئًا غريبًا كان يحدث عقب كلّ زيجة؛ فما إن تحمل له العروس ولده المنتظر، حتى يتوفّاها الموت مع جنينها. شاع أمره بين الناس، إلى أن وُصِم بـ «القبّار»، فحتى إذا ما اعتزم الزواج، هوى قلب من يطلبها رعبًا، فيتملّص أهلها بشتّى الوسائل، رغم ما كان يعرضه من إغراءات. راح ـ هربًا من كلّ ذلك ـ ينغمس في الإثم والمجون، ما عاد وبالاً على أسرته، فعانت أشدّ المعاناة، خصوصًا من ثورات الغضب التي باتت تنتابه على الدوام.

ازداد انغماسًا في ما هو فيه؛ لا إشباعًا لرغبته وتوقه المتأجّج إلى الجنس فحسب، بل وإشباعًا لرغبة أخرى أشدّ تأجّجًا: الانتقام من جنس النساء. اشترى منزلاً آخر، خصّص طابقه العلوي لجلسات الأُنس، كما كان يسمّيها، وجعل الدورين السفليين مخازن للبضائع.

لا أحد يعرف ما الذي حدث في ذلك اليوم وأفقده صوابه على تلك الشاكلة. قيل إنّه كان مع إحدى محظيّاته، فإذا بنوبة ضحك هستيريّة تنتابه ليطبق كلتا يديه على عنق المسكينة ولم يفلتها إلّا جثّة هامدة. خرج زائغًا، يردّد ما يشبه الهذيان: «الظلال! إنّها الظلال! إنّها...».

عملت زوجته خادمة في منزل أحد الأعيان، غير عابئة بنظرات شامتة يرشقها بها بعض من كُنَّ إلى وقت يتمرّغن بتراب صداقتها. تحمّلت وكابدت، لا يثنيها شيء، حتى انهارت دفعة واحدة أمام اتّهام صديقتها لها بالسرقة. خرجت مصعوقة تشهق بالبكاء. بالكاد حملتها

خطاها. لم تكن لتكترث إلّا لأمر وحيد: كيف لها أن تعود إلى بناتها مطرودة موصومة بالسرقة؟! إنّما ها هي تتحامل على ألمها، لا تنبس ببنت شفة، تلج المنزل، فغرفتها، لتستلقي على فراشها ولا تفيق إلّا بعد أسبوع في المستشفى مصابة عاجزة عن تحريك نصف جسدها.

لم تستطع الفتيات، وهنّ من يتمتّعن بالشباب والجمال، إلّا السقوط واحدة تلو أخرى في شَرَك أقدم مهاوي النساء. أجسادهنّ اليانعة، وما يتمتّعن به من نعومة وطلاوة، وما تميّزن به من لباقة وحلاوة معشر، جعل تجارتهنّ تزدهر، حتى ذاع صيتهنّ كأجمل وأشهى من قادهنّ حظّهنّ العاثر إلى هذا الدرب.

في حيّهن يتظاهرن بالعفاف والطهر، حتى إذا ما ولجن أوكار الرذيلة والثراء، نزعن ذلك البرقع، لتسفر آلامهنّ مضرّجة بالمساحيق. أشعن، يحاولن إسداء العذر لهنّ ولمن حولهنّ، أنّهنّ حصلن على وظائف مجزية تتطلّب العمل طوال اليوم. وهناك، في أوكار الأثرياء حيث تتكاثف الشهوات والقصور المتبلّدة الخاوية من الحياة، عرضن بضاعتهنّ لكلّ متسقّط، حتى غدون الأشهر، يتنافس عليهنّ المترفون بالمنح والهدايا. لم تكن لتنطلي على الأمّ مظاهر التغيّر المفاجئ في حياتهنّ؛ إذ لكأنّهنّ في ذروة الثراء سلوكًا وبذخًا. كابدت الأمر بصمت مرير قاس جعل حالتها تتدهور يومًا بعد يوم.

هذه حياتهنّ، فيها من الآلام ما لا يمكن لقلوب أن تحتمله. ولكن هل لمثلهنّ أن يكنَّ سوى سقط متاع. يمررن أمامنا، فلا نشعر بأسف أو أسى، لا مشاعر؛ إلّا إذا كانت الشهوة شعورًا. سيلقين الكثير من أصحاب المال والجاه، ممّن بلغت شهرتهم عنان السماء، يتضاءلون ممرّغين وجوههم بين أفخاذهنّ هناك وراء الجدران المترفة، حيث يختبئ الكثير من المآسي واستغلال البشر للبشر. في بلد كبلدنا، حيث الفقر

ينشب أنيابه في الكثرة الكاثرة، ويظفر القلّة بكلّ الثروات، يكون هذا البون الشاسع والتفاوت الكبير المحرّك الرئيسي للإثم. هاوية سحيقة تتّسع باطّراد، ليعربد الثراء بالفقر كيف يشاء. وهكذا يكون الذكر/ الثراء المحرّك والمهيمن، والمرأة/ الفقر الوعاء المتلقّي. فها هنا حتى الإثم يتطلّب المال والجاه.

الطور الثالث

الجِيد

اليوم الخامس كان مختلفًا. خرجت صباحًا أستكمل إجراءات الالتحاق بالجامعة. رجعت من منتصف الطريق، ثمّة وثيقة نسيتها. أدرت أكرة الباب. كان مفتوحًا. ظننتني تركته هكذا؛ فأنا من أنا في السهو والتوهان. دفعته لأتسمّر على عتبته. يا الله! ثلاثٌ أجمل ما يكون الجمال! انتفضن واقفات، لا يرتدين سوى غلالات نوم خفيفة. ولكم زادتهنّ المفاجأة جمالاً وزادتني ذهولاً! تقافزت الأفكار في ذهني؛ ما الذي جاء بهنّ؟! ماذا يفعلن هنا؟! هل يبحثن عن شيء بين أشيائي؟!... نفضت عنّي ذهولي وقد عرفتهنّ، بنات صاحب المنزل. لم أزد على أن مرقت نحو حقيبة أضع فيها وثائقي. أخرجت ما أحتاجه واستدرت مُنْسَلًّا كأن لم أر شيئًا، موصدًا الباب من خلفي.

ظلّت وجوههنّ نصب عيني طوال النهار. في المساء كانت الغرفة غاية في النظام. حتى ملابسي التي بقيتُ أتلكّأ منذ أيّام في غسلها وجدتها نظيفة ومكويّة، عليها رسالة بخطّ أنثوي رقيق، يعتذرن فيها عن دخول الغرفة دونما إذن، وأنّهنّ دخلنها للتنظيف كما اعتدن مع سابقي،

وإن كنت لا أرغب في ذلك فسيسلّمنني ما لديهنّ من مفتاح. رددت أعرب عن امتناني لما قمن به، وعن خجلي لتجشّمهنّ هذا العناء ولدخولي عليهنّ بتلك الطريقة، مؤكّدًا أنّ بإمكانهنّ دخولها أنّى شئن. أعدت قراءة ما كتبتُ، كان جيّدًا ومختصرًا. طويته ووضعته مكان رسالتهنّ. لم أكن قادرًا على التعبير بمثل هكذا أسلوب لو تحدّثت معهنّ شفاهًا؛ فللقلم سحره الخاصّ وقدرته على التعبير بالشكل اللائق. كما أنّني أمتلك معه بعض موهبة ومخزونًا لغويًّا عزّزته قراءاتي.

عشيّة اليوم التالي وجدت خطابًا يشكرنني فيه على ثقتي. كان ممهورًا بتوقيع إحداهنّ، بدا لي أنّها الصغرى، تتمنّى عليَّ أن أعيرها بعض كتب. اخترت رواية مترجمة عن تاريخ الفلسفة الغربيّة، كانت ضمن ما أهداه إليّ الكهل، ووضعتها حيث وجدت الخطاب. استلقيت أستدعي النوم بالقراءة. ثلاث طرقات خفيفة فززت لها، لأجد بضعة أطباق وضعت أمام الباب. لمحتُ في نهاية الرواق ظلًّا يصعد درجات السلّم. أعدت الأطباق فارغة إلى مكانها أمام الباب ثم عدت لأستلقي. وقع خطوات في الرواق. فتحتُ الباب. إنّها (ج) منحنية تأخذ الأطباق. استقامت فزعة وأوقعت عليَّ بعض الأطباق. هبّت بوجه ضمّخه الخفر تمسح ما علق بثيابي من طعام. أمسكت بيديها بشكل عفوي أحاول منعها. إنّها المرّة الأولى التي ألمس فيها أنثى غريبة. أزحتهما على استحياء أشعر بي جسدًا يرتجف. طلبتْ أن أنزع ثيابي لتغسلها. حاولت ثنيها، لكن إصرارها كان أقوى. انصرفتْ لتشب نيران الرغبة فيّ. ثم كانت عارية تتلوّى بجسد طافح بين أحضاني. استيقظت ينقذف سائل لزج من عضو منتصب.

* * *

صباح يوم تالٍ وكنت على وشك الخروج، في أوّل أيّامي

الجامعيّة، صادفتُ فتاة منقّبة تغلّفها عباءة سوداء لا تظهر منها سوى عينيها الناعستين. مضت سالكة طريقي ذاته إلى «فرزة» الحافلات. حسبتها إحداهنّ فأزمعت اللحاق بها. ركبنا الحافلة ذاتها، ونزلنا في الموقف ذاته أمام كلّيّتي. وها هي تلتقي لفيفًا من صديقاتها ليتوجّهن نحو مقصف الطالبات. انتظرت طويلاً دون جدوى. أتراها خرجت دون أن أنتبه؟! أم أنّها لم تخرج؟!

تكرّر ذلك في اليوم التالي والتالي والتالي... ولا أحار جوابًا، رغم أنّي كنت ألاحظ خروج عدد ممّن يدخلن معها. سألتُ عنها (ج)، فأخبرتني أنّها (خ) المستأجرة المنطوية على نفسها في الغرفة الأخرى.

رحت أراقبها أكثر، محاولاً التركيز على ما ترتديه. سأكتشف أنّها حال دخولها المقصف تكشف عن وجهها لتسفر عن ذلك الجمال الآسر المتواري خلف ذلك النقاب. وسيتّضح لي أيضًا أنّها في المستوى الثاني من قسم الدراسات التاريخيّة، القريب من تخصّصي.

ذات مساء، وكنت أتهيّأ للنوم، تناهى إلى سمعي صرخات وولولات، كأنّها قادمة من الدور العلوي. ارتقيتُ درجات السلّم الحجري مرتبكًا لأتوقّف أمام حاجز مسكن أهل البيت. كانت الصرخات نسويّة يتخلّلها صوت مزمجر أجشّ متحشرج يكيل سيلاً من الشتائم والسباب. وقفت حائرًا لا ألوي على شيء. أخشى ما كنت أخشاه أن أتدخّل في ما لا يعنيني. أحسست بشخص من خلفي يقترب بحذر. استدرتُ فإذا هي فتاة التاريخ مرتدية عباءتها تلك تقف إلى جواري بجسد مرتجف. أكان ارتجافها من تلك الصرخات أم من كونها بكلّ هذا القرب من شخص يتعقّبها طوال ذلك الوقت؟! يا لي من شخص يمكن أن يفكّر هكذا تفكير في هكذا ظرف!

عادت صرخات إحداهنّ، تبعتها صرخات أخرى. أصبح عراكًا

شديدًا. تجاوزت حيرتي ودفعت الباب. الثلاث متكوّرات على أمّهنّ المسجّاة وسط الحجرة جوار كرسيّها المتحرّك، ورجل كهل بهيئة مزرية يكيل لهنّ الركلات. احتمت (خ) ترتجف ورائي. انقضضت عليه أبعده عنهنّ. تراجع حتى ارتطم بالجدار تنضح عيناه ذهولاً. مبهوتًا تسمّر لحظات، ومبهوتًا أطلق ساقيه للريح، ورغبة لا أستطيع ردّها تحثني على ملاحقته. عدوت وراءه بكلّ ما أوتيت من سرعة. رغم ما كان عليه عدا كغزال؛ وبالكاد أبقيته في مرمى نظري. اجتزنا أزقّة مظلمة ربّما لتضليلي. توقّف أمام دار تبدو مهجورة. تلفّتَ يمينًا وشمالاً، ثم ولجها.

تأمّلتها. أحسست بوحشة اقشعرّ لها بدني. أطللت برأسي من بابها المخلوع. ظلام حالك يلفّها. هممت باللحاق به، لكنّي، وأنا الجبان أمام كلّ غموض، تراجعت عائدًا من حيث أتيت.

أسندت ظهري إلى باطن الباب الرئيسي ألتقط أنفاسي المتلاحقة. صعدت مصيخًا بكلّ جوارحي، خشية أن يكون قد حصل مكروه. صمتًا كان كلّ ما أسمع، ولكأنّ شيئًا لم يحدث. طرقت باب الحاجز. فتحتْ كبراهنّ متجهّمة حزينة تتقدّمني إلى غرفة أمّها. نظرت إليَّ الأمّ بامتنان أشعرني بالزهو، لكأنّي اجترحت مأثرة. شعور بالغبطة لا بدّ أنّه يعتري كلّ من ينقذ إنسانًا، فكيف إن كانت امرأة، وإن لم يكن ما فعله يستحقّ كلّ ذلك الامتنان. كنّ أربعتهنّ متحلّقات حولها مرتديات ما كُنَّ يرتدينه سابقًا. وكم ستعتريني تلك القشعريرة كلّما مررت جوار تلك الدار، التي أدركت لاحقًا أنّها مأوى الأب وملاذه!

ثلاثة أيّام ويطرق مسمعي تلك الطرقات الخفيفة. فتحت الباب، أظنّه طعام العشاء! إنّما ها هي (ج) بوجهها الفتّان تناولني الرواية طالبة كتابًا آخر. سألتها إذ أناولها الكتاب عن رأيها في الرواية السابقة. لم تحر جوابًا، وإن لمحتُ في عينيها شعورًا بالرضا، لست أدري من

الراوية أم منّي. عدت إلى فراشي أتصفّح ما أعادته، لأرى إن كانت قد كتبت في ثناياه شيئًا. كدت أيأس من رؤية شيء، إلى أن رأيت في صفحة ما قلبًا يقطر دمًا، ويخترقه سهم. أخذت دشًا باردًا أطفئ به لظى جسدي. ويا له من متعجرف يدرك افتتاني به فلا يزداد إلّا تيهًا! نظرت ساعتي. كان موعد جلبهنّ العشاء قد أزفّ. يا لهذه النفس من أمّارة بالسوء! شبق هائل يدكّني دكًّا. أنظر في المرآة فلا أرى إلّا هذا الجسد الذي نتقولب به ليصبح سيماءنا لدى الآخرين، بل وحتى لدى أنفسنا. أليست أجسادنا في جزء مهمّ منها هي أشكالنا الظاهرة؟! أكاد أجزم أنّني لا أرى في الآخرين سوى أجساد. ومن أين لي أن أهتمّ بشيء سواها؟! إنّها أشياء لا ترى مجسّمة، وإلّا فمن خلال أجسادها، وإلّا يتأتّى ذلك إلّا للمتأمّل الحصيف.

هصرني الجوع فارتديت ملابسي خارجًا للعشاء. وإذ كنت أغلق الباب إذا الكبرى أمامي. رحّبتُ بها مطأطئ العينين. وبلهجة من اعتادت الرجال دعتني لتناول العشاء. ارتبكتُ؛ إنّها النار تشبّ داخلي. أتذكّر يوم ذهبت إلى مدينة ما قرب بلدتي. استقللت حافلة ما. جلست فتاة إلى جواري، ما زلت أشعر بحرارة جسدها إلى اليوم!

أترى لو لم تكن هذه الأجساد، أكنّا نشعر بشيء؟! يا لهذه الأجساد كم تحتوينا، لتجعلنا ما نحن عليه! يا إلٰهي! لكأنّنا مجرّد أجساد!

حاولتُ التملّص مستدعيًا الأعذار. رشقتني بنظرة عاتبة وجذبتني من يدي، لأخطو أولى خطواتي في عالم النساء، الذي لا يضاهيه شيء. اعتراني ما اعتراني من خجل مثقل بالشهوة. زال ذلك بعد أيّام من اعتيادي العشاء صحبتهنّ. أحسست بالقرب الشديد منهنّ وكأنّهنّ أهلي، وهنّ يحاولن إسعادي بما يبعثه من بين ركام الشقاء المدفونات فيه.

ب) الـــجـــذع

جذوة الاحتواء

الـــطـــور الأوّل

الـصـــــدر

بقيت علاقتي بـ (خ) خلال الفصل الدراسي الأوّل من ذلك العام لا تبارح مكانها، فقط نظرات عابرة نتراشقها بين آونة وأخرى. في الفصل الثاني طلبت منّي اصطحابها إلى ومن الجامعة. وافقت، إرساء لقيم الذكورة، رغم ما سأتجشّمه من أعباء إضافيّة ستثقل ميزانيّتي الشحيحة. لكن كلّ ما أملك يهون؛ فإلى جمالها الأخّاذ، كانت شخصيّتها طاغية، لا يملك مثلي القدرة على مقاومتها. وهو ما راقها أوّل الأمر، وإن تحوّل إلى حبّ صامت، صامت من الطرفين.

رحت أنشغل بدراستي وبما ألفيتني فيه؛ ذلك الرعديد أمام كلّ أنثى، محاطًا بهنّ من كلّ جانب، وكأنّه يتنفّسهنّ.

في فترة لاحقة ستتحسّن علاقتي حتى مع الأب، وإن بقيت ذكرى مطاردتي له راسخة لا تزول.

الجامعة هي ما اضطرّ (خ) إلى استئجار مثل هكذا سكن. كان أبوها قد قتل في ظروف غامضة، لتتزوّج الأمّ المشتعلة بالرغبة من آخر، تاركة إيّاها وأخاها الذي يكبرها بعامين نهب اليتم، ليكفلهما عمّهما

وهي في الثالثة من عمرها. إلّا أنّ عمّهما توفّي دون سابق إنذار، ولم يعد ثمّة أحد قادر على ردع زوجته، التي كانت في حياته تذيقهما المرّ، فكيف وقد فقداهُ؟!

هي كانت قد أكملت الثانويّة معتزمة بتشجيع من عمّها ارتياد الجامعة. جنّ جنون زوجة العمّ، خصوصًا أن لا أحد من أبنائها أكمل دراستهُ. اختلقت المشاكل متلاحقة دون أن تتمكّن من تغيير زوجها عليهما. لكن وفاة العمّ أخرجت الأمور من مسارها. اضطرّ الأخ للاغتراب والتخلّي عن دراسته، وصارت هي إلى ما صارت إليه في تلك الغرفة، غير عابئة بما يدور حول المنزل من شبهات.

أبوها كان تاجر تحف قديمة. هذا ما ظهر، وخفي أنّه كان من أشهر سماسرة المخطوطات. تعرّض للكثير من المخاطر، آخرها خلاف نشب بينه وبين آخرين. اختفى عدّة أيّام، قبل أن يُعثر عليه قتيلاً في إحدى الخرائب.

الكثير ممّا حدّثتني به كان يمرّ أمامي مشتّتًا وكأنّي جزء منه، أو كأنّه جزء من ذكرياتي:

الحريق الغامض يلتهم محلّهم للتحف القديمة، قلق الأب الدائم، التهديدات التي يتعرّض لها على الدوام، حرد الأمّ المتواصل وتشتّت شمل الأسرة، اختفاؤه أو تخفّيه المتكرّر أيّامه الأخيرة، حذره وحيطته من مجهول لا يدركه، اتّهامه لما سمّاها «الظلال» بملاحقته، تحدّيه ووقوفه ضدّها، رفضه تسليم ما بحوزته من مخطوط كان ينعته بـ «المشؤوم»، انكبابه عليه واختفاؤهما معًا، رفضها البات رؤية أمّها منذ تزوّجت، انكبابها على قراءة ما خلّفه من كتب، ابن عمّها الذي أحبّته منذ سنّ المراهقة دون أن يكون له علم بذلك، إحساسها بالضيق والقلق، إصرارها على الالتحاق بالجامعة، زلّاتها التي ارتكبتها بفعل

الطيش والجموح، موت عمّها المفاجئ، سفر أخيها للعمل خارج البلد، استئجار الغرفة الشاغرة في الدور الثاني من شابّ قروي، محاولاته الحثيثة مراودتها، انغماسه في علاقات مشبوهة مع البنت الوسطى لصاحب الدار، مغادرته فجأة، مجيئي، خشيتها من أن أكون مثله، تبدّل رأيها بالتدريج . . .

لم أكن متأكّدًا من طبيعة شعوري نحوها بالضبط، وإن كان شيء ما يشدّني إليها كلّما زادت معرفتي بها. الضيق إن رأيتها تتجاذب حديثًا مع آخر، والسعادة إن كنت ذلك الشخص. لم يكن لشعوري ذاك أن أعتبره نوعًا من الغيرة. كان أقرب إلى الخوف من فقد شيء يخصّني، أو هي الرغبة في الاستحواذ عليه.

الــطـــور الــثــانــي

الـقـلـــب

هل يمكن لرجل أن يحبّ امرأتين في آن واحد؟! أدري أنّ كثيرين سيجيبون بالنفي؛ ولكنّي أجزم أنّ كلّ رجل بإمكانه أن يفعل ذلك ويكون صادقًا في مشاعره إلى درجة مخيفة. هذا ما حدث معي. وعلى العكس تمامًا؛ فالمرأة أكثر إخلاصًا، ولا يمكنها إيلاء حبّها إلّا لشخص واحد.

انتهى عامي الأوّل على خير. تمكّنتُ فيه من تحقيق بعض ما أصبو إليه، مغترفًا من المعارف ما يزيد عن الكتب الدراسيّة.

تطوّرت علاقتي بـ (ج) لدرجة اعتيادها مسامرتي بشكل شبه يومي. نستفيض نقاشًا حول ما نقرأ ـ وهي خصوصًا ـ من كتب. لا أخفي أنّي كنت من حين لآخر أتعمّد أن أتحرّش بها، بتحفيز من جمالها؛ لكن ذلك لم يكن مجديًا البتّة؛ إذ كانت صارمة جدًّا بهذا الصدد، بل كانت ترجوني ألّا أدنّس ما بيننا بمتعة عابرة. كانت تقول:

«يا أنت! لا أشعر بوجودي إلّا معك، فلا تحرمني من هذا الشعور! لا تفقدني ما أكنُّ لك من حبّ واحترام! صحيح أنّك الوحيد الذي أرغب به حقًّا؛ لكنّي أخشى أن تتحوّل إلى واحد ممّن يعبرونني

دون أن أشعر بهم أو أحسّ بوجودهم. ألا يكفي أنّك صديقي، وصديقي الوحيد!؟ أثمّة أكثر بذلاً من الصداقة؟!».

والحقيقة أنّني لم أكن راغبًا منها إلّا بما يرغب به زبون. لكن صدّها الدائم جعل من علاقتنا محض صداقة. ولا أبالغ إن قلت إنّها صارت أعزّ صديق لي بعد ذاك الكهل.

كانت التغيّرات تعتريها يومًا بعد يوم. لم تعد تهتمّ بمظهرها، ولا تخرج إلّا نزرًا. قطعتْ علاقاتها بكلّ معارفها، مصرّة على العودة لدراستها واستئناف حياتها من جديد. ظننتني سبب كلّ تلك التغيّرات؛ وسأدرك أنّ ما بيننا لم يكن ليترك هذا الأثر، بقدر ما كانت في احتراب مع واقع لا بدّ من مقاومته. أو ربّما هو شيء آخر لم يتسنَّ لي استكناهه.

خفّتْ وطأة حضور ذلك الأب، فلم يعد يأتي كما كان في السابق. وحتى إذا جاء فلا نكاد نحسّ بوجوده، وإن كان كثيرًا ما يعرج عليَّ في الغرفة لإلقاء التحيّة.

خلال العام التالي انكببتُ بشغف أكبر على الدراسة، حتى تفوّقت على كلّ متفوّق، وأصبحت محطّ أنظار أساتذتي. حتى علاقتي بـ (خ) بارحت مكانها. كان شيء غامض يجذبني نحو تلك العلوم، وكأنّها كلّ ما قُدِّر لي.

سيصلني نبأ وفاة والدي وأنا في قاعة امتحانات آخر العام الثالث. كان قد مضى يومان على الوفاة، سأزيدهما يومين آخرين لامتحان آخر مادّة، والسفر إلى القرية. ولولا أمّي، التي سأتفقّدها وأتعهّدها بالدواء من الآن فصاعدًا، ولولا ذانك اللحدان لأغلى شخصين لديَّ: أبي وقريبه الكهل، لكانت تلك الزيارة آخر عهد لي بالقرية. سأمكث هناك

طوال فترة الإجازة المدرسيّة. أمّا ما سيليها فمجرّد زيارات خاطفة لا تتجاوز اليوم أو اليومين.

وها أنا أعود لأكتشف أنّ (خ) قد تركت غرفتها تلك بعد يوم واحد من سفري. أمّا إلى أين فهذا ما لم تقله لأحد، ولن أعرفه، رغم ما بذلته من جهد في البحث عنها. انقطعت أخبارها تمامًا، فكأنّها لم تكن سوى مجرّد حلم؛ لولا تلك الرسالة التي تعتذر فيها (لا أدري عمّاذا) والتي تقول فيها إنّني لن أراها حتى إشعار آخر.

* * *

العام الجامعي الرابع كان نقطة تحوّل أخرى. تعرّفت فيه على فتاة ستترك بصماتها القويّة في حياتي إلى الأبد. كانت (ر) ضمن الدفعة الجديدة في قسم الآثار. لم يكن جمالها ملفتًا؛ لكنّه من ذلك النوع الذي يشوبه غموض ما، ويحتاج إلى تأمّل وإمعان، وهو ما سيجذبني، بالإضافة إلى ملامحها المتّزنة وسلوكها الهادئ وانزوائها وحيدة معظم الوقت. كانت الوحيدة بين فتيات الدفعة غير منقّبة. تحدٍّ لاهٍ بيني وبين أحد الزملاء، من منّا سيتمكّن من جذب انتباهها واستمالتها. ولأنّني أقطن في منزل يعجّ بالفتيات، فقد تمكّنت منها أوّلاً، على صعوبة طبعها، ليتحوّل إلى انجذاب، فحبّ جارف. يأسي من الأساليب التقليديّة المجدية مع الكثيرات، جعلني أنتهج أسلوب المواجهة المباشرة معها. عزمتُ أمري ذات صباح، واضعًا في الحسبان كافّة الاعتبارات. بدون مقدّمات استوقفتها معربًا عن إعجابي. ردَّتْ على ما اعتبرته قلّة أدب شديدة بقلّة أدب أشدّ، ناعتة إيّاي بـ «الكلب»، وماضية في حال سبيلها. استقبلتُ الأمر كما لو كان مديحًا، رغم خشيتي من سخرية واستهزاء صاحبي في التحدّي خاصّة، وهو بالفعل ما كان منه ومن بقيّة الزملاء، بل ومن زميلاتها اللواتي رحن يطلقن ضحكاتهنّ المتوارية كلّما

رأينني. لكن كلّ ذاك لم يعد بعد ذلك ليستفزّ شعرة واحدة منّي، بل كلّما زادت السخريات من حولي ازددت حبورًا وسعادة. يا إلٰهي! كم سأكتشف حينها من التغيّرات التي زوّدتني بها حياة الجامعة، ولم يعد بي من ذلك المتحفّظ المتردّد شيء!

صباح يوم آخر رأيتها رفقة إحدى زميلاتها، لازمتها ربّما لئلّا أضايقها. واثقة تقدمت منتظرة أن أنسحب أو أتجمّد مهزومًا. تحيّنت اللحظة المناسبة لالتقاء أعيننا، وبدلاً من إلقاء تحيّة ما، رحت أهوي نحوها ككلب رأى سيّده. تجاوزتاني متصنّعتين اللامبالاة. أصخت السمع: خطوة... خطوتين... ثلاثًا... وإذا بضحكات رقيقة سريعًا ما كُبِتَتْ، والتفاتة من حين لآخر تقوم بها صاحبتها، حتى واراهما الزحام، لأتوارى في أصداء هوهوتي تلك.

تعمّدتُ تجنّبها في الأيّام الثلاثة التالية، راصدًا كلّ تحرّكاتها. لاحظتها تجوب أرجاء الكلّيّة على غير عادتها، كأنّها تبحث عن شيء.

تغيّبت يومين آخرين، تجاوزتها في تاليهما كأنّي لا أعرفها، لأسمع ما بدا لي ضحكة ساخرة من رفيقتها. بعدها بقليل لمحتها قادمة. تجاهلتها متضاحكًا مع زميلة لي، لأرى سحنتها تتميّز غيظًا ولا تزال تقترب. ثم كلّما التقينا استغرقنا في الضحك.

مرارًا تعمّدتْ الانزواء كعهدها، كأنّما تنتظر بادرة منّي. غير أنّي سأنتظر رؤيتها مع عدد من زميلاتها، لأتقدّم وبرسميّة بالغة، محيّيًا وطالبًا إليها الحديث على انفراد. تلفتتْ كما لو أنّي كنت أقصد أخرى، أو كأنّما تستفتيهنّ في الأمر. لم أقل شيئًا سوى أن ناولتها محاولة شعريّة. أخذتها بارتباك دسّة إيّاها في حقيبتها ومنصرفة في الحال إلى حيث لا تدري، حتى استقرّت على كرسي من تلك التي تتّسع لأكثر من شخصين، والمنتشرة على جنبات ممرّات الكلّيّة، لتلحق بها الأخريات

قبل أن تفوتهن قراءة الرسالة.

لا شيء

عذرًا! لا شيء

أحلام

محض خيالات

أفراح، أتراح

آمال، أوهام

لا شيء حقيقيًا

لا شيء خياليًّا

حلم يترعرع منذ أمد

أكوان

ألوان

أمواج وسهول وهضاب

تتّشح برقّتها وتذوب بأنفاسي.

هي أنت...!

مرّة أخرى سأتّجه صوبها لتتنبّه الأخريات فينهضن مخليات لنا الكرسي. سأسألها عن رأيها في ما كتبتُ. سألمح وميضًا من زهو يسطع في عينيها. ستحاول إرغام وجهها على ارتداء قناع الصرامة، قائلة بما يوحي بأنّها لم تفلح في إرغامه:

ـ اسمع يا أستاذ...!

سارعتُ لإخبارها باسمي. أردفتْ بلهجة تهديديّة فاشلة:

ـ أرجو أن تكفّ عن ملاحقتي! ولا تعتقد أنّك بحركة سمجة

ومقطوعة شعريّة لا أدري ممّن انتحلتها، ستوقعني في شباكك! أيّها السيّد لستُ من هذا النوع من الفتيات.

كنت قد وضعت في حسباني ردود فعل كتلك بل أسوأ؛ غير أنّي توقّعتُ ردّة فعل أكثر إيجابيّة. أجبتها بحزم وصرامة:

ـ وما هو الأسلوب الملائم؟!

ـ يلائمني أن تدعني وشأني!

ـ لا أستطيع!

ـ أرجوك! لا أريد مشاكل.

ـ ولا أنا؛ لكنّك بموقفك هذا تسبّبين مشكلتي الأكبر.

عادتْ إليها زميلاتها، لتنضمّ إليهنّ إذ يروّضن أقدامهنّ في جولة معتادة من تلك التي لا تنتهي في هذه الكلّيّة. أصادفها هنا وهناك فأطرف بحركة طفوليّة من عيني، ويا لها! كم كان وجهها يطفق جمالاً ورضًا!

الطـــور الثـــالـــث

الأمـعـــاء

تعرّفت على أخيها (ب) الطالب في الهندسة. ثم توطّدتْ علاقتي بهما كزميلين، بعد ما عرفا عنّي من سعة اطّلاع وشغف بالآثار والمخطوطات القديمة. سيعرّفانني لاحقًا إلى أمّهما (ش)، وسأعرف قصّة أبيهما (ل)، وهي ما ستودي بي في أتون هذا التدوين.

رغم هدوئها الظاهر كانت (ر) ذات طبع حادّ متقلّب. إن ثارت فعاصفة هوجاء، وإن سكنت فنسيم رقراق. تخاصم وتصالح بسبب وبلا سبب، بل وأحيانًا من دون أن أكون على علم، ما جعل علاقتنا بين شدّ وجذب.

سألتها مرّة عن سبب اختيارها دراسة الآثار. تجهّم وجهها وتركتني دون أن تقول شيئًا.

أتممتُ عامي الدراسي ذاك بتفوّق أيضًا، ما أهلّني لأكون «معيدًا» في القسم. شاب علاقتنا الكثير من التوتّر آنذاك، بعد أن كانت قد تعدّت علاقة الزمالة. انفصلنا لأكثر من شهر، وهو ما لم أكن أتوقعه. زارني أخوها في القسم يدعوني للغداء في منزلهم. قدّرت أنّها دعوة منها،

فوافقت على الفور. كانت تلك أوّل معرفتي بمنزلهما. تأمّلته جيّدًا. طابقان يتوسّطان فناء واسعًا باسقة أشجاره، ما يضفي شعورًا بالرهبة ويوحي بسعة مالكيه. في الخلف مبنى صغير منعزل تخفيه الأشجار.

استغربتُ حفاوة الأمّ ومكوثها معنا طوال الوقت. راحت تتأمّلني وتراقب كلّ حركاتي وسكناتي، حتى شعرتُ بالإحراج. حسبتها تتأمّل حبيب ابنتها، وقد أدركتُ لاحقًا أنّ هذا ربّما آخر ما قد تفكّر فيه. لقد كان تأمّلها لأمرٍ آخر! أمر آخر تمامًا!

ذات مساء، وبعد شهرين من ذروة خصام آخر مع (ج)، وبينما كنّا نتسامر كعادتنا، نناقش كتابًا ما، إذا بأحدهم يطرق باب الدار وينادي. هَبّتْ منصرفة، وهرعتُ نحو الباب. دعوة لزيارة أخرى، هذه المرّة بتوجيه من أمّه. كان قد ذهب في الصباح إلى الجامعة وانتظرني طويلاً، محاولاً الاتّصال بي. ولأنّ هاتفي مغلق على الدوام، اضطرّ للعودة إلى البيت، فأجبرته أمّه على المجيء إليّ هنا. وعدته بتلبية الدعوة في اليوم التالي؛ إذ الوقت لم يعد مناسبًا؛ لكنّه أصرّ على اصطحابي.

انطلقنا بسيّارته أشعر بقلبي أكثر خفقانًا وانطلاقًا؛ فرغم كلّ شيء كنت متلهّفًا لرؤيتها؛ إنّه الحبّ كما يبدو، نعم، إنّه هو لا سواه، «لا كرامة له».

في الفناء استقبلتنا، وتقدّمتنا إلى الداخل. استرقتُ النظرات والنظرات علّي ألمحها، أو ألمح شيئًا يشي بوجودها. لم يكن لها من أثر. أتراها، وكعادتها، تستبين قدرها ومكانتها عندي؟! ألا تدري أنه كبير، كبير جدًّا؟!

بدا على أمّها الإرهاق الشديد، فلم تعر لفتاتي انتباهًا، وإن تنبّه أخوها وتغاضى متواطئًا. لكن، وكما يقال: لا شيء يفوق فضول فتاة

محبّة؛ فقد لاح لي أخيرًا طيف يتلصّص من ردهة مجاورة لصالة الطعام. أحسستُ بارتياح شديد؛ فعلى الأقلّ لم تكن لتتجاهلني.

بنبرة ملؤها الشجن والالتياع حدّثتني الأمّ عن زيارة زوجها لها في المنام، يطلب منها إطلاعي على حكايته. استرسلتْ في سرد نبذة عن حياة هي من الغرابة لدرجة أنّك لا تصدّق أنّ إنسانًا عاشها. أدركتُ أنّها ما يزال لديها الكثير، وإن كانت بانتظار إشارة أخرى منه.

كان قد ترك لهم، ضمن ما ترك، بضع وثائق وكتب ومخطوطات، لم يكونوا ليستوعبوها، ما دفع (ر) لاختيار ذلك التخصّص الدراسي: الآثار والمخطوطات، وما سيحدوها أيضًا إلى توثيق علاقتها بي، إذ كنت أكثر زملائي تفوّقًا.

الغريب أنّني كنت شخصًا أقرب إلى المادّي، لا يؤمن بالغيبيّات إلّا في أدنى الحدود؛ لكنّني في الوقت نفسه أحبّ الخوض فيها كثيرًا، بل أكثر ممّن تسيطر عليهم تلك التي أُطلقُ عليها في العادة «خزعبلات».

سأطّلع على الكثير من الغوامض والأحداث المفارقة للواقع، والتي حرصتُ على إيرادها كما هي، تحرّيًا لما ألقته الأقدار على عاتقي من أمانة. كما سأحرص على إيراد ما روته لي الأمّ عن سنواته الأخيرة معهم، دون أن أدري إلى أين سيقودني كلّ ذاك.

ج) الأطــــــــــراف

أولى أدوات القدرة، ومبتدأ الأنسنة

الـطـور الأوّل

اليـدان

عاد من تشرّده الطويل، يا بنيّ، منهكًا، موهنًا، ساكنًا، كأنَّ على رأسه الطير. مكث شهرين يستردّ عافيته، ويعوّضنا عن ذلك الكثير والكثير الذي حرمناه، ليشرع في بناء مبنى صغير في الفناء الخلفي، محوّلاً إيّاه إلى معتزل يدوِّن فيه كلّ ذاك الذي مرّ به، أو «الكتاب الأخير للظلّ»، كما كان يقول.

قبل يومين من وفاته عهد إليّ بما بحوزته. أوصاني بأن أحرص عليها أشدّ الحرص، وألّا أسلّمها إلّا لمن سيدلّها عليه في أوانه.

قضى ذينك اليومين معنا، كأنّه كان يودّعنا، أو كأنّه أدرك أنّ ساعته قد أزفّت. في الصباح الباكر التمس معتزله قائلاً إنّه سيلقي عليه النظرة الأخيرة، قبل أن يودِّعه ويتحرّر من كلّ ما كان له من حياة، ويعود بعدها إلينا. تأخّر كثيرًا. ذهبت لتفقّده. مقتولاً شرّ قتلة كان.

أفادت تقارير المعمل الجنائي والطبّ الشرعي بأنّ سبب الوفاة غامض، وأنّ كلّ الجراح التي عليه ليست السبب المباشر للوفاة، وأنّ ثمّة سببًا آخر، ليست تلك الجراح إلّا تغطية له. بالإضافة إلى هذا لم

يتمّ العثور على أيّ أثر لدماء تناسب ذلك القدر الهائل من الطعنات، بل ولا حتى لبصمات أو أداة جريمة. كان المكان نظيفًا إلى درجة مخيفة. أصررت على إعادة تشريحه، وبدقّة.

(كشف التشريح اضمحلال الفصّ الأمامي من الدماغ، وتهتّك في الفصوص الأخرى، دون أيّ مساس بالجمجمة، بالإضافة إلى اضمحلال يصل حدّ التلاشي في الرئتين والقلب والكبد. عجز أطبّاء وعلماء التشريح واختصاصيّو الدماغ عن تقديم تفسير لذلك الاضمحلال وللتراتبيّة الدقيقة والتماثل التامّ لكلّ ما نشب بجسده من جراح).

صعقتني الطريقة التي مات بها، أكثر من موته ذاته. كنت كلّما أمعنت التفكير في الأمر ازددت رعبًا. قرّرت في النهاية أن أئد كلّ هواجسي مع جثّته، وأن أكتفي بالحفاظ على ما خلفه من كتب ومخطوطات، وأن تظلّ بعيدة عن كلّ عين، وصاحبيك خاصّة».

عند الحادية عشرة غادرتها يسومني صداع شديد. لم تكن بي رغبة بالرجوع إلى الغرفة مباشرة. تركتُ قدميَّ تقودانني أنّى شاءتا. ألفيتني وسط المدينة، أمام تجمّع للمطاعم، يلسعني بعض جوع إذ أشتمّ ما ينبعث من روائح، مع أنّهم كانوا على وشك الإغلاق. ودونما اختيار مدروس، دخلتُ أحدها، لأرى ذلك الأب وبهيئة مزرية، لكأنّه في انتظاري. عرضتُ عليه العشاء معي، متمنّيًا ألّا يستجيب. أكل بشراهة، وكأنّه لم يأكل منذ أيّام. كان الجميع يرمقوننا بين الفينة والفينة تعجّبًا وتقزّزًا. عرقه يمتزج ببقايا طعام تلطّخ وجهه المدّثر بالشعر، الأمر الذي أشعل تأفّفي. هممت بالنهوض. همَّ هو الآخر سائلاً إيّاي بلهجة رصينة ليس فيها أثر مسّ: «هل تأفّفت؟! أرجو ألّا يصيبك ما أصابني! إنّني أعذرك؛ فأنا كنت كذلك. إنّما أرجو أن تحتملني بعض الوقت؛ فلديَّ ما أودّ أن أطلعك عليه!».

تراجعتُ عمّا هممت، وقد زال عنّي ذلك الشعور. متمهّلاً راح يحدّثني، كأنّه يمهّد لما سيبوح به:

«لا شيء أسوأ من الجشع والكبْر. إنّهما يجعلان من يتملكانه راغبًا فيما ليس له، ومدّعيًا ما ليس فيه. لم أعد حينها أطيق شيئًا، حتى زوجتي وبناتي، بل وحتى نفسي. رحت أمعن في التجنّي على كلّ شيء حولي. ستدرك أنّ كلّ ما وقع لعائلتي كان جزءًا من لعنة قاسمتهم إيّاها بإصرار منّي، رغم أنّي كنت قادرًا على إبعادها عنهم. إنّي الجاني الوحيد بحقّهم».

كنت أتمنّى ألّا ينقطع استرساله. إنّما كنّا قد فرغنا من طعامنا، ولم يعد بنا حاجة للمكان، فخرجنا نجرجر أقدامنا باتّجاه المدينة القديمة، نخوض أزقّتها إلى ما لا نهاية.

كان قد بلغ من الجشع والكبر مبلغًا جعله يظنّ أنّه قادر على كلّ شيء. أوحى له بعض جلسائه بفكرة الإتجار بالآثار والمخطوطات، لما لها من مردود وربح خياليين. راح يبرم العديد من الصفقات المربحة، ما شجّعه على التوسّع، خاصّة في المخطوطات؛ لقلّة ما يكتنفها من معوقات. نمى إليه وجود مخطوطات من أثمنها وأندرها، مهملة في ركن ما من المكتبة الغربيّة في الجامع الكبير. أمرته نفسه بألّا يدع هذا الكنز يفلت من يديه. اتّفق مع رئيس عصابة من معارفه على نهبها. استأجروا منزلاً يطلّ على باحة الجامع. تمّ الإعداد لكلّ شيء. حُدِّدَتْ ساعة الصفر. نُفّذتْ العمليّة بنجاح. حُصرتْ المخطوطات المنهوبة وخُبّئتْ في مكان أمين، على أن توزّع فيما بعد بين منفّذي العمليّة بحسب ما يتّفق عليه. راح يراوغ للاستحواذ على ما حسبه أبهظ المخطوطات وأندرها، دون أن يدرك أنّ اعتقاده ذاك سيجعله الغبي الوحيد في تلك الصفقة. أعطى العصابة حصّتها، وفوقها مبلغًا لا بأس به، مقابل اختيار وزيادة

حصّته. لكن أهمّ مخطوط كان من نصيب أحد أفراد العصابة وأقربهم عهدًا بالانضمام إليها. مجرّد صدفة؛ إذ لم يعرفوا قيمة ما بأيديهم. عهد ذلك العضو بحصّته إلى قريب له يعمل سمسارًا لبيع المخطوطات. وحده ذلك القريب سيدرك أهمِّيّة المخطوط وقيمته.

شاع أمر السرقة. تسرّبتْ أسماء الكثير من المنهوبات. احتدم التنافس بين المهتمّين، خصوصًا على ذلك المخطوط. أدرك ما اقترف من حماقة. اتّفق مع رئيس العصابة على استرداد المخطوط بأيّة وسيلة؛ وبالقتل إذا لزم الأمر. كلّفا من يقوم بذلك. كيل لرفيقهم ذاك من العذاب ما كيل. وحين لم يجدا منه استجابة، فقدا صوابهما وراحا يكيلان للرجل المزيد من العذاب حتى خرّ صريعًا. قذفا به في مكان قريب من حيّه. وها هما بعد تحرّيات مكثّفة يتوصّلان إلى السمسار الذي أودع لديه المخطوط.

أغرياه بمال جمّ. حاولا تهديده وإجباره على الاعتراف. استخدما الوسطاء لإقناعه. هدّداه بأسرته. كان يدرك سوء نيّتهما وأنّهما لن يتركاه؛ لكنّه كان يدرك أيضًا أنّهما لن يمسّاه بسوء؛ حفاظًا على الكتاب من الضياع وعلى نفسيهما والعمليّة من الانكشاف. أخذاه إلى المنزل حيث يلتقيان ومحظيّاتهما. صودف أن كانت إحدى المحظيّات في المنزل، بناءً على وعد أبرم معها الليلة السابقة. كانت قد انتظرت طويلاً حتى هاجمها النعاس، فاستلقت غائبة في نوم عميق. وها هي تستيقظ على صراخ وعويل، لتخرس مكانها يملؤها الذعر.

كانوا سبعة: هو يعاونه اثنان، والزعيم ويعاونه اثنان أيضًا، والسمسار. جنّ جنون الزعيم، فراح يُعمل كلّ أصناف التعذيب، حتى لكأنَّ التاجر خاف من ضياع السمسار كسابقه، فأمره بالتوقّف، لكنّه لم يستجب، بل زاد جنونه، ضاربًا عرض الحائط بكلّ أمر، ما أثار في

التاجر غضبًا بالكاد استطاع كبحه. ارتدّ خطوات محاولاً تهدئة ثورته. خطرتْ له فكرة أن يتخلّص من الموضوع برمّته. لم يعد راغبًا في الحصول على المخطوط بقدر رغبته في الخروج من المأزق المتفاقم الذي وجد نفسه فيه.

تقدّم من السمسار محاولاً إنقاذه؛ لكنّ الأوان كان قد فات. أومأ لصاحبيه فأخرجا خنجريهما على معاونيْ زعيم العصابة، بينما تولّى هو أمر الزعيم، وإن لم يجهز عليه، لحاجة في نفسه. أمرهما بتكبيله، وأنزل به بعض ما أنزله بالسمسار من عذاب، حتى أرغمه على الاتّصال بباقي رجاله للمجيء.

كان يعرف أنّ أفراد العصابة عندما يأتون سيطرقون الباب ثلاث طرقات قويّة وأخرى واهنة، وسيدخلون واحدًا واحدًا؛ حتى لا يلفتوا الأنظار، ما سيمكّنه وصاحبيه من القضاء عليهم.

كانت مجزرة حقيقيّة. تمّ التخلّص من الجثث بتقطيعها ولفّها بملاءات ووضعها في أكياس كرتونيّة، ثم شحنها كبضاعة ونقلها إلى مكان يمكن دفنها فيه، وهناك سيتخلّص من صاحبيه أيضًا ليزيل كلّ أثر.

توجّه إلى غرفة النوم. فتح الغرفة. أدار مفتاح الضوء. رآها على السرير مدثّرة يشلّها الخوف. تقدّم منها. أزاح الدثار. شخصت إليه بعينين ملؤهما الرعب، وبدأت في الصراخ. لم يدرك كيف أمكنه أن يهصر حنجرتها حتى لفظت النفس الأخير. أدرجها ضمن الخطّة، لينتهي من كلّ شيء كما أراد. ها هو يعود أدراجه، إلى المنزل، ليتأكّد من عدم وجود ما نسيه. ولحظة تأكّد له أن لا شيء مقلقًا خرج تزهو في وجهه أطياف بيضاء تلبّسته، مستهلّة معه رحلة عذاب لا تنتهي.

حين بلغنا خرابته سألني: «أتدرك سبب فزعي وفراري منك عند

أوّل لقاء؟!». لم ينتظر جوابي، فأردف: «لم يكن بسبب ضربك لي، فأمثالي لا تفزعهم أشياء كهذه. السبب آخر. لا بدّ لي من إطلاعك عليه، لتستوضح جوانب الحكاية وتعرف سبب إبقائك في المنزل وعدم التخلّص منك، خلافًا للمستأجر السابق، الذي هدّدته بما لا يحمد إن لم يغادر. لم تكن تلك أوّل مرّة أراك فيها. كُنتُ أراك في أحلامي كثيرًا. كنت تقف مستكينًا هادئًا، بينما أحدهم، لي معه قصّة طويلة إذ كان يعمل في تجارة المخطوطات، يرغي ويزبد بجوارك، يأمرني بإطلاعك على كلّ شيء، ثم يشير إلى شخص كأنّما ينشقّ به الغيب لأعرّفك إليه. يتقدّم ذلك الشخص وفي يده ذلك الكتاب المشؤوم. ورويدًا رويدًا يتحوّل إلى ظلّ رمادي، حتى إذا ما كان أمامك ناولك الكتاب وتلاشى. ثم إذا بك تتقدّم نحوي، وأرتدّ متراجعًا. تتقدّم أكثر، فأرجع القهقرى، حتى أصطدم بجدار هذا البيت، أتخلّله، فأراك أمامي تقهقه، في يدك كتاب، ليس ذلك الكتاب المشؤوم، بل كتاب آخر يقول لي الحلم إنّه شيء منّي. أحاول أخذه فلا أستطيع. أحاول وأحاول، حتى إذا ما يئستُ ناولتني إيّاه. أتصفّحه فلا أفقه منه شيئًا. أعيده إليك، فأدخل في دوّامة صمت تقذف بي في عتبات اليقظة».

ولجنا خرابته الغارقة كعادتها في تلك الظلمة الموحشة. اهتديت بذراعه ليمضي بي حتى الطابق الثالث. كأنّما أدخل يده في فجوة ما، ليخرج منها مصباحًا يدويًا. وها نحن في غرفة تكاد تكون عارية إلّا من فراش رثّ ولحاف أكثر رثاثة. ناولني المصباح، مشيرًا بأن أقف على عتبة الباب لا أتجاوزها، بينما وقف وسط الغرفة يمدّ كفّيه ضارعًا يهمهم بما لم أفقه منه شيئًا. ها هي تنبعث من كلّ الأرجاء. أطياف بيضاء كثيفة انقضّت عليه. توهّج جسده وهجًا فسفوريًا غمر كلّ شيء. سقطت مغشيًا عليّ.

أفقتُ أكثر ذهولاً. كنت في غرفتي وكأنّما استغرقت في نوم عميق. سأتردّد إليه كثيرًا، وسأغيب عن الوعي كلّما بلغ ذلك الدعاء، وسأكون في غرفتي دائمًا حين أفيق. لن أجد لما يحدث تعليلاً، مع أنّني كنت ألحظ تبدّلاً في شكله قبل أن يغمى عليَّ. رفض ـ رغم إلحاحي ـ تفسير أيّ شيء، قائلاً: «إن كنتَ المنوط بالأمر، فسيأتيك الإدراك».

الــطـــور الــثـــانــي

الـقــدمـــان

كنت طوال تلك المدّة، وهي أسبوعان لا غير، قد نسيت أمري مع (ر)، حتى إنّها لم تخطر لي على بال. ولولا مجيء أخيها وتوجيهه دعوة أخرى، للغداء هذه المرّة، لاستمرّت حياتي دون حتى أن أذكر شيئًا ممّا كان لي معها. قبلت الدعوة، رغم كلّ ما تشبّث بي من إنهاك وشرود. استقبلتني الأمّ مرحّبة كعادتها. وبقيت هي متوارية كعادتها أيضًا. لم يكن ثمّة متّسع لعينيّ ولتلصّصهما؛ فالطعام كان قد وُضِعَ ولا مناصّ من الجلوس إليه. ستخبرني أثناء الغداء أنّه زارها مرّة أخرى. كانت واقفة بباب المعتزل لا تجرؤ على الدخول، رغم أنّه لم يكن ثمّة سبب واضح لذلك. ثمّة وقع أقدام في بهوه المظلم. ظهر مطأطئًا كعادته. يداه إلى الخلف كأنّما يخفي شيئًا ما. ها هو يقترب حتى يلتصق بها. رفع رأسه ببطء. ارتدتْ إلى الخلف فزعة. من رأته لم يكن هو، بل كنت أنا.

يبدو أنّها لم تجد ما كانت تتوقّعه سيرتسم في ملامحي من اندهاش؛ فقد كنت منشغلاً عن حلمها باستراق النظرات بين الفينة والأخرى. ران الصمت. ولحظة يئستْ من أن أقول شيئًا، نادت ابنتها

أن تأتينا بمصباحين. خرجنا ثلاثتنا؛ بينما وافتنا (ر) من باب خلفي حاملة المصباحين، وناولتهما واحدًا للأمّ والآخر لأخيها. أحسستُ بذلك التوتّر الذي يعتريني كلّما رأيتها. كانت فرصة لرؤيتها بعد كلّ ذلك الغياب. تقدّمناهما أنا والأمّ باتّجاه المعتزل. كان ظلام دامس يلفّ المكان.

ها نحن نخترق كلّ ذلك الغموض. أصداء خطانا، أصوات أبواب منذ دهر لم تُفتح، ضوء المصباحين، وهوام الغبار المحتفية به، كلّ ذاك زاد من رهبة المكان. غرفة ليس فيها ما يستحقّ الذكر، سوى أنّه، حسب قولها، كان يستقبل فيها زوّاره القليلين. سجّادة كبيرة لم أتبيّن لونها، تتوسّط أرضيّة الغرفة، محاطة بثلاث أخريات أصغر منها وبعض وسائد ومتاكئ ومخدّات، من تلك المستخدمة في جلسات القات. غرفة أخرى، لا شكّ أنّها غرفته الخاصّة؛ فالمعتزل عبارة عن غرفتين وحمّام ولا شيء آخر. وجدتها أكثر اتّساعًا ومكتّظة بأدوات معمليّة وكتب وأشياء لا سبيل لحصرها. كانت ستكون غرفة عاديّة لشخص في مثل غرابة الرجل، لولا أنّها مصمتة بلا شبابيك. الهواء ثقيل كأنَّ أنفاسه ما تزال حاضرة. ستشير إلى طاولة وكرسي صغيرين أسفل الغرفة قائلة إنّه كان ينكبّ لساعات وساعات عليهما، كأنّه يستعجل الانتهاء من كتابة ما لديه.

رغبة جارفة تحثّني على البقاء وحيدًا. طلبت ذلك على استحياء. انسحبوا بهدوء يتبادلون أضواءً حائرة لكأنّما يرون في الأمر جرأة في طلب ما ليس من حقّي. سيضع (ب) المصباح بهدوء، منسحبًا إلى الخلف، لأهتف به أن لا حاجة لي بأيّ ضوء، وطالبًا منه أن يغلق الباب وراءه. جلستُ على الكرسي مسندًا مرفقيّ إلى الطاولة. وها أنا أستسلم لتلك الرغبة الأليمة. قلق يملؤني. سكون يحتوي كلّ شيء. خوف يتفشى في كلّ ذرّة هواء، هذا إن كان ثمّة ذرّة لم تُستهلك. ها أنا

جالس حيث كان يجلس، حيث كان يكتب! هل الكتابة، إن لم تكن طقسًا، ممكنة في هذا المكان؟! ظلام يتسرّب إلى الروح. رجفة تكتسحها. خيالات تتزاحم. صوت كأنّما يأتي من أعماق الأزل قاطعًا كلّ مسافاته اللامتناهية. يتكاثف الصوت حتى يتحوّل إلى دويّ يعصف من كلّ الجهات. إنّه صوته. أجل إنّه هو قد اقترب كثيرًا، فما الذي سيكونه وقد اقترب أكثر؟!

خفق ضوء في سماء الغرفة. لم تعد غرفة؛ بل صارت مدىً فسيحًا من ليل. بل هي ذاتها، وأنت أنت، وهذا الكرسي وهذه الطاولة! فلا تستسلم لهذا الإغواء! وبينما غرقتُ في تساؤلاتي تلك إذا بخفق آخر يضيء لي كلّ ذلك المدى الفسيح، لأقف مذهولاً كأنّما أستعدّ لصعق شديد سينزل بي الآن. كان ما توقّعته، فرأيتني بعدها جسدًا معتمًا يهوي في دوّامة ظلال لا يخرج منها. يلفّني من الظلام ما يلفّني. نقطة ضوء تخفق في الأعماق وأوغل في اتّجاهها. إنّه هو ينظر إليّ وقد أصبحنا قريبين جدًّا أحدنا من الآخر. لكأنّه يتلبّسني! أو لعلّي أتلبّسه. العتمة ذاتها، والدوّامة صارت مدًى منبسطًا، وأنا فيه ذاك الجسد، جسد فحسب، إنّما مضاء.

المدى المنبسط يتحوّل فجأة إلى تلك الغرفة الشحيحة التي كما أخبرت كان معتزلاً أواخر حياته فيها. أراني واقفًا على عتبتها. ذلك الممسوس يبدأ أدعيته. هاتف يقول إنّ تحريره من لعنته يستدعي أن أعيش معه وأشاهد كلّ تلك العذابات. الظلال ذاتها تندفع نحوي. شيء ما يقذف بي داخل الغرفة. ارتميت على ظهري متظاهرًا بالإغماء. الأطياف الكثيفة ذاتها تحتويه متخلّلة جسده، ليتحوّل تدريجيًّا إلى كتلة هلاميّة تتضخّم باطّراد. دماء وتقيّحات يزفرها جسده. آهات تزفرها الروح. كلّ ما فيه ينبئ بشيء واحد: الألم. اكتسحتني رغبة في التقيّؤ.

أغمضت عينيَّ أحاول كبحها. فتحتهما ومجسّم العذاب ذاك يتقدّم كأنّما يحاول الانكباب عليَّ. حاولت دفعه إلى الوراء. اخترقته يداي لكأنّه كتلة شبحيّة. انزاح عنّي طافيًا كبالون، ثم ارتطم بأرضيّة الغرفة لأراه بذلك الثوب المهلهل منكفئًا يشهق بالبكاء.

المدى المنبسط ذاته، أذرعه بخطًى منتشية إلى حيث لا أدري. كتاب ما أتأبّطه بزهو. الهاجس ذاته يقول إنّه هو من أعطانيه. أواصل سيري نحو شيء ينتظر! يتجلّى فتاة في ثوب زفاف تبتسم بخجل. أقترب منها. إنّها عروسي، وكلّ هذا الحشد المهيب من أجلي. إنّها (ر)! لا، بل (خ)! بل كلتاهما. أمدّ يديَّ كأنّما لأعانق. يسقط الكتاب لتلتقفه يدان أخريان؛ يدان فحسب، تطيران به، وبذهول أحاول ألّا يسرقاه منّي. أحاول، أحاول، ثم...

وها أنا أنهض يغشاني الفزع والعرق على ذلك الكرسي أمام تلك الطاولة. لا أدري كم من الوقت مضى وأنا على تلك الحال. فتحتُ الباب الذي طلبت من (ب) قبل ما لا أدريه إغلاقه. خرجتُ منهكًا بفم متيبّس لا أكاد أقوى على المشي. اتّكأت على جدران المعتزل، مدركًا أنّه لم يعد ثمّة من أحد هنا. ها هو (ب) يلتقّفني قبل أن أقع. ناولني بعض الماء، ليمضي بي خارجًا. كان الظلام قد خيّم، وها أنا أستنشق عبق حديقة مهملة، مهملة مثلي.

عدت إلى المنزل. لم يفارقني ذلك الشعور بالفزع؛ لا من شيء هذه المرّة إلّا من نفسي. صعدتُ إلى غرفتي. أخذتُ دشًّا باردًا أكنس به ما تكدّس من آلامي. استلقيت جسدًا منهكًا يحاول فرارًا إلى النوم! طرقات مرحة تتراقص على صفحة الباب. لم أعهدها يومًا بهذا الفرح! تعلّقت بي قائلةً في جذل:

ـ لقد شفي أبي! إنّه بانتظارك!

٤ ـ كتـــاب الـبــرزخ

البرزخ الأوّل

المهد

اجتاحني شوق لقريتي عارم. كنت قد غادرتها مع أسرتي بعد عامين من حادثة «الكهف المنجوث». ولم أختلف إليها إلّا لمامًا أسلّم على أمّي وأعود أدراجي بأسرع ما أستطيع. هذه المرّة لم أكن أرغب في زيارة عابرة لها؛ بل أن أمكث ما قدّر لي، وأقطن دارًا يئستْ من عودة أيّ من قاطنيها.

بعد جهد تمكّنت من إقناع زوجتي بذلك، ولو لفترة بسيطة، يتعرّف فيها طفلانا اللذان لم يعودا كذلك، وإن يظلّ الابن في نظر والديه طفلاً مهما بلغ به العمر؛ أقول: ليتعرّفا على قرية أبيهما وجدّهما، قريتهما، وإن اشترطتْ أمّهما العودة معهما متى شاءت. اضطررتُ للقبول مجاراة لها، على أمل أن تروقها الحياة هناك.

شهر وآخر ولا يبدو عليها انسجام، حتى إذا ما انصرم الثالث لم أعد قادرًا على احتمال تذمّرها، فارتأيت أن تعود بهما وأن أبقى إلى ذلك الذي يشدّني إليه لا أستطيع له ردًّا.

وحسنًا فعلت؛ إذ لم يمرّ أسبوعان على رحيلهم، حتى رحت أزجي

نهاراتهما مع الناس والقات، ولياليها مع الكتب، حتى بدأ يلحّ عليَّ هاجس أن أهيم في الجبال المقفرة المحيطة. حاولت مقاومته، لكنّه لم يكن إلّا ليزداد اضطرامًا.

كنت قد قرأت «الجفر» مرارًا وتكرارًا، دون أن أخرج بنتيجة. كان وكأنّه من تلك الكتب التي كلّما قرأتها لم تزدد إلّا استغلاقًا وإبهامًا؛ وإن تعزو إلى وعيك الباطن أنّه قد حظي بالكثير من المدارك. ألا يقولون إنّ الشيء لا يأتي إلّا في أوانه!؟ إذن فأوان إدراكي، وإن تأخّر، سيأتي. وإن أظنّ «الجفر» إلّا كسواه من الكتب، لا يخرج عن نطاق اللغة، وإن بلغ به الرمز مبلغًا من الاستعصاء والغموض، أو أنّه ـ في أكثر الأحوال ـ القدرة على استخدام الرمز وتطويعه ليحلّ محلّ اللغة وللحؤول دون بلوغ مدركات يراد ألّا يدركها إلّا من تريدهم.

وأكاد أجزم بأنّ كلمة «الجفر» ليست سوى تحوير طفيف لكلمة «الفجر» وتحمل الدلالة ذاتها أيضًا: الانبعاث. لكنّي سأحتفظ برأيي هذا؛ على الأقلّ حتى يأتي المكان الذي أستطيع فيه شرح تعويذته، وهي التي ستفتح الأبواب المغلقة وتكشف ذلك الاسم المكنون. وأريد أن أشير هنا إلى أنّ من يريد أن يحظى بشيء من كلّ ذاك لن يحظى به إلّا إذا سعى للاسم سعيه؛ فمثله لا يتناقل أو يتداول أو يتوارث، بل يشرق في القلب. لكنّني سأتحدّث فقط عن قوّة الكتاب، رغم ما قد يسبّبه لي هذا من كوارث. وليغفر لي الله ولكلّ من أوقعني في اضطرار كهذا.

في فجر ما، وبينما أنا كعادتي جاثٍ على تلك الصخرة المشرفة على «غيل» القرية، أتأمّل، إذا بطيف ينبعث كخيط ماء، ثم يتكاثف ليصبح مآله الجبال والسهوب المقفرة، يخوضها ممتزجًا بها، بروح طبيعتها البكر.

البـــرزخ الثـــاني

«الـكـهــف الـمـنـجـوث»

ارتديت أجمل ثيابي، وغادرت ميمّمًا صنعاء. قضيت ليلتي هناك مع أسرة لم تعد تراني إلّا عابر سبيل. في الفجر، وعلى مرآى آخر دمعة رشقتني بها أعينهم، أطفأت حواسي وتلاشيت.

في غمضة وجدتني أمام دار القرية. اخترقت بابها الموصد موقنًا أنّي صار بإمكاني استخدام ما أدركه من قدرات. أودعت جملة أشيائي وكتبي هناك، سارحًا على الفور في ذلك المدى المقفر المحيط بالقرية وبألف قرية بعدها، كالممسوس، بل كاللاشيء، لا آبه لأحد ولا يأبه لي أحد.

إنّها الرغبة في تقمّص روح البدائي والامتزاج مع الطبيعة البكر، جوهر كلّ جوهر. تتمزّق قدمان ويتقرّح جسد وتُطرق قفار وتُلتحف سماء. أرجاء لم يدنّسها دنس ولم تطمثها قدما إنسان.

حولان كاملان أرضعتني فيهما أمّي العذراء كلّ الحليب الذي لن تستطيعه أمّهات الدنيا. حولان وأنا نهار يهيم متأمّلاً كلّ حجر وشجر وحيوان، وليل يفترش ظلّه الناعم ويتدثّر ظلمته الدافئة مناجيًا ملكوت

السموات. جسد مهترئ يحملني أو أحمله أنّى كنت، أزوّده إن جاع بثمار أشجار وجذور وأوراق نباتات، وأحيانًا ببقايا ما يخلّفه رعيان، ويعبّ إن ظمئ من مياه ينابيع وجداول لم تصل إليها مخلّفات ما تسمّى «الحضارة المتقدّمة».

تلك الحضارة المتقدّمة هي المتسبّبة الكبرى في تلويثكِ أيّتها الأرض، وفي اختلال توازنك أيّتها البيئيّة! وهي عدوّتكما الأولى. إنّها نصيرة الظلال وأحد أسلحتها.

ألم تكن براريك هذه مهد إنسانك الأوّل؟! ألم تعرفيه كائنًا لا يستهلك ولا يستأثر بأكثر من كفايته، لا يعرف ولا يعترف بأيّ حواجز أو موانع تعوق تحرّكاته، لا حدود ولا بطاقات هويّة ولا جوازات سفر...؟! العودة إليك هي العودة إليه. ها أنا أرضع مادّتك الأولى عامين، مدّة الرضاعة الطبيعيّة، وهي نفسها التي يحتاجها كلّ من يريد أن تمنحيه إنسانه الأوّل!

كلّ شيء يعيدني إلى ذكرى تبدو أزليّة. كلّ شيء يمضي بانسياب وهدوء. لكأنّها السكينة لا ينغّصها سوى محض ذكرى.

* * *

لا أدري، لكنّني لم أعد أرى في الظلال سوى أجسادها. ويا لهذه الظلال كم تبهت أمام سطوة الجسد وجبروته!

للظلّ خاصّيّة غريبة لا يلحظها إلّا القليل: الانبثاق والتلاشي في آن واحد. والمعروف السائد أنّ للجسد ظلًّا واحدًا. هذا ما لا أعتقده؛ فلو تأمّلنا جسدًا مصوّبًا عليه أكثر من ضوء أدركنا أنّ رؤيتنا تلك هي الخطأ بعينه؛ إذ إنّ عددًا لا نهائيًّا من الظلال سينبثق من ذلك الجسد، بحسب زوايا الإضاءة وكمّيّتها وثباتها. فإذا أخذنا في الاعتبار أنّ كلّ روح لا بدّ

لها من تجسّد لتكتسب صفة الكينونة، فلا روح بلا جسد، ولا جسد بلا روح، كما لا ظلّ بلا جسد ولا جسد بلا ظلّ. الجسد ـ إذن ـ مشترك الظلّ والروح. وبما أنّ الروح الإنسانيّة هي من روح الله، مطلقة لا نهائيّة، فيمكن ـ انطلاقًا من مبدأ أنّ الجزء يكتسب صفات الكلّ ـ أن ينبثق عن الروح الواحدة عدد لا نهائي من الأرواح. ولكن ماذا لو تلبس الروحَ ظلُّ الجسد، لا الجسد نفسه؟! هل ستسفر عنهما حياة؟! باختصار: هل من الممكن للأرواح اللا متناهية أن تتلبّسها ظلال لا متناهية؟!

كلّ ما أنا فيه يقول إنّ ذلك ممكن؛ لكن فقط: أن يكشف الجفر سرّه.

يقال إنّ حروف «الجفر» منبثقة من اللوح المحفوظ، تناقلها عدد من الأنبياء والمرسلين والصالحين دون أيّ تجلٍّ لها، حتى أذن الله بتجلّيها الجزئي، أوّلاً على يد نبيّه إبراهيم، وذلك حينما تمكّن من تغيير خواصّ النار لتكون بردًا وسلامًا. ثم جاء سليمان فعُلِّم بها منطق الطير وتصريف الرياح، مهيمنًا بذلك على ظواهر الطبيعة، بل وحتى على عوالم أخرى كالجان والعفاريت. ثم ما كان من أمر موسى وعصاه، وعيسى وإحيائه الموتى وإبرائه الأكمه والأبرص وغيرهم من المرضى. ثم جاء القرآن ببيانه الذي طغى على تلك الحروف؛ فما كان من خاتم النبيّين إلّا أن عهد بها إلى رجل من أصحابه؛ خشية أن تنقطع من بعده باعتباره آخر الأنبياء. مَنْ غير باب مدينة علمه، ابن عمّه: علي؟! أوّل إنسان غير نبيّ ولا رسول انتقلت إليه.

* * *

ليل حالك تغشاني رغبة أن أجوسه إلى حيث لا أدري. ها أنا في توحّدي بذروته، بروحي الأولى، بكلّ ذلك الذي لا أراه، أشعر أنّي لا

أحد، لا روح، لا ظلّ، ولا جسد. نقطة فراغ هائمة يتجلّى فيها «الجفر» شاهقًا بكلّ ما فيه.

وها هي تلك النقطة التائهة تتوقّف أمام منبع خوفها: «الكهف المنجوث»، بعد أن كانت تتعمّد ـ بكلّ تسكّعها وتجوابها وتهيامها ـ ألّا تقترب منه. وها هي ذي أمامه أخيرًا.

إنّ تقمّص الروح ظلًّا بمنأى عن جسده سيأتي بمخلوق خارق. أمّا إذا تقمّصته وجسده، فسيكون ذلك المخلوق قادرًا على اقتحام كلّ باب للجسد وللظلّ وللروح.

ها أنا وجهًا لوجه أمام ذكراي. ذكرى معتمة كأنّما انبثقت من غياهب العدم. وقفت مرتجفًا أتملّى الظلمة، فإذا بذلك الشيء الذي جذبني سابقًا يشدّني بلهفة غياب، لأتهاوى في القعر مثخنًا بالغياب.

البـــرزخ الثـــالــث

الغيـاب إمعـان الإمعـان

نقطة موغلة في البعد. أطياف بيضاء تتهادى منها. شيء ما يبحث عن شيء ما. يعييه البحث، فيصرخ من مكان قريب بعيد، لكأنّه من أعماقي. أنا تلك الروح وذلك الظلّ لذلك الجسد. التفت ثلاثتي نحو الصوت. أدنو وأدنو. كلّ خطوة تعود بي عامًا إلى الوراء. وها أنذا كأنّي في السابعة من عمري. ظلّ ما ينشقّ عنّي. هو ذاك الشيء الصارخ. أشخص نحو فراغ أزلي. ظلّ آخر ينشقّ راكضًا نحوه. ظلّان يخفقان كجناحين. هذا أم ذاك الظلّ أنا؟! من الظلّ الآخر؟! أيّتها القدرة! أيّتها الفكرة! هذا ظلّ رفيقي في الرعي. تتجلّى الذكرى. صوت يدوّي من أعماق ليست لي:

ـ أما زلتَ تروم الهرب بعد، وأنا مسكون في ظلّك منذ تمنّيتَ لي الشرّ؟! فاشربْ من تلك الكأس ولو نزرًا، كي تعرف أيّ الذنب جنيت! أيسر ما ستُكَفر عنه أن تستجدي الموت!

يا لذاك الذنب المتشبّث لا ينفكّ! كأن ليس لي منه خلاص. إن هي إلّا رغبة تمنّيتها لم أتوقّع حدوثها، رغبة طاغية لم تكن بي قدرة على

صدّها. وها أنا منذها أفرّ متقلّبًا بين جمر الندم، أحاول إقناع نفسي بأن لا علاقة لي بالأمر، فلا يزداد ذنبها إلّا رسوخًا ووطأة. ويا لي الآن كم أتمنّى أن أعبَّ من الكأس ذاتها! أن يُنزل بي ما نزل به!

لحظات لا يقطع سكونها سوى خفق جناحين. وها هو ذاك ينقضّ عليَّ، فأنتفض كمن أصابته صاعقة. أستنشق رائحة لحم يتفحّم. اللظى الذي اجتاحه يهصرني الآن. أتلوّى، أذبل، أوشك على الانطفاء. سكون عميق يسكنني. أرفس لائذًا بلذيذ الصمت وحتى الموت. صوت مبحوح لغلام يتلوّى، ليس سوى صوت ذلك الراعي:

ـ ها قد ذاقت روحك/ جسدك آلامي! آن لظلّي أن يتحرّر منك.

ارتجف ظلّي كأنّما أفاق من خفقه هناك وانقضّ على ذلك الظلّ يحرّرني من بين براثنه. عدت تلك الروح وذلك الظلّ لذلك الجسد. استعاد ثلاثتي كلّ توحّد كان. تحرّرت من كلّ ذنب، وتجرّدت من كلّ شعور؛ إلّا محض الحبّ. تماهيت بذلك الشعور لأجدني ظلًّا محضًا يسبح في فضاء الكهف، تهدهده أمواج كيف يشاء.

لم أكن ممتطيًا عنان وهم. كنت محض حقيقة، انعتاقًا كاملاً لروح وظلّ وجسد. يا لقوّة هذا الاسم المكنون الذي أصبحته! إنّه ما يسعى وراءه الأنبياء والفلاسفة والمفكّرون والأولياء والقدّيسون والتائهون والسحرة والمشعوذون والحالمون والمجانين... إنّي الآن جميعهم.

إنّي الآن تلك النقطة التي كانت إليها تشير خرائط الظلّ. أنا ذلك المكان الذي أستطيع فيه تكرار جسدي وظلّي وروحي. لقد وضع معلّمي في متنه كلّ هذا نصب عينيَّ؛ ولكن أنّى لي رؤيته وأنا من كنت مكبّلاً بي؟!

أحاطت بي تلك الظلال المتهادية، تلفحني وتجذبني نحو أقصى

الغموض. كانت لحظة متجرّدة من كلّ شيء، ممتزجًا فيها كلّ التناقضات والتغيرات كأنّها العدم. وها أنذا ما كنت أحسبه تهيّؤات يتبدّى واقعًا محقّقًا.

أومضت جدران الكهف ذلك الوميض الفسفوري، لينبعث من أعماقها، من أعماقي، صوت متصاعد:

«آن أوان اكتمال دائرة الرؤيا/ اللقيا. قبل أن تلج الحاجز الأخير لا بدّ أن ترى ومضات من تاريخ أخفاه عنك معلّموك حتى لا تنصرف عمّا أرادوه لك. ستشرق في عينيك بدايات ونهايات كلّ أولئك الذين ذابوا عشقًا في الفكرة، واجترحوا الموت في سبيلها. انظر كيف استحالت فكرتهم كفنًا! فتراجعْ، حتى لا تتحوّل فكرتك أنت أيضًا كفنًا منسوجًا!».

ظلام ما حولي وكأنّي أجتاز مفازات ومفازات متجاوزًا كلّ خصائص ذاك المدعوّ زمنًا، ليمرق الكثير من الصور لثورات شتّى أذكتها أرواح المقاومين وسقتها دماءهم، بكلّ انتصاراتها وهزائمها، أفراحها وأتراحها، آمالها وخيباتها، ثوباتها وانكساراتها... منذ أوّل ثورة في الأرض وحتى ما يبقى منها، أمر واحد كأنّه هو مآلها جميعًا: الانكسار. كلّ ثورة سُعي إلى طمسها وحرفها عن المسار الذي قامت من أجله. إنّ أهمّيّة أيّة ثورة لا تكمن في كونها انقضاضًا على شيء عفا عليه الزمن، أو على ظلم جثم على الكواهل حتى أناخها، أو على انقضاض سبقه؛ بل في قيمتها كأسلوب تغييري يجتثّ جذورًا من أساسها ويضع بدلاً منها جذوره التغييريّة. إنّ ما تحدثه الثورات يظلّ راسخًا حتى وإن سُحقت أو تهاوت، أو التفّ عليها الظلال والظلاليّون. هذا ما أظنّه حدث للثورة الأخيرة في بلدنا؛ إذ أحدثت من التغييرات في كافّة بنى المجتمع ما لم يكن في الإمكان أو الحسبان. إنّ من حملوا رؤوسهم على أكفّهم في

سبيل التنوير وإشعال فتيل الثورة يدركون الآن أنّ موتهم لم يكن إلّا لإحداث حياة أرادوها لمن بعدهم. بل ويكفيهم رضًا عن أنفسهم أنّ موتهم ـ في أسوأ الأحوال ـ قد كسر حاجز الرهبة من الظلال والظلاليّين في قلب كلّ مقاوم ونصير. ها هي مآثرهم وبطولاتهم تتجلّى صورًا عظيمة أتشرّبها كواحد من أولئك المقاومين الزاخر بهم هذا البلد المحكوم بالعناء.

صور وصور... وصور... وصور... حتى لكأنّي سأدخل في غياب كامل لو لم يقطعه ذلك الصوت:

«إنّها آخر خطوة، يمكنك عندها أن تتراجع وتنضمّ إلى المتربّعين على عروشهم الفضيّة ينتظرون جلوسك على عرش شاغر آخر. لا عودة إن أزمعت المضيّ في ذلك الدرب الذي أراده لك قدرك. حينها لن تستطيع أن تكذب. سيفضحك كلّ شيء فيك. ستصيبك ومن أحببت لعنة من سبقوك!».

تلفحني الحيرة: أأنكص بعد كلّ ما قطعته، بعد كلّ ما عانيته، بعد كلّ ما تشرّبته؟! أهنالك من فرق بين خوف وخوف؟! هل أطوي بالخيبة كلّ من منحوني حلمهم وأنفسهم؟! ثم إن ولّيت ظهري هل سأتمكّن من النجاة؟! وهل النجاة أن أعود ذكرى ظلّ خانع؟! هل أستسلم لذلك المنطق؟! هل أكْفُر بكلّ تلك النضالات والبطولات والمآسي والدموع والأحلام؟!

سأكمل دربي، وسأمنعك أيّتها الظلال من تحقيق مراميك. لن يغدو الظلّ جسدًا، ولا الجسد ظلًّا. افتحي لي الباب كي أتربّع هازئًا بعروشك وأسيادك وكلّ معانيك.

البـــــرزخ الـــرابـــع

الانـــبـعـــاث

تمرّ الشهور والشهور وأنا في معتزلي الكئيب أدوِّن ما أملته عليَّ الفكرة. هذا الذي لو سمعته من شخص آخر لظننته محض هراء أو تخرّصات متخيّل واهم. انفصام ما أمرّ به، حتى لكأنّ حياتي، بل الحياة برمّتها، وهم كبير.

واهن أشدّ الوهن. أشعر بظلال تتربّص بي. ثلاثة أسابيع منذ عودتي من تشرّدي وشرعت في بناء معتزلي لأشرع في تدوين ما حلّ بي من كابوس، من فزع، من ألم، من غياب، من حياة... لا شيء يخفّف من عبء ما أنوء به سوى النوم واضعًا رأسي على صدر زوجتي أتنسّم عبقها.

* * *

تكاثفت الظلال المتهادي بعضها على بعض مكوّنة كرة بيضاء متماوجة تتضخّم باطّراد. خدر أليم يشلّني. تتحرّك الكرة بسرعة هائلة، لينبثق دفق ضياء أبيض أعجزني عن أيّة رؤية. شيء ما يفوق كلّ تصوّراتي يجذبني إلى حيث لا أدري. أحسّ بجزيئاتي تتفكّك هائمة في

مسافات سحيقة تبدّت. كانت كأنّما تسرح بسرعة البرق. لم أفقد شيئًا من مداركي، بل ظللت أمتلك زمامها جميعًا. نسغ بياض يتضخّم كلّما اقتربت، حتى غشي كلّ ما حوله من مدى. تباطأت السرعة تدريجيًّا حتى لكأنّي التحمت به. كان بياضًا كثيفًا يغشى كلّ شيء. أمعن حواسّي ومداركي، أغمض بصيرتي وأفتحها ليتجلّى ذلك الظلام الأبيض عن طيف رمادي متكاثف يشعّ، لكأنّه أنا.

هل ثمّة من يستطيع تمييز ظلّه؟! أظنّه أمرًا يصعب إلّا على من حاز المعرفة وتملّكه النور.

يغشاني المدى الأبيض مجدّدًا حتى لا أعود أرى شيئًا. لا بدّ من معنى لكلّ ذلك، أو أنّ هنالك لبسًا ما. أحاول لملمتي. أنتظر ما عساني صرته، أو هذا الذي يريده منّي هذا البياض المعتم. صدى كصداي يدوّي:

«أنا أنت! أنا ظلّك في أعماقك، نفسك في نفسك، عبور حلمك إليك».

من ذا لا يبهت إذ يرى ذاته متجسّدة أمامه؟! من ذا يستطيع أن يتمالك ذاتًا ذاتُها منفصلة؟! هل أنا بتجاوزي المحسوسات قادر على التجاوز وبلوغ اللّامحسوس، قادر على بلوغ نفسي واختراق الوكر حيث مقام الوهج/ الظلّ؟!

أحسستني أجيب بالصوت ذاته:

ـ سأغشاني وحيدًا، فأنا أشعر بي.

ـ لا أحد هنا يشعر بأحد، ولا شيء يشعر بشيء. إحساس زائف يتملّكك. وهم يحاول أن يضلّلك كي لا تبلغ شيئًا. وهج تربّعك على العرش الفضّي مسكون أنت به. أنا روح التحفّز لديك، آلة رؤياك لتعبر

نحوه. استجمع كلّ حواسّك، أحلامك، أوهامك، آلامك، آمالك. . . فيّ. جرّد نفسك من نفسك، من كلّ سوى ذلك الاسم المكنون وقد صرته. واتبعني الآن!

* * *

يا أحلام! لا تتولّي عن أضغاثك! فيضي خيالاً وخيالاً! ويا ظلّي المسكون بظلّي! اخرج لتهيم بين ظلال وظلال، واسرح في ملكوتك، سترى الأشياء ظلالاً، والأسماء ظلالاً، والأرض والأموات والأحياء. . . وحدها ظلال الظلال ستراها تجسّدك محضًا.

عناصري الثلاثة تتكاثف وتلملمني مجدّدًا. يتلاشى ذلك المدّ الأبيض. لا أعود أرى ذلك الذي يتقدّمني. نتفشّى موغلين في عتمة بدا كلّ شيء فيها متوقّفًا، لكأنّنا لم نكن نوغل، بل نتلاشى.

أحداق. . . أحداق العتمة تحدّق بي. لستَ شيئًا يا أنت، فممَّ الخوف؟! هل تفزعك مجرّد ثقوب من تلك المنتشرة في أرجاء الكون؟! لا أدري أكنت أنا مصدر ذلك التساؤل أم ذاك الظلّ، أم كلانا! أيًّا كان، وحتى لو كنت في واحد من تلك الثقوب، لن أظلّ عالقًا هكذا في مكاني؛ سأجتازه ذارعًا هذي الظلمة من أدناها إلى أقصاها، لاحقًا بك أيّها الظلّ الذي أشعر أنّي بك ـ كما أنت بي ـ أصبحت اثنين، هنا وهناك في الآن نفسه. بل أراني بذلك قد تجاوزتك وتجاوزت كلّ بعد للزمان وللمكان وللذات وللكينونة.

اثنان أنا، ينجذب كلّ منّا مستعرًّا نحو الآخر، منطلقين بسرعة الظلّ حتى الاصطدام؛ اصطدام دوّى على إثره نور هائل يطوي كلّ ما مرّ. وحين انجلى كلّ ذاك لا أرى سوى وهج فضّي أستلقي فيه.

نهضت بأنفاس لاهثة أجيل النظر في ما حولي. قاعة فضّيّة شاهقة

تتصدّرها طاولة فضّيّة يحيط بها ثلاثة عشر كرسيًّا فضّيًّا، واحد فقط شاغر، مقابل كرسي الرئيس. اثنا عشر ظلًّا فضّيًّا لا يبدو عليهم الاكتراث لوجودي، باستثناء ذاك المتصدّر الطاولة. كانوا وكأنّهم على وشك عقد اجتماع لولا تأخّر العضو الثالث عشر. وها أنا أبدو أيضًا كما لو أنّني ضبابي مبهم، مصبوغ بالفضّي مثلهم تمامًا.

شيء ما يشدّني نحو ذلك المترئّس. انجذاب شديد كذاك الذي استعرّ بي حين كنتُ اثنين ليحدث بي ذلك الاصطدام. غير أنّ الموقف لم يكن يحتمل أيّة مغامرة؛ فأنا لمّا أعرف بعد كلّ هذا الذي يحصل. صوت مصوّب نحو لا شيء يهمس بما يشبه الدوي:

«ها قد جئت أخيرًا! وها قد تكلّلت مساعينا باكتمال آخر حلقة في خطّتنا! لقد كان اختيارًا مثاليًّا لنا ولكلّ أولئك الذين أرادوك ممثّلهم في مجلسنا. الآن وقد اكتمل بك المجلس آن لنا أن نمزج بالفضّي عالم الظلال الواحد».

إنّ اكتمال نصاب المجلس لا يتأتّى من خلال الظلال والظلاليّين فقط، بل لا بدّ للطرف الآخر ممّن يمثّله، سواءً أكان فعّالاً أم لا؛ فالأغلبيّة هي التي تقرّر. ورغم ذلك سنحاول اجتذاب ما لديك من أفكار بما يراعي ويخدم المصلحة العليا للمجلس: السيطرة المطلقة لعالمنا.

نهض فنهضوا. سلّط ناظريه إليّ فسلّطوا، ليعتريني شعور لم أشعر بمثله من قبل، يمكن أن أنعته بالتحرّر المكبّل. فبقدر ما كنت متوهّجًا بقوّة الإرادة ممسكًا بزمامها، كنت منجذبًا إليه. تقدّم حتى صرنا وجهًا لوجه، يحيط بنا البقيّة كسوار حول معصم. مدَّ إلى جبيني كفًّا شفّافة. انهمر على ذهني الكثير والكثير، ما مرّ بي وما لم يمرّ: حكايات ومآسٍ وأحزان وكوارث وحروب ومذابح ودمار وخراب... وكلّها من صنيعة

البشر. ألا يكفي هذا المخلوق المتبجّح كلّ ما قام به؟!

وكلّما تدافعت الأحداث في ذهني ازدادتْ كفّه وطأة، حتى لكأنّها تخنقني. كلّ تلك الأحداث يتداخل بعضها مع بعض وتحتدم بسطوة شديدة. أوشك على الانهيار، فأركّز ما تبقّى من قدرتي على المقاومة لاستنهاض ما يمكن استنهاضه قبل أن يفرض هذا الظلّ، سيّد العالم القادم، سيطرته التامّة عليَّ، روحًا وظلًّا وجسدًا. شعرت بي أو بنسختي الأخرى تنسلّ متوارية في غفلة من تلك الكفّ، محجوبة بذلك الاسم الأعظم. أيقنت أنّها لحظة الكشف قد آنت. ورويدًا رويدًا سطعت الرؤية في القلب.

قبضته بدأت تتراخى، وهو يتمتم بما جعلني أشعر بالتهاوي. ما إن انتهى حتى أحسستني أمتزج به.

أحسب أنّ الخطّة نجحت؛ لعلّهم يحسبون أنّ لي ظلًّا واحدًا فقط. كنت ذلك المختفي في الأعلى يتحيّن الفرصة الملائمة ليضرب ضربته، وذلك الظاهر في الأسفل ممتزجًا بسيّد الظلال. أدخل أحد أعضاء المجلس يديه في الظلّ السيّد يخرجني منه، والجميع على يقين من اكتمال خضوعي وتحوّلي إلى واحد منهم. محتفين رفعوني على رؤوس ظلالهم إلى ذلك الكرسي الذي ينتظرني لا أدري منذ متى، ليتّخذ كلّ منهم مجلسه.

وها هو ذلك الظلّ الأكبر يبدأ الكلام مجدّدًا بصوت عميق كأنّه قادم من أعماق الزمن:

«ها هي تكتمل أخيرًا دائرة الظلّ، وصار بإمكان عالم الظلّ أن يبسط سيطرته المطلقة على عالم الجسد. سنسلب كلّ جسد حيويّته وقدرته، سنمتصّه ونحيله جثّة خاوية. سنوجّه جحافلنا للانقضاض

والترصّد بكلّ جسد وسلبه ما لديه من ظلّ. سنبدأ بأعواننا أوّلاً. سنسلبهم ظلالهم التي لا يستحقّونها. فكلّ ظلّ هو منّا، ويشرّفنا أنّه منّا، ونحن أحقّ به. سنقول لكلّ ظلّ في العالم: إنّ هذا الجسد الخانع المتخاذل لا يستحقّك، فاتركه وارجع إلى عالمك المتمرّد الحرّ. سننقضّ على أولئك المحايدين، أولئك اللاشيء. ثم سنخوض معركتنا الفاصلة مع أولئك المتداعين من كلّ حدب وصوب لمقاومتنا. بروحك أيّها العضو الثالث عشر وبما تمتلكه من سرّ سنضعفهم ونوهن قواهم ونستدرجهم ونستلّ ظلالهم فلا يبقى على الأرض من سيّد إلّا سيِّد الظلال، إلّا الظلال. إنّ أولئك الذين أرادوا بك القضاء علينا لم يدركوا أنّهم هيّأوك لتكون أداة فنائهم. لقد انقلب السحر على الساحر. آن للظلال أن تتبوّأ المكانة اللائقة بها، وأن تبسط سلطانها على أجساد طالما استعبدتها. ها قد آن للعبد أن يتسيّد».

يا لي من نقيضين يكاد يمحو أحدهما الآخر، وكلّ يزعم أنّه أنا، وأنا لا أعرف من أنا! نقيض يكاد يقفز فرحًا ممّا يسمع، وآخر يكاد يقفز هولاً وفزعًا. أسمع أحدهما ينطق بصوت خاضع هو صوتي، موجّهًا كلامه لذلك المترئّس: شيء ما ينقصني أيّها السيّد، شيء كان بي حين جئت ولا أدري أين ولّى، لكأنّ بعضي تنصّل أو أنّي تنصّلت. إنّه يترصّدني. يترصّد ذلك المتبقّي من حلمنا.

يتساءل الآخر: أأشرع في الحال؟ أم أنتظر أن يحدث ما لا تحمد عقباه؟! القلق يستبدّ بي. لا أظنّ أنّ ذلك الآخر ما زال أنا. فلأقطع الشكّ باليقين ولأقطع آخر صلة لي به.

وقف المترئّس فوقف بقيّة الأعضاء. تجهّم وجهه فاستكانت وجوههم. وبصوت متناغم كأنّما يخرج من فم واحد أخذوا يردّدون ترنيمة كأنّما يوجّهونها إلى ذلك المتجهّم: «يا سيّد العرش! يا كنه

الظلال! يا مطلقنا من عقال الخوف ومحرّرنا من نير الاستعباد، من أنفسنا، من أسر الأجساد! ابسط ظلّك فوق كلّ جسد!».

تضخّم سيّد الظلال باطّراد طاغيًا على المكان، بينما خرّ البقيّة ساجدين خاشعين يردّدون الترنيمة.

أشعر أنّ الأوان قد آن. تلفّظت بذلك السرّ المكنون، فحوى الجفر، اسم الله الأعظم. طوتني الرجفة. زلزلتني وكلّ شيء. لم يكن إلّا أن أمعن فيه فإذا بي أطير؛ لا أطير، بل أنطلق بسرعة وسطوة البرق مخترقًا ذلك الظلّ المتضخّم، ماكثًا فيه بضع هنيهات، لكأنّي أفرغ كلّ ما فيه محتويًا إيّاه ثم أبصقه خارجًا، لينكمش المنتفخ مطلقًا صرخة مدوّية، صرخة تلاشيه ورفاقه. وها هي جوانب العرش الفضّي تنهار.

تهاويت على ذلك الكرسي العملاق، مدركًا أنّني سيّد نفسي. لا سيّد لي إلّا الحقّ. لكن ها هو ظلّي الفضّي، الذي قطعت صلتي به، والذي حسبته قد تلاشى مع من تلاشوا، ينبعث من بين الرماد وينقضّ ليمنعني من الاستواء كما ينبغي. وها أنا أشعر بهاجس يدعوني إلى عدم الاستجابة لخدر عرشٍ وهمي، وإلى العودة إلى عرش سأبقى فيه أبدًا. ها هو جسدي ينادي ظلّه، وها أنا أحاول مرّة أخرى النطق بذلك الاسم، لأشعر وكأنّ ظلي يمتزج بجسدي المسافر في الغيب، وسحابة كثيفة معتمة تطويهما وتحملني في مراقي الغياب خائضًا وفاقدًا كلّ وجود، لأفيق ممّا لا أظنّها غيبوبة، ولا أظنّها إلّا غيبوبة، مستلقيًا بملابس مبلولة وجسد يختضّل من شدّة البرد، تُحَدِّقُ بي عينان من فوهة قريبة في الأعلى. إنّها رفيقتي في الرعي. نعم إنّها هي.

رواية "ظلال الجفر" للروائي وليد دماج واحد من الأعمال الإبداعيّة التي تنبش في قعر التاريخ العربي لما بعد الإسلام عن أسطورة شغلتْ حيّزًا في حياة بعض الأذهان الخاصّة والعامّة، وشكّلت مادّة للحكايات والخيالات. وقد تمكّنت الرواية، بلغتها الشعريّة العذبة وبوقائعها الزمانيّة والمكانيّة، من أن تقبض على أسطورة "الجفر" وتجلّيات ظلاله، وأن تعْبر بالنصّ من مجاله شبه المجهول إلى عالم المعلوم، ومنه إلى عالم الفكر والأدب.

د. عبد العزيز المقالح

وليد أحمد دماج ـ شاعر وقاصّ وروائي من اليمن. يكتب الشعر والقصّة. حازت روايته «ظلال الجفر» جائزةَ دبي الثقافيّة في حقل الرواية عام ٢٠١١.

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١

٧٩٥١٣٥/ ٠١

ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-253-5

9 789953 892535

تصميم الغلاف: ريم الجندي